عيد الدرويش

فلسفة التصوف في الأديان



دراسات فلسفية

فلسفة التصوف في الأديان

عنوان الكتاب: فلسفة التصوف في الأديان
اسم المؤلف: أ.عيد الدرويش
الناشر: دار الفرقد
الطبعة الأولى: 2006

التنفيذ والإشراف: دار الفرقد
الإخراج الفني: رغداء حلوم
التدقيق اللغوي: محمد عبد السلام الحياني

دار الفرقد للطباعة والنشر والتوزيع
سورية - دمشق
هاتف: 6660915 - 6618303 (00963-11)
ص.ب: 34312 فاكس: 6660915 (00963-11)
البريد الإلكتروني: info@alfarqad.com
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.alfarqad.com

عيد الدرويش

فلسفة التصوف في الأديان

دراسة فلسفية

الإهـداء

إلى الإنسان الذي يملك نفسه ليحقق السـعادة

وألا تمـلكه نفسـه فتلك هي الشـقاوة.

عيد الدرويش

المقدمة

الكتابة عن التصوف في الأديـان والثقافات يتطلب منا جهداً غير عادي للدخول في الفصل بين المفاهيم والمصطلحات والمعاني والدلالات واشتقاقاتها في معناها اللفظي والمجازي التي اتسم بها هؤلاء . والتطرق إلى منهجية الدراسة لتوضيحها . أو الإمعان بها من أجل الوصول إلى جوهر التصوف وأبعاده الكونية الإلهية فلابد لأي دارس لهذه الظاهرة من دراسة الفكر الديني والمعرفة الكاملة عن مسيرة الأديان الوضعية والمعتقدات . والشرائع السماوية، ومعرفة الجوانب المادية والروحية في الأديان كافة . وبخاصة عندما يتعلق الأمر بالإنسان لأنه سيد هذه الأرض الذي كان يدفعه الفضول لاكتشاف المعرفة على أوسع نطاق لان كل ما أنتجه العقل البشري حتى تاريخه لم يصل إلى حقيقة مطلقة ولن يصل إليها في درجة الكمال . وكلما تطور يجد نفسه تواقا إلى المعرفة ويكتشف أسرارا جديدة تدل على عظمة الخالق في حيز البصيرة والإشراق التي تم تحصيلها بالمجاهدة في كافة مفردات حياته وفي نومه ويقظته . ويجد في نفسه المفارقات التي تدفعه بين الحين والآخر لقد بحث الإنسان في نفسه وفي محيطه وكل ما أدركته حواسه ليبدأ يفكر في أبعد ما في هذه الحياة . ويصوغ نظما وعقائد معتمدا على عقله المحض ولكن ذلك لن يشفي غليله من التساؤلات التي بقيت تمخر عباب عقله وذاكرته . ويهدأ حينا عندما يعزوا ذلك إلى أن لهذا الكون مدبر أكبر مما تدركه هذه العقول وبدأ يبحث عن السعادة الأبدية وعالم الخلود وظل التباين واضحا بين الأديان الوضعية حول تلك المسائل إلى أن جاءت الأديان السماوية اتساق للمعرفة وإجابات عن كثير من الأسئلة التي كانت تدور في حياة الإنسان ولا نجد تطابقا بين معرفة هذه المسائل في الجانب الفلسفي والجانب الديني بل نجد التباين واضحا في مسائل التصوف والزهد والنسك والمغالاة

في العبادة من قبل القيمين على ذلك من دين لآخر، فتكثر المصطلحات واشتقاقاتها . فمنهم من يقول: إن الصوفية جاءت من أهل الصفة الذين يعزفون عن الدنيا والعيش مع اللذات الإلهية التي جاءت بها الشرائع السماوية . أو ما تطرقت إليه العقائد والأديان الوضعية، وفي موضع آخر يأتي معنى التصوف من الصوف الذي يلبسونه للخشونة ومجاهدة النفس يريدون من خلالها الوصول إلى العبادة المطلقة وهم أهل الورع والتقوى .

ويعتبر التصوف ظاهرة دينية المنشأ، لأنها ظهرت ضمن العقائد والفلسفات الدينية ثم أخذت مكانتها في المصطلحات الرسمية والتعابير الخاصة، وإن اختلفت تسمياتها من دين لآخر، وقد استعارتها أنواع المعرفة والعلوم، ومن لهم تفرد في بعض جوانب تلك المعارف، والفنون، والأجناس الأدبية، وبخاصة جانب الشعر، وحالات الوجد فيه مما يجول في النفس من مشاعر وأحاسيس . وقد عبر الشعر عن جوانب التصوف وما يعتلج في النفس من مكابدة.

وهذه الظاهرة عالمية وفي الجوانب المعرفية كلها، لأنها تتعلق بطبيعة الإنسان من حيث ما تم إبداعه، والنظر في ظاهر الأمور الحياتية اليومية، وما يحيط به من عوالم، وكائنات . فوضع نسقا من المعارف التي استقاها من واقعه، لكي يحقق نوعا من حالة الاستقرار النفسي . والاجتماعي، ضمن البيئة التي يعيش فيها مع أقرانه، ومع تقدم البشرية كانت هذه القوانين، والأعراف هي دستور حياته، وتنظيم علاقاته مع الآخرين، وتعتبر مقدسة، قد أخذت هذه القداسة منحى آخر عما وضعه هذا الإنسان من مبادئ وقيم . وقوانين، و عما كان يجول في ذاكرته التي لم تهدأ عن البحث عن حقائق أخرى تجري خلف هذا العالم، لا يستطيع إدراكها، وجسد فيها العظمة بالشكل والمضمون التي تنقصه، وهي أن هناك قوة خارقة تفوق قوة البشر مجتمعين، وعبر عنها بالآلهة، وجسّدها بأشكال مختلفة، ووضع لها النُصب والتماثيل، وقدم لها القرابين، للتقرب منها لتحميّه من كلٍّ مكروه، وهناك من يرى ذلك الفعل توسطا للآلهة، لأنه لا يدركها، فقد اختلفت أشكال الآلهة وأنواعها من مكان لآخر، ومن زمن لآخر، وإن تعددت أشكال العبادة لها، ولكنها اتحدت في الهدف، هو معرفة حقيقة هذه الآلهة، وكل ما صيغ حول هذا الموضوع يندرج في مفهوم الدين، ليصعد إلى مرتبة القداسة.

من هنا يصعب إيجاد تعريف جامع مانع لهذه الظاهرة . لأن كل تجربة هي فردية تتعلق بجوانب متعددة، ومعقدة، في بنية الفرد ، وعقله، وعلمه، ويقينه، ودينه، وهذه المعرفة روحانية، قد لا تحتويها اللغة في مفرداتها، لأن سلوكها من قبل هؤلاء تبقى في حدود الفردية، وعند دراستها من قبل الباحثين في هذه التجربة تواجههم إشكالية الوصول الى وضع منهجية للتصوف، بالإضافة إلى أن أصحاب التجربة الصوفية من معتنقي هذا الدين، أو ذاك هم قلة، لأنها تتسم بالفردية، وأن الشعور الداخلي، والباطني ممزوج بالقيمة العلمية، والمعرفية، وقدرة ذلك الفرد على معايشة مثل هذه الأمور، واختلاف ذلك الشعور من فرد لآخر في الحالة العادية وما يندرج تحت هذه الحالة الصوفية، ولم يكن هناك ناظم شامل لتلك التجارب، والمعضلة الأخرى هي صعوبة نقل هذه المشاعر، والتعبير عنها ضمن مفاهيم دقيقة، فضلا عن الوصول الى حالات الشطح الذي تكابد المتصوف وفق بيئته وموروثة وبنيته العقلية وعواطفه وامتلاكه لمقدرات اللغة التي سيخاطب بها الآخرين ومن صفات المتصوف أن يتخلص من عقدة الامتلاك لكي يحرر نفسه الأمارة بالسوء وتزكيتها بالعمل الصالح، وهذا ما ينطبق على مقولة ابن سمنون عن التصوف (ألا تملك شيئا . وأن لا يملكك شيء) فلا يستطيع أن يتحدث عنها، إلا من تذوقها، ومن تذوقها يعسر عليه نقل ذلك الى الآخرين .

وظهرت مذاهب وحدة الوجود لدى الفلاسفة، والمتصوفة، عندما أرادوا إدراك الطبيعة بعقولهم، وإدراك العلاقات بين الكائنات الموجودة في هذا الكون، والبحث وراء هذا الوجود، للوصول الى الحقيقة، فخارت قواهم، وخابت آمالهم، فاتجهت رؤاهم، وتفكيرهم إلى أن الخالق موجود في كل الظواهر في هذا الكون، ومن هنا انطلق الفلاسفة، والمتصوفة في شطحا تهم بوحدة الوجود .

إلا أن الديانات التي رأت ذلك هي التي كانت معتمدة على العقل، أي الديانات الوضعية، أما الديانات السماوية، فالغلاة من المسيحيين قد نحوا الى وحدة الوجود، بأن الله تجسد في المسيح، وهذا جزء من وحدة الوجود، على الرغم أن المسيحية لم تأتي بهذه التعاليم، وعلى نفس المسار نرى المتصوفة الإسلاميين، والفلاسفة قد تطرقوا الى هذه المقولة (وحدة الوجود) مثل ابن عربي، وغيره من العلماء . فالإسلام قد حارب الوثنية، ووجّه

التفكير في خلق الله، وليس التفكير في ذات الله، لأن هذا مما لا يمكن الوصول إليه، وقد أخفقت كل الديانات السابقة عن الإحاطة بهذا الموضوع.

إن معايشة الصوفي لحالات الوعي حينا، واللاوعي أحيانا أخرى، تفوق قدرة الحواس في الكشف عن الاشراقات التي يعايشها، وإن ما تذكره منها يصعب على حواسه الإفصاح عن مكنون هذه الحالات، والمشاعر، فإن تكلم بإشارات، و تعابير مبهمة، فسوف تكون خارج المنطق، ومفاهيم اللغة التي يبوح بها، وأن هذه الحالات ممزوجة بالشعور، والإحساس، وهي أقرب الى الحالات النفسية منها الى اللغة، والتعابير إذ يمكن استيعاب جوانب الشطح، وحالات التماهي مع الذات الكلية، وحالات العشق الإلهي، فكانت قريبة الى الشعور أكثر منها الى العقل الذي يعتمد على نمطية معينة في الخطوات العامة في التفكير، وتكمن الصعوبة أيضا في إمكانية صياغة تعريف جامع للتصوف، وقد تناول بعض الفقهاء هذا التعريف وعبروا عنه في معاييرهم، فما هي إلا رسوم، وعلوم تنال بالاكتساب لقد تسربت هذه المفاهيم إلى الزهد، والرهبنة، والتصوف، والتعبد، والنسك، ونجد هذا المفهوم في الفلسفة اليونانية مؤلفة من مقطعين (فيلو — سو فيا) أي حب الحكمة، فالتصوف يشير الى ذلك من حيث المبدأ، وهو معرفة الحقيقة المطلقة، ومعرفة الخالق، وهذا ديدن الإنسان على مر العصور، وإن اختلفت الرؤى، والمذاهب، والمشارب، فكانت بكل ما صاغه العقل البشري يوما ما، وبما يمكن أن يتوصل إليه مستقبلا، وهو أدنى من حدود العقل الكلي، وستبقى المعرفة الكلية عسيرة عليه.

إن التجربة الصوفية ليست لها هوية، وهي مختلفة في مراحلها عند المتصوفة، ففي عملية المجاهدة والتصوف يصل الفرد الى حالات، ومراتب تختلف عن المراتب التي يصل إليها الآخر، وما نراه من خلال التجارب الصوفية، وهذا أيضا يدل على مدلولها التاريخي — فالعلامة ابن خلدون يقول :(فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني الهجري، وما بعده وجنح الناس الى مخالطة الدنيا، اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية، والمتصوفة، وقال القشيري رحمه الله، ولا يشهد لهذا الاسم اشتقاق من جهة العربية، ولا قياس، والظاهر أنه لقب، ومن قال اشتقاقه من الصفاء، أو من الصفة، فبعيد من جهة القياس اللغوي

قال: وكذلك من الصوف لأنهم لم يختصوا بلبسه، وهم في الغالب مختصون بلبسه لما كانوا عليه من مخالفة الناس في لبس فاخر الثياب الى لبس الصوف)[1].

إن مثل هذا الغنى الصوفي، يضفي على الدراسة شيئا من الصعوبة، أمام وضع أسس منهجية، وأكاديمية لكل دارس، وباحث، وما نراه أن الباحثين تتفاوت دراساتهم بين باحث وآخر، من حيث الأسس، والنتائج، والأهداف، وتتداخل مسائل كثيرة.

إن دراسة ظاهرة التصوف، تتعلق بأديان وضعية كانت أو سماوية، وتتضمن مجموعة من التعاليم، والمبادئ، والصيغ التي وضعها الإنسان، وفق معايير توصّل إليها بمجرد العقل، والحواس دفعته لوضع مثل هذه التعاليم، والمبادئ، ليتقيد بها، وأن مريديه وأتباعه يأخذون ذلك مع الغلو، والمجاهدة أكثر من هؤلاء مؤسسي هذه الأديان، كالبوذية، والهندوسية،والتاوية،الزرادشتية والكونفوشيوسية، فضلا عن المذاهب التي تفرعت عنها، فكانت تبحث عن حقيقة الوجود، واختلفت هذه الديانات، ولكنها تركز على أن هناك قوة خفية وراء هذا الكون، يفوق قدرة البشر، من خلال تعاقب الأجيال، وأن تصرفات البشر تحمل ما هو شر وذلك عند تطبيق هذه التعاليم من قبل العامة، وإن مخالفة ذلك تجلب عليهم الثبور، هذه الفترة تميزت بالاعتماد على ما أنتجه العقل المحض، فقد اتجهت قواهم العقلية وتصوراتهم للبحث عن تلك الحقائق في المظاهر الكونية في الشمس والقمر وبعض النجوم وبعض الكائنات الحية ولم يتوقفوا عند هذا الشكل بل رسموا نظاماً أخلاقياً وتربوياً واجتماعياً نتلمس ذلك من خلال الاطلاع على تلك العقائد الصوفية والحضارات والثقافات التي نشأت في الشرق القديم. وتمازجت مع الحضارات المتاخمة لها ونلحظ ذلك في تربية الهندوسيين. وتعاليمهم الأخلاقية. وكذلك البوذية في مفردات حياة أولئك المعتنقين لها. وإن تناقص عددهم. وأعداد غيرهم من الديانات الوضعية بعد ظهور الديانات السماوية اليهودية، والمسيحية، والإسلامية، وكان مرتكزها النبوة، والوحي الإلهي. وهما صلة الوصل بين الإله والبشر، فكانت

1- مقدمة ابن خلدون — ص: ٣٧٠

ظواهر التصوف أكثر وضوحا في هذه الديانات لأنها ديانات التوحيد ، وأعطت مسارات محددة لقضايا كثيرة في حياة الإنسان في الدنيا والآخرة.

وهذا يجعل ظاهرة التصوف في تلك الأديان ذات منحى واحد ، وجوهر واحد في الشكل والمضمون هي التعبد الزائد ، وأداء المناسك بشكل كلي ، والعزوف عن متطلبات الحياة ، ومع ذلك ظهر التباين بين هذه الفرق لتلك الأديان ، وقد نجد هذا التصوف لدى الأديان التي لم تؤسس على النبوة ، والرسل التي كانت تفضي الى الاعتزال ، وتبحث عن الحقيقة التي تكون بعيدة عن الملذات ، والشهوات ، والبحث عن سعادة النفس الفردية.

مفهوم التصوف ونشأته

أن التجربة الصوفية لا يمكن على الإطلاق جعلها تصورية، ولهذا السبب كانت مما لا يمكن التفوه بها . أو التعبير عنها (وينبغي أن يدخل المرء في تعريفه الاستدلال الاستقرائي، أو حتى مجال الفكر التصوري . فقد تتسع كلمة " العقل " أكثر لتشمل ما يعتبر معقولا بأي معنى غير أن المعقول بهذا لا علاقة له بالمنطق، فهو مصطلح " قيمة " في جميع الأغراض)[1] .

إن مفهوم التصوف يشمل كثيرا" من المعاني والدلالات لمجالات عدة من العلوم، والآداب، والأجناس الثقافية، ولكن تبقى مسألة الأديان تحتل مساحة كبيرة منه للتعبير عن جوانب كثيرة في المفهوم والممارسة، وتعتبر أساسا في الدراسة التي تتطرق إليها . والبحث في تفاصيل دقيقة في النفس والروح بالنسبة للأديان الوضعية، والأديان السماوية، ولكنها كانت تؤمن بوجود خالق لهذه الحياة، ففي الشعوب القديمة أطلقت التسميات على الآلهة التي وضعوا لها تماثيل بشكل كبير إضفاء على القدرة لها وفق تهيؤات الناس، ومنهم من أطلق على الشمس (الآلهة) لأنه يستمد منها الدفء ، والنور ، والحرارة.

إن كل ما تم الحديث فيه يعتبر أساسيا ومساقا لإيجاد المفهوم، وان كانت كل الدراسات لم تنجز مشروعها حتى اليوم لأسباب عدة منها أن التصوف ليس رسماً أو علماً ولكنه يحصل بالمجاهدة الفردية وليس الجماعية، وباعتبار أن التصوف هو إشراق وعلم لدني يحصل بين العبد وربه وصلته بالعالم الإلهي هذا من جانب . أما الجانب الآخر هو أن الدراسات لم تتوصل الى منهجية لرسم الحالات الصوفية التي بقيت فوق تصورات العقل، وهذا لا ينكر

1- التصوف والفلسفة — ص: ٣٠٨ — ٣٠٩.

على وجودها بقدر ما يدل على إن هناك أمورا أكبر من قدرة العقل في هذا العالم، وما نلحظه مما جاءت به الشريعة للأديان السماوية، وهذه العلوم هي جزء ضئيل أمام قدرة الله عزوجل (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا)[1] وان هذه التعاريف التي جاءت بها الأديان وكثرتها دليل على عدم الوصول الى تعريف جامع ومانع، فهذا نيكلسون جمع أكثر من مائة تعريف، وهذه التعاريف تنوعت من حيث نمطية العبادة، وحالات الوجد، وحالات الغلو فيها، وحالات أخرى من الزهد، والابتعاد عن ملذات الدنيا، و كثرة التعاريف له تدل من جانب آخر . بأنه علم واسع . والبحث فيه شاق، وطويل، ومتنوع، وتلك الملذات لم تكن في الواقع محرمة في حين أن بعضها متطرف بعيدا عن الحياة، وهذه أيضا حالة لا يمكن أن ترقى إليها النفس البشرية، ألم تكن هذه المخالفة لأوامر الله عز وجل (كلوا من طيبات ما رزقناكم)[2] ونهى عن هلاك النفس والروح باعتبارها أمانة لدى المؤمن إن ذلك التطرف في هذا الجانب هو تحقير الدنيا، والإقبال التام على العبادة (طه ❖ ما أنزلنا القرآن لتشقى)[3].

فتتنوع تعاريف التصوف وفي التصوف الواحد في الزمان والمكان من خلال استعراض التعاريف للمتصوفة، فمنهم وجده في الفناء . وآخرون في المحبة وفريق ثالث في التوكل . أو التوحيد . وذلك لأنه متعلق بالشعور الداخلي . وهذا ما يمكن قياسه من شخص لآخر . كما حددتها منهجية علم النفس وطرائقه . فضلا عن أن هذا الشعور من لحظة لأخرى . وهل كانت معرفة الحقيقة عند البعض تسقط عنه التكاليف؟ وهذا إهمال الجوانب البشرية.

ففي الدين الإسلامي . المسلمون يعملون لدنياهم كما يعملون لأخرتهم، فهذا هو جوهر الزهد، وهناك آراء من المفكرين في الغرب ودعاويهم . بأن الزهد دخل الى الإسلام بتأثير الرهبنة من المسيحية، وهذه المقولة تتواتر في كثير من الأحيان بأن هذا التصوف، وهذه الرهبنة هي وافد ة من الديانات الأخرى البرهمية (الهندوسية أوالهندوكية) والهندوس يعتقدون بوحدة الوجود .

1- سورة الإسراء آية: ٨٥.

2- سورة البقرة آية: ٥٧.

3- سورة طه- آية: ١- ٢.

إن الدين الإسلامي لا يقر بوحدة الوجود . ويرفض الحلولية التي تدعي بحلول الله في الإنسان أو فناء الذات الإنسانية في الذات الإلهية . فالله خالق والإنسان مخلوق، كما إن البعض يرى إن إسقاط الفرائض عنهم في حالات التصوف العليا عند العبد ، لم تأتِ به الشريعة الإسلامية في القرآن والسنة، ولا يقرّ فكرة الانقطاع عن الحياة والعمل والبقاء بين الخوف والرجاء .

فلا يجوز الخوض في الملذات الدنيوية . والشهوانية . والإسراف . والتبذير . وترك أمور الدين . وحول التصوف يقص جلال الدين الرومي[1] في كتابه (المثنوي) الذي يعرض فيه أن الصوفية غير ممكن تحديدها . ويقول: في مثاله (أن فيلا عرضه بعض الهندوسيين في حجرة مظلمة، فتجمع الناس ليروه، ولكن ظلام المكان منعهم أن يبصروه، فلمّسوه بأيديهم ليعلموا على أي مثال هو ، فلمس بعضهم خرطومه. فقال: إنه يشبه أنبوبة الماء ، وبعضهم أذنه. فقال: لا بد أن يكون كمروحة كبيرة، وآخر رجله، فحسب أنه كالسارية، وكذلك حال الذين يعرضون للتصوف بالتعريف، ولا يستطيعون، إلا أن يحاولوا التعبير عما أحسته نفوسهم)[2].

وبعد كل الاستعراض لمسألة التصوف، وخصائصه، ودلالاته في كل الأديان من حيث التشابه والاختلاف، وبشكل موجز، تبقى الإشكالية من أين جاءت هذه التسمية..؟ أهي من الرهبنة المسيحية...؟ أم من البوذية...؟ أم غيرها من الديانات الوضعية والسماوية الأخرى...؟ مع العلم أنها لم تتشابه في المعنى اللفظي، والتعابير، والمصطلحات، أما من حيث المعني المجازي والممارسة، والمضمون، فهي تشترك بهذا المفهوم، ومن خلال الإطلاع على جميع الدراسات والمصادر الدينية، فقد تنوعت التعابير على اختلاف ألوانها، وأطيافها.

فاليهودية من متصوفة التقاة إلى الحصيدية، أو القبالا ، فضلا عما دخلت في توجهات سياسية، وعنصرية، وظروف اجتماعية، قد وضعت في متن هذا الكتاب وبإسهاب، وصولا

1- جلال الدين محمد بن الحسين البلخي الرومي: شاعر فارس مشهور من أهم مؤلفاته في الصوفية (المثنوي) الذي ترجم إلى عدة لغات.

2- الصوفية في الإسلام- ص: ٢٩.

إلى المسيحية، التي ظهرت فيها الرهبنة، والامتناع على الملذات، وأن خلاص العالم من هذه الخطايا استجمعت في صلب المسيح، ومخلص البشرية من الآثام التي اقترفوها، وبالتالي يرون تلك السعادة بصورة العذاب، ويجب أن يسلك النساك، والعابدون لهذا الدين بهذه المعاناة، وعندما جاء الإسلام أشار في تعاليمه إلى أنه لا رهبنة في الإسلام، ففيه الاعتدالية والوسطية فهناك جانب للعمل، وجانب للعبادة، فكان دينا ودنيا .

إذا كان الدعاة، ومؤسسو الأديان الوضعية، هم الذين رسموا معايير كانت تدور في خلدهم، الذين كانت قدرتهم العقلية قد فاقت مجتمعاتهم، وأنهم استطاعوا كبت شهواتهم، وملذاتهم، فكانت قدرة العقل لديهم أكثر من قدرة الرغبة، والشهوة، مما يعتبر إنجازا فكريا، إن أتباع ذلك الدين من الذين غالوا في تطبيقاته، كانت لهم هذه الميزة، أو الصفة، وهذا ينـدرج عند معتنقي الأديان السماوية عند الشكل، ولكن الاختلاف مابين الوضعي والسماوي يكمن في الأديان السماوية بأن هذه التعاليم جاءت من الإله، وهو القوة التي لا تدركها العقول والنفوس، وجاءت بتعاليم من الرب دون أن تكون للأنبياء أية صناعة فيها، وهؤلاء الأنبياء لديهم الخلق القويم، وعقولهم غالبة على شهواتهم، فهم ذوو خلق عظيم.

والمتصوفة في الأديان السماوية لهم خوارق وكرامات، ولكنها لا تصل إلى مرتبة النبوة، وقد يحصلون على بعض الكرامات، ولكنها تبقى في مكانة أقل من النبوة، ومن خلال الأنبياء لم نلحظ أنهم وصلوا إلى حالة الاتحاد، أو وحدة الوجود التي ادعاها بعض المتصوفة . ولا تستطيع عقول المتصوفة أيا كان دينهم، أن يدعوا بأنهم وصلوا إلى وحدة الوجود . وحالات الوله هذه، مما يسمى بحالات الشطح فيها لأن وحدة الوجود التي وصلوا إليها تمنحهم الأفضلية على النبوة، وإذا كانت لهم هذه القدرة العقلية التي توصلهم إلى تلك المعرفة، فهل وصلوا إلى معرفة ما جاء في الرسالات السماوية قبل نزولها؟ وهل يستطيعوا معرفة غيبيات المستقبل؟ .

إن الديانات السماوية ترفض مقولات هؤلاء . وتؤكد على تأدية العبادات مفروضة على الأنبياء والرسل، وكلهم عباد الله، ويبقى الرب ربا، والعبد عبدا، وأن المثوبة سيتلقاها العابد في الآخرة، التي لم تنكرها الديانات الوضعية . وذلك بإدراكها العقلي بأن هناك قوة

خارقة تفوق قوة البشر أجمعين . وأن الديانات السماوية جاءت موضحة لذلك من خلال الكتب السماوية، وأحاديث الأنبياء ، ولهذا كان للعقل مقومات للوصول إلى اكتشاف الحقائق ضمن آلية المنطق . والاستدلال المتبع . إلا أنها لم تصل إلى الحقائق التي جاءت بها الأديان السماوية بهذا الجلاء والوضوح . فالتصوف في الأديان الوضعية له سمة خاصة كان رسمه العقل . أما التصوف في الأديان السماوية كان رسمها هو التعاليم الإلهية . والإجابات على قضايا كثيرة قد شغلت ذاكرة المفكرين . والفلاسفة . والحكماء على مر العصور . فالعقل كان شرطا لازما للشرائع السماوية لإدراك تلك الشرائع . وجاءت النصوص مخاطبة العقل في القرآن الكريم (إنما يتذكر أولوا الألباب)[1]و (بل أكثرهم لا يعقلون)[2] (كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون)[3] .

1- سورة الرعد – آية: ١٩.

2- سورة العنكبوت – آية: ٦٣.

3- سورة الروم – آية:٢٨.

الإنسان بين الفلسفة والتصوف

إن الديانات الوضعية والسماوية . وبكل الصيغ المتباينة . والمفاهيم المتفاوتة . تتفق حول مسائل كثيرة منها أن هناك خالق لهذا الكون والعالم، وهناك حياة ثانية بعد الموت . وفيه الحساب والجزاء لما أقترفه الإنسان في حياته الأولى، وتلونت هذه المعارف . وأشكال العبادات فتعددت طوائف هذه العبادات بعدد أنماط معتنقيها سواء أكانت في الديانات الوضعية، أو في الديانات السماوية، وما تضفي عليه البيئة والثقافة . وهذا ما أفرز إيحاءات للبعض منهم بإرساء عقائد التقمص حينا وعقائد التناسخ حينا آخر. والتي تدحضها الديانات السماوية، وكل طرف له أتباعه ومريديه وان ما يهمنا في هذه الدراسة أن نتلمس عن الشريحة التي تتميز باتصالها بالجانب الروحي . ومنها أصحاب التصوف والزهد . والذين يتسامون عن كل فعل دنيء . وهم مغالون في العبادة، وأداء الفرائض . ومن هنا نجد الفرق بين التدين والتصوف . فالتدين هو أداء العبادة والمناسك . بينما التصوف هو إشراق في القلب . ويأتي درجة متقدمة في العبادة . وليس الاستغناء عنها .

إن الإنسان الذي بدأ يحس بوطأة الحياة المادية المفرطة، وحالات الفوضى على حساب القيم والمعايير الاجتماعية النبيلة، و مجموعة الأعراف، والروابط بين الفرد والمجتمع التي كان يتحلى بها ، وأخذته الحياة المادية المعاصرة من حيث لا يدري، فبات فيه الإنسان إلى تحقيق روحانيته، وفي حاجه إلى ما يرضي عقله، ويشبع روحه ويعيد إليه ثقته بنفسه، وطمأنينته التي بدأ يفقدها في زحمة الحياة المادية، وما فيها من أشكال الصراع الفكري، والعقائدي، وبهذا يحقق مع التصوف إنسانيته، فإذا كان انخراط الإنسان في الحياة المادية بشكل كامل، وابتعاده عن الروحية سيفقده كل إنسانيته، ويجعله ينخرط في شرائح

للكائنات الأخرى، وهذا ما يمكن تسميته بالتطرف، و هو الأساس في كل المشاكل الإنسانية على وجه الأرض وفي المقابل هناك المغالاة كثيرا في حالات الزهد والتصوف التي قد تكون تطرفا عند ما يصبح هذا التصوف والزهد حالة تقاعس عن العمل وانخراط في عالم الروحانيات، وهو ليس هروبا من الواقع، ولا انزواء ، أو خلوة فحسب، وليس زهدا ولبس الصوف فقط، وإنما هو محاولة للإنسان للتسلح بقيم روحيه جديدة تعينه على مواجهة الحياة المادية، وتحقق له التوازن النفسي حتى يواجه مصاعبها ومشكلاتها ، وبهذا يصبح التصوف ايجابيا لا سلبيا ، ما دام يربط بين حياة الإنسان ومجتمعه، ويوازن بين رغباته الروحية والمادية.

إن محاسبة الإنسان لنفسه باستمرار لتقويم أعماله وتغذية النفس بالفضائل يجعل حياته معتدلة . فلا يتهالك على شهواتها ، ولا ينغمس في أسبابها إلى الحد الذي ينسى فيه نفسه وربه، فيشقى شقاء لا حد له، والتصوف الحقيقي ينظر إلى الحياة على إنها وسيلة وليس غاية يأخذ منها كفايته . ولا يصبح خاضعا لحب المال والجاه، ليستعلي بهما على الآخرين، وهو بذلك يتحرر تماما من شهواته،على أن كلمة التصوف، وان كانت من الكلمات الشائعة التي ظهرت حديثا ولكنها قديمة في المضمون، وفي الوقت نفسه من الكلمات الغامضة التي تتعدد مفاهيمها وتتباين أحيانا .

وهذا المصطلح كان يعتبر قاسما مشتركا في كثير من الأحيان بين ديانات وفلسفات وحضارات متباينة وفي عصور مختلفة، وإننا نقول الرهبنة والغنوصية والكهنة والقديسين في الفلسفات البوذية . والهندوسية، والزرداشتية، هي تسميات تدل على المغالاة في تطبيق تلك المبادئ الوضعية والسماوية في كل منهما . ونرى واستحالة مطابقة تجربة لتجربة أخرى بشكل كلي في ميدان التصوف . وأن ما نراه من اختلاف بين مناهج الصوفية، ليس بغريب، فمن الطبيعي إن يعبر كل صوفي عن تجربته في إطار ما يسود مجتمعه من عقائد . وأفكار . وأحداث معاصرة له، ليتفاعل مع ما يسود بيئته وعصره من ازدهار . أو خمول وبذلك يكون سلوكه الصوفي ردة فعل لواقعه الذي يعيش فيه.

ومن الجدير بالذكر إن التجربة الصوفية هي واحدة في جوهرها ، ولكن الاختلاف بين صوفي وأخر ، راجع أساسا إلى تفسير التجربة ذاتها التي يمر بها الصوفي للوصول الى الحقيقة والكمال الروحي ، تبعا للأحوال والمقامات التي يمر بها .

والتصوف أولا وقبل كل شيء ، يمثل تجربه خاصة ، وليس شيئا مشتركا بين الناس جميعا ، ولكل صوفي طريقة خاصة في التعبير عن حالاته ، فهو بعبارة أخرى يشكل خبرة ذاتية ، وهذا يجعل من التصوف شيئا قريبا إلى الفن ، خصوصاً ، وأن أصحابه يعتمدون الأسلوب الرمزي في وصف حالاتهم .

فالتصوف الحقيقي ليس معناه هجر المال والأولاد ، وتعذيب النفس والبدن بالسهر الطويل والجوع الشديد والاعتزال في البيوت المظلمة والصمت الطويل ، وعدم التزوج ، لان اتخاذ مثل ذلك نمطا للحياة يعد سلوكا سلبيا يؤدي إلى فساد التصور ، واختلال التفكير الذي يترتب عليه الانطواء والبعد عن العمل الذي لا يستغني عنه أي عضو فعال في مجتمع ما ، كما يؤدي بالأمة الى الضعف والتخلي عن الدور الحضاري الذي ينتظر منها .

يتعامل الصوفي مع عصره ، من خلال تفاعله مع واقعه ، لذلك نرى الاختلاف الواضح بين تصوف وآخر وعلى العكس من ذلك ، من يمعن النظر في تاريخ الصوفية يلمس بوضوح مدى الايجابية التي جاءت بها مناهج الصوفية تبعا لبيئة الصوفي وواقعه الذي يعاصره ، وكان السيد الشيخ عبد القادر الكيلاني يحث على طلب العلم وعدم الانقطاع عن الناس في الزوايا .

وكان الشيخ حارث بن أسد المحاسبي يقول : «خيار هذه الأمة الذين لا تشغلهم آخرتهم عن دنياهم ، ولا دنياهم عن آخرتهم ، فهم رجال الدنيا والآخرة» .

فقد وازن التصوف بين حاجات النفس ورغباتها المشروعة في إطار التوافق بين الدنيا والآخرة ذلك التوافق الذي لا يجعل مجالا للتطرف في الزهد دونما حساب لنصيب الإنسان من الحياة الدنيا ، كما لا يدع مجالا للغرق في الشهوات الدنيوية دونما وعي بنعيم الحياة الآخرة الذي أفاض القرآن بذكره بل إن أجمل ما في الإسلام إن حق الآخرة لا يجور على حق الحياة الدنيا ، وان المسلم مأمور بالسعي والعمل والاستمتاع بما يكسبه بسعيه وعمله من نعمتها وزينتها .

ولا نستطيع أن نضع خطا ناظما بين المتصوف الذي يعتمد على الإشارات . وبين المنطق الذي يضعه العقل بما يسمى الفلسفة التي تدلل على القضايا بالبراهين، والأدلة العقلية، فالأول يعتمد على العاطفة أما الثاني فيعتمد على العقل، فكلاهما لا ينفصلان عن حياة الإنسان . وتدل كل البحوث والدراسات التي طرقت هذا المجال بأن الفلسفة توصل إلى نهاية الطريق في العلوم بالاستناد إلى طرق العقل ومعاييره، ولكنها لا تستطيع أن تجيبك عن علوم، ومجالات أخرى في مجال التصوف وحالات الإشراق التي لايمكن الإفصاح عنها إلا بالمجاهدة، وهي لا تخضع لمعايير محددة وطرق خاصة، ولكنها تندرج في البحث عن الحقيقة والحياة فيها بدون آلام بدلا من الحياة مع هذه الجوارح، وهذا ما يدفع المتصوفة، والزاهدين، والنساك إلى الابتعاد عن المعاصي والأخطاء وهذه الحالة لا يمكن الوصول إليها إلا بالمجاهدة والذوق ويصعب على الدارس أن يطرق هذا الجانب عندما يريد البحث فيه مستندا على الاستدلالات العقلية، فالتصوف تجربة روحية وهذه الحالات الصوفية توجد في كل الأديان، فالمتصوفة يبحثون في أحوال العقل الواعي وفي ماهية الوجود وفلسفته ومحور ذلك الإرادة، وليس العقل، فقد كثرت الدراسات حول هذا المفهوم والمصطلح وأمعن بعض الدارسين في تكوين رؤية شاملة لهذا التصوف إلا أن أغلب الدراسات لم تصل إلى دراسة جادة تضع النقاط على الحروف من أجل تفسيرها وبيان مكوناتها في حين أن السبب يعود إلى أن لكل صوفي طريقته.

وبعضهم يضرب مثلاً (ليس في استطاعة المرء أن يشكل صورة ذهنية عن رأس له شعر، وبغير شعر في آن واحد، ويعني ذلك أن قوانين المنطق تنطبق على عالم الخيال)

وقضايا لا يقبلها العقل وفق منطقه ودلالاته ولكنها تبقى في حرم المعقول عندما يعايشها الصوفي في حياته وسلوكه فهل يدحض مقولة المنطق عندما لا تنطبق على كل تجربة وهي بحد ذاتها مفارقة.

والمعضلة الأخرى التي تواجه الصوفي للبوح بما يشعر، ويستبصر من معايشات تعجز اللغة عن البوح عنها، ولا يمكن وصفها لعجز اللغة أمامه، وعندما يتكلم الصوفي، فهو يخضع لقواعد ودلالات اللغة، التي لا تعبر عن الصورة الحقيقية فاللغة تجبره بألفاظها، ومعاييرها .

ولا يستطيع أن يجبرها . أو يعثر عن الحالات الوجدانية التي عايشها عند ذلك لا يستطيع نقلها إلى الآخرين، وإن نقلها بهذه الصورة، فتكيفهم لها خارج المنطق، والمعقول، وما نجده من إشارات لدى الصوفية فيما بين بعضهم بعضا هو أقرب لفهم تلك الحالات، ولكن بصورة مختلفة . وربما بإشارات تكون حاملا لتلك الرسالة التي يراد البوح بها، ويقف الصوفي عاجزا عن الوصف لتلك المعايشات لعدم قدرة اللغة على استيعاب ذلك، وإن كان متبحرا في اللغة . فكيف لمن يجهل اللغة، وقواعدها، ونراه مجسدا هذه الأسرار . والألغاز في الأشعار الصوفية، والأقوال ما أستطاع ذلك الصوفي أن يفصح، أو يعبر عنها .

وإن معرفة الدلائل للتصوف هي ذاتها للمسألة الفلسفية، التي لا يمكن أن تبتعد كثيرا بما لهذين المفهومين من علاقة بعضهما ببعض، وان كانت النسبية تشوب بعض التفاصيل لتلك التعاريف على الواقع لمبدأ من المبادئ، أو لدين من الأديان، ولسنا أمام دين واحد، وهذه الأديان ليس كلها من وضع واحد، فمنها السماوي، ومنها الوضعي، فالأديان السماوية التي جاءت في فترات زمنية ليست بالقليلة لتعطي الإنسان مساقات محدودة في حياته، وعبادته، وتعامله مع الآخرين، وان هناك عقابا وثوابا، وهذه الديانات دخل بعضها نوع من التحريف، والدس، ومن أهواء ورغبات، وميول امتزجت فيه السلطة الدنيوية، بالأفكار الذاتية مدفوعة بالميول والدوافع، وما بقي منها يدل على عظمة هذه الأديان، وإن عظمة الخالق التي تجسدت في مخلوقاته هو ما كان يدفع ذلك الإنسان للتفكير في مظاهر الكون قبل نزول الديانات السماوية، فظهر ما يسمى بالأديان الوضعية في الحضارات القديمة، وقد تضاءل عددها اليوم، إلا بعض الديانات القديمة الكبرى التي سادت لقرون قبل الميلاد، وكان للديانات السماوية تأثير فضلا عن تأثير كبير عليها، هذه الديانات الوضعية مع بعضها البعض، لقد بحثت في الروح، والبدن، والأخلاق، والتقاليد، والآلهة، ولم تصل إلى حقائق ثابتة متسقة مع ظواهر الكون، وهذا مما عدد الآلهة، وما تم ترميزه من خلال التماثيل والنصب، والمعابد، وتنوعت العبادات بين دين وآخر، وبين فترة، وأخرى لنجد عبادة الشمس في ديانة، وعبادة الظواهر الطبيعية في ديانة أخرى في جانب الأديان الوضعية كالهندوسية، والبوذية، والبراهما، والزرداشتية وغيرها .

إن تكوين الإنسان هو من المادة، والروح، والفلسفة تنظر إلى هذه المكونات بعين على المادة، وبأخرى على الروح، وإن الفلاسفة الذين جنحوا إلى المادية على حساب الروحية كانوا أقرب إلى الوجودية، وأن الإفراط في مسألة الروحانيات أيضا تظهر في فلسفة التصوف وإذا كانت الفلسفة لها نواظم في حدود العقل، فإن التصوف هو خارج حدود العقل . ولكنه في حرم المعقول . وما دامت الفلسفة لم تصل إلى حقيقة الروح ولن تصل (إن قوانين المنطق هي قوانين وعينا المألوف، وتجاربنا اليومية، فإنه لا ينبغي تطبيقها على التجربة الصوفية، ومن السهل جدا أن نرى لماذا لا ينطبق عليها المنطق وفق قواعد المنطق الشائع، لأنها ليست سوى قواعد لغوية، ودلالات لفظية)[1] لقد تطرقت كل الفلسفات والأديان إلى إشكالية المادة والروح وكثرت الآراء حولها، وأن الدنس يأتي من المادة، والمال، وهذا ما نجده عند اليهوديين عندما وضعوا غايتهم المادة على حساب القيم الروحية، وظهرت عند المسيحية الرهبنة، ومجاهدة النفس، وبعد ظهور الإسلام ظهر التصوف، فكان المغالاة في العبادة، وهجر الملذات، والميل باتجاه الروح على حساب المادة، وان تعاليم القرآن هي الاعتدالية، وليس العزوف عنها، والإبراهيمية ترى أن أفعال الخطيئة ليست من المادة لأن المادة والروح مجسدة في جسد الإنسان، فيجمعان النقيضين (الخير والشر) وأن المخطئ الأول هو آدم في كل الأديان، فاليهودية ترى في الخطيئة في الجنس البشري، والمسيحية تعتبر أن الإنسان جديدا قد كفّر عن خطاياه، والمسيح جاء ليكفّر عن البشرية، ومسألة الصراع بين الخير والشر صوّرتها كل الأديان، فالصينيون كانوا يضعون على مداخل بيوتهم ديكة خشبية لتطرد الأرواح الشريرة، والشياطين، لأن الظلام هو موطن تلك الأرواح، وبهذا نرى مسألة الصراع بين النور والظلام، كما جاءت الزرادشتية تقول بأن الشر هو من صنع الشيطان، وسينتصر اهورمازدا على الشر في نهاية العالم، وهذا ما تذكره أكثر الأديان وترى الغلبة للخير، أما الهندوسية فترى أن الإله فيشنو نزل من السماء تسع مرات إلى الأرض راكبا طائر الغار ودا، وفي الانحدار العاشر ينزل راكبا جوادا أبيض، ويحمل سيفا من

1- التصوف والفلسفة – ص: ٣٢٩

لهب ليهلك الأشرار على هذه الأرض، وما تذكره البوذية أيضا، ويعتبر ذروة الصوفية لديهم الخلاص الأكبر هو الخلاص من المادة، وعدم العودة لها، وهي في البرهمية درجة النرفانا التي تصلها النفس بتحقيق السعادة، وكل الأديان كانت تؤكد على بقاء الروح بعد الموت التي أكدتها الديانات السماوية، وقبلها الزرادشتية بشيء من الغموض، وحتى الديانات الوثنية كانت تدرك أن هناك عالم آخر لا يمكن إدراكه، وما نلاحظه عند دفن الأموات يضعون لهم الأمتعة، وبعض الحاجات من الأواني، والأطعمة، والألبسة التي سادت في تلك المناطق التي كانت تدين بالوثنية ومروراً بالفراعنة في بلاد العرب وفي عصور مظلمة في الجاهلية.

إلا أن الميزة الخاصة للتصوف تتعلق بالإنسان مع الخالق الذي يجد فيه المخلص، والمحرك لكل شيء، وفضول ذلك الإنسان، ودوافعه التي تدفعه للمعرفة بما وقعت عليه حواسه، أو لم تقع لأن كل هذه العقول، وكل ما أنتجته لم تصل الى معرفة حقيقة، وكلما تقدم الإنسان بعقله، وروحه، وقلبه، يجد أسرارا كبيرة، وكثيرة تحيط به في حياته في يقظته، ومنامه، وينظر في نفسه المفارقات التي تدفعه بين الحين، والآخر إلى الاكتشاف، وإن لم يحصل ذلك برر لنفسه بالجهل، أو عدم قدرته على معرفة ذلك لقد بحث في الأرض، وفي نفسه، وفي السماء، وفي عقله، وروحه، وجسمه، فتزداد اللهفة أكثر، وهذه هي الأيام، والسنون تطوى، وتغيب الروح من الجسد فيفكر كيف نشأ وكيف مات، وتتسق هناك معايير لمن أوتوا العلم، وتوصلوا الى نفحات في الحب الإلهي، وتختلف المذاهب، والرؤى حول التسمية، ومدى المصداقية فيها، لأن تناولها وفق معايير تختلف عن المعيار الآخر، ولكنها تتوحد في صيغة واحدة هي السعادة الأبدية التي يبحث عنها الإنسان في حياته، ولتبقى هاجسه الدائم في هذا المجال، وعن علم الخلود، فهل يتساوى من يبحث في عالم المعقول، ومن يبحث الغيبيات، ولكن قد يختلفون في التسمية، وعالم التحليل الرياضي، والفيزيائي، وربما تصل هذه المنظومة إلى أن كل ما يدور في هذا الكون يشكل دلالة على أن هناك محرك، وجوهر لهذا الكون وهذه هي الصيرورة التي سار عليها الإنسان منذ القديم مرورا بكل الفلسفات، والآراء والأفكار وصولا الى ما نحن فيه، ولكن وجه الاختلاف بينها بأن كل فترة متقدمة على الأخرى لما أثرى فيه العقل البشري من هذه النظريات، والأفكار، وعلى أي حال منهم علماء

كل في مجاله، وهم أيضا فلاسفة، لأنهم قدموا أشياء تضاف الى حركة الوعي الإنساني، و هم متصوفة في بحثهم عن الحقيقة، والابتعاد عن الملذات، ولكنهم بدرجات متفاوتة، ومن يعتنق الدين بشكل، أو بأخر هم متصوفة . وإن الولوج في عالم المتصوفة، يجعلنا أكثر دراية بالعلوم التي يعايشونها، أو بعالمهم الروحي، ولكن لمعرفة هذا الجانب يجب المعرفة المسبقة عن أخلاقية، ومبادئ هذه الشريحة التي يمكن أن نطلق عليها المتصوفة في الأديان وفق نماذج، وأشكال، وأطياف.

والباحث لا بد له إلا أن يعرف شيئا عن التصوف، وإن كان قد عايش هذه الحالة بنسبيتها ما دام هو يشترك مع الوجود بصفته الإنسانية، وإذا كان ذلك في ذات المساق، فكيف يمكن أن تضع خطا ناظميا بين المتصوف الذي يعتمد على العاطفة، والإشارات، وبين المنطق الذي يتبع العقل أو بما يسمى بالفلسفة، لأن صاحب الفلسفة سيدلل على القضايا، والبراهين، والأدلة العقلية، وفق منهجية المنطق . ووازع صوفي عبر عاطفته لأن العاطفة لا يمكن أن تنفصل عن الإنسان، وتدل كل البحوث التي طرقت هذا المجال بأن غاية الفلسفة إيصالك إلى نهاية الطريق في العلوم بالاستناد إلى طرق العقل، ومعاييره، ولكنها لا تستطيع أن تجيبك على مسائل أخرى خارج نطاق الدلائل والقواعد العقلية . ولأن هذا مجال التصوف، وحالات الإشراق للمتصوفة التي لا يمكن الإفصاح عنها، إلا بالمجاهدة، وتبقى حالة خاصة لا تخضع لأية معايير، أو طرق، ولكنها تندرج في البحث عن الحقيقة، والحياة فيها بدلا من البحث عن الحياة مع الجوارح، فإدارك المتصوف للحقيقة المطلقة يجعله يخلو بها بعيدا عن الآثام، والأخطاء، واقتراف المعاصي، فالحالة الصوفية لا يمكن الوصول إليها بالتعلم بل بحالات الذوق، وعلى الدارس لهذا الجانب أن يبدأ البحث في الاستدلالات العقلية ضمن منظومة الفكر، ولن يحقق الغاية التي يطمع إليها، ولكن عندما يعايش هذه الحالة، أو ربما ينتابه نوع من ذلك الشعور، فإنه يستطيع أن يحقق ما يريد بقدر ولوجه في معايشة ذلك، وهذا ما يؤكده الإمام الغزالي" بأن التصوف تجربة روحية "[١] وبأنه شيء مختلف تمام الاختلاف عن

1- التصوف "الثورة الروحية في الإسلام "- ص:١٥

الفلسفة، والعلم،ولا يكتسب بهما، ولا يستند إليهما إلا أننا يمكن أن نعرج، ولو بشكل بسيط على ذلك لما تقدم من القول . وربما قد يكون معرفة الحالة الصوفية عن المتصوفة لا يعرفها إلا من يخالجه هذا الشعور، أو قد أسهب في تلك الدراسات، أن الحالات الصوفية في كل الأديان، وفي جوهرها تبحث عن الحقيقة المطلقة، وإلا كيف نقرأ أشعار ابن الفارض، وأقوال وحكم المتصوفة، التي تشترك مع الفلاسفة في ماهية الوجود وفلسفته الذين يبحثون في أحوال العقل الواعي، والتصوف يتعدى ذلك، وتتعلق بالعقل الباطن، وتتعلق بالنشاط الروحي، والاتصال بالإرادة اللامتناهية، أو بما يسمى الفناء في الله محورها الإرادة، وليس العقل، وهل يستطيع الإنسان أن يعيش،أو أن يدرك بدون ذلك العقل، وهذا ما يذكره ابن عربي في فصوص الحكم "بأن من أراد العثور على الحكمة، فلينزل عن حكم عقله إلى شهوته ويكون حيوانا ناطقا حتى تكشف ما تكشفه كل دابة ماعدا الثقلين عندئذ يعلم أنه قد تحقق بحيوانيته، وعلامته علامتان الواحدة هذا الكشف، والعلامة الثانية الخرس بحيث أنه لو أراد النطق بما رآه لم يقدر" .

الباب الأول

فلسفة التصوف في الأديان الوضعية

- الهندوسية
- البوذية
- الجاينية
- الكونفوشيوسية
- التاوية
- الشنتو
- الزرادشتية

الهندوسية

تفردت الهند بكثرة العقائد والديانات وتعددت أشكالها، وطقوسها الدينية في زمن متقدم . ومنذ آلاف السنين . وبقيت حتى وقتنا الحاضر تشكل تنوعا متميزا في مصلحة الروح الإنسانية . ولهذه الكثرة أصبح يشوب هذه الديانات نوع من التعقيد مما يجعل الدارس يجد فيها صعوبة في الفصل بين جزئيات الفكر الفلسفي التي نشأت عليها تأملات حكماء الهند إلى أن صارت دينا وعقيدة لهم . وهدفهم تحسين الحياة الإنسانية من خلال العذاب الجسدي، والروحي، وصياغة الحلول لاجتثاث المعاناة وأسبابها، ومن هذه الديانات في الهند الهندوسية، والجاينية، والبوذية، ولم يكن هناك تباين بين تلك الديانات، إلا في الشكل فهي تتوحد في بحثها عن الحقيقة وسعادة الفرد، ولم تكن تختلف الأديان الهندية عن بقية الأديان في العالم في ذلك العصر . فقد رأت أن الجحيم على هذه الأرض والعقاب هو العودة المتكررة الى الحياة والتلوث بالمادة، وعقاب الخاطئ هو العودة إلى روح جسم أرضي أقل من الأول قيمة .

والشعب الهندي ينظر إلى الفلسفة نظرة إعجاب وتقدير لأنها ترتبط بالمعرفة والحكمة بالإضافة لأن البحث في الفلسفة لم يكن بعيدا عن الجانب الديني والسياسي والاقتصادي . فقد كان للفلاسفة دور مهم حتى في رسم أشكال العبادات والبحث عن الحقيقة وكيفية سعادة الفرد عند ترك الملذات والشهوات التي هي سبب معاناته، التي تنشأ من تعلق المرء بما لا يملك، واختلطت بالفلسفة، وشكلت ثراء مهما للعقائد، والأديان التي سادت عبر التاريخ، التي جاءت تهدف الى تحسين الحياة بكل جوانبها، وأن الأغلبية لدعاة لهذه الأديان والمعتقدات أرادوا الابتعاد عن الملذات الجسدية ليعيشوا في الملذات الروحية، وعبّرت هذه

العقائد عن ذلك أصدق تعبير مما جعل هذه الديانات تدوم لآلاف السنين فكانت " الفيدا"[1] التي رسمت القواعد لتلك الديانات والطقوس . وكانت هذه الملحميات الأدبية في المسائل الأخلاقية في الإرشاد وفي الطب والدين والفلسفة والعلاقة الزوجية، وأضيف عليها الشروح لتلك الكتب المقدسة وقد سايرت تطور العقل البشري بالإضافة لما تطلعت إليه من معتقدات ومبادئ الديانات الأخرى التي لم تخلو من التطور أيضا عما كانت عليه سابقا، وسجلت هذه الأسفار للفيدا لتطلعنا على علوم الهند في الحياة البدائية وأخذوا يطلقون هذه الأسفار على تراثهم المقدس . ولم يبق منها إلا أربعة أسفار

وهي[2]:

١- سفر رج : أو معرفة ترانيم الثناء .

٢- سفر ساما : أو معرفة الأنغام .

٣- سفر ياجور : أو معرفة الصيغ الخاصة بالقوانين .

٤- سفر أتارفا : أو معرفة الرقى السحرية .

وكل سفر ينقسم إلى أربعة أقسام :

١- مانترا " أو الترنيم " .

٢- " برا همانا " أو قواعد الطقوس والدعاء والرقى لهداية الكهنة في مهمتهم .

٣- " أرانياكا " أو نصوص الغابة وهي خاصة بالقديسيين الرهبان .

٤- " يوبانيشاد " أو المحاورات السرية وهي تقصد الفلاسفة .

ولا يوجد إلا سفر واحد ينتمي الى الأدب، أما سفر "رج" أو "ريك" فيدا فهو ضرب من الدواوين الدينية ويتألف من ١٠٢٨ ترنيمة .

وقد رتبت وجمعت بين عامي ١٠٠٠- ٥٠٠ ق.م وحسب قول الأتقياء الهندوس إن هذه الأسفار والتراتيل قد كتبت بيد الآلهة براهما بالذهب . وهذا ما يرفع شأن كتبهم

1- الفيدا: كلمة سنسكريتية مشتقة من (فيد) بمعنى " يعرف " والمقصود بها الكتب المقدسة الهندوسية الأقدم التي تضم أربعة أسفار.

2- قصة الحضارة – ج:٣ – ص: ٣٨- ٣٩.

والتقيد بما جاء فيها علما أنها كتبت من قبل الكهنة والفلاسفة والحكماء في تلك الفترة التي يرجعونها إلى ما قبل عام ٦٠٠٠ ق.م وإن هذه الحِكَم والترانيم هي شروح اقتصروها على أدعية موجزة حتى يصعب فهمها أحيانا لشدة اختزالها وكانت خير وسيلة لحفظها من قبل الطلاب . وذلك لاعتمادهم على ذاكرتهم . وهذه ترنيمة الخليقة (من ريك فيدا)[1] وهو الكتاب الذي ظهر بين أشد الشعوب تمسكا بالدين :

لم يكن في الوجود موجود ولا عدم، فتلك السماء الوضاءة
لم يكن ثمة موت ومع ذلك فلم يكن هناك مايو صف بالخلود
ولم يكن فاصل بين النهار والليل
و"الواحد الأحد" لم يكن هناك سواه
كانت هناك ظلمة وكان كل شيء في البداية تحت ستار
من ظلام عميق — محيط بغير ضياء
والجرثومة التي لم تزل كامنة في اللحاء
برزت طبيعة واحدة من الحر الحرور
ثم أضيفت إلى الطبيعة الحب، وهو الينبوع الجديد
للعقل نعم إن الشعراء في أعماقهم يدركون
- إذ هم يتأملون — هذه الرابطة بين ما خلق
وما يخلق فهل جاءت هذه الشرارة من الأرض
تتخلل كل شيء ، وتشمل كل شيء ، أم جاءت من السماء؟
ثم بذرت الحبوب، ونهضت جبارة القوى
فالطبيعة في أسفل، والقوة، والإرادة أعلى

1- الريج فيدا: اصطلاح سنسكريتي يراد به ذلك السفر من أسفار الفيدا الأربعة المعروفة باسم الفيدا النارية أو الفيدا المنسوبة إلى النار والسفر قسمان أولهما أدعية وصلوات وتراتيل شعرية والآخر يشتمل على تعاليم تتعلق بالعبادات والواجبات الدينية (الفكر الشرقي القديم ـــ عالم المعرفة ـــ ص: ٤٢) قصة الحضارة — ج:٣ — ص: ٤١- ٤٢

من ذا يعلم السر الدفين؟ من ذا أعلنه هاهنا؟

إن الآلهة نفسها جاءت متأخرة في مراحل الوجود

إن من صدر عنه هذا الخلق العظيم

سواء خلقه بإرادته، أم صدر عنه وهو ساكن

إن هو ربنا الأعلى في السموات العلى

إن هو يعلم السر – بل لعله لا يعلم من السر شيئا

إن محاولة الهندوسية المعرفة كانت من أجل السيطرة على الرغبات والملذات وبالتالي الوصول إلى حقيقة الوجود وكيف يصبح الإنسان سعيدا مادام يتوق إلى هذا الأمر وبدأت توضع الضوابط والشروط لكبح تلك الشهوات والابتعاد عن الملذات للوصول إلى حالة النرفانا الذي يستمدونها من (براهما) الذي أطلقه عليه الإله الخالق بينما الإله فشنا (الحافظ) والإله شيفا (المدمر).

"ومن يعلم حقيقة هذه الخليقة، ومن يستطيع أن يجهر من أين ولدت، ومن أين جاءت. إن الآلهة جاءت بعد أن أوجدت هذه الدنيا، فمن ذا الذي يعلم كيف جاءت الدنيا إلى الوجود هو الأصل الأول للخليقة سواء كان هو الذي أنشأها جميعها، أو لم ينشئها الذي عينه تحكم هذا العالم من علياء السماء، وهو يعلم حقيقتها، أو ربما لا يعلمها "[1].

أما في ملاحم الأبطال (البها كافا د – كيتا)

هناك مجموعتان تعتبران كالكتب المقدسة في الديانة الهندوسية[2]:

– الأولى (رامايانا): وتحتوي على (٢٤٠٠) مقطوعة من مغامرات الإله فيشنو الذي تقمص في تجسده السابع صفة الأمير (راما) الذي جاء لينقذ العالم من الشرور.

– الثانية (ماهابراتا): وتحتوي(١١٠٠٠٠) رباعية، وهي تجسد الإله فيشنو الذي جاء في تقمصه بصفة (كرشنا) وتذكر الروايات بأنها سرد لمعركة حربية دامت ١٨ يوما حين دار حديث بين أحد قادة المعركة وبين سائق مركبة (كرشنا) حول معنى الحياة والموت.

1- حكمة الأديان الحية – ص: ١١٤

2- حكمة الأديان الحية – ص:١١٥

وتعتبر ملحمة كيتا ذات مكانة رفيعة في الهند في جميع العصور اللاحقة، فقد كتب (المها تما غاندي) في الهند الفتاة يقول (عندما تحدق بي الخيبة، وأغدو فريدا، ولا أعود أبصر بأي شعاع من نور، فإنني أعود الى "بها كافاد ركيتا " فإنني أعثر على مقطوعة هنا وعلى أخرى هناك، وعندئذ تعلوني الابتسامة، وأنا في صميم الكوارث الماحقة، وحياتي مفعمة بالكوارث الخارجية، فإن لم تترك هذه الكوارث آثارا ملحوظة لاتمحى، فإنني مدين بكل شيء الى تعاليم (بها كافادركيتا)[1].

وهناك أقوال كثيرة تدل على أن لهذه الديانة من فلسفة وعقائد تبحث في أصل الوجود، وتصور هذه الديانة لحقيقة العالم، ومن هذه الأقوال:

- أتبكي لو بلغك أن إنسانا في ساعة الموت مثله في ساعة الميلاد . الموت خاتمة الميلاد . والميلاد خاتمة الموت.

- تولد المخلوقات، ولا يؤبه لها، وتموت ولا يؤبه لها أيضا، أما البشر فيؤبه به بين الحالتين.

هناك دنيا تختلف عن دنيا الحس، فهي أعمق، وأعلى، وأبقى غورا، لا يبلغها البصر، ولا تتبدل، وأن الأفكار التي تنطوي عليها الأوبنشاد فكرة البراهما، وهي بحد ذاتها نوع من أنواع التصوف، وإن حالة الإتحاد مع البراهما هي درجة الغبطة والإتحاد لذلك كان واجبا على طالب العلم، وأن يجلس في وضع تأملي، ويبتعد عن كل الهموم الدنيوية، وهذه هي المعرفة اليقينية، ولكن الأوبنشاد أيضا تذكر بأن هناك عودة لهذه الأرواح بعد انحلالها، وتجسدها في حيوانات، أو كائنات أخرى قبل هذه الحياة، إن من الملاحظ بأن هذه الأديان الوضعية لا يمكن أن تكون حالات تصوف كما في الأديان السماوية رغم أنها تشترك في المبدأ الأساس، وهو الابتعاد عن الملذات، وهجر هذه الدنيا، ونيل السعادة في الآخرة بالإضافة الى اختلافات منهجية، فالديانة الهندوسية، ومعتنقوها يدورون في مسائل محددة، ويتشابه أغلب فلاسفتها، ومتصوفيها، وإن اختلفوا في التسميات، والعقائد، وفي هذه الأناشيد

1- حكمة الأديان الحية — ص:١١٧

والقصص، ومعلمي هذه الفرق، وهذه المذاهب فيما بينهم، وكذلك ما نجد في هذه الديانة لقدمها في التاريخ، فإنه يشوبها هالة من الغموض، وتتنوع التأملات لدى معتنقي هذه الأديان، وأنه ليصعب معرفة المسؤول عن هذا المذهب، وعن تاريخه. وبهذا ينتفي التاريخ. إلا أن هناك مقياسا، أو ناظما يمكن أن نستقي من فقرات التفكير الفلسفي، والتراث الهندي.

ويعتبر (بوذا ومهافيرا) المؤسسين لتلك الأديان الأولى في الهند، وكانت أساسا للأديان وللمذاهب التي تلتها فيما بعد.

نشأة الديانة الهندوسية:

إن الديانة الهندوسية نشأت منذ ١٧٠٠ق.م وهي من الديانات الشرقية القديمة. وكان هدفها أن الإنسان سيعيش. ويهنأ بحياة ثانية أفضل من حياته التي يعيشها الآن في حاضره الزمني. إذا سلك الطرق والتعاليم التي نادى بها فلاسفتهم وحكماؤهم ومعلموهم الكهنة. وارتضوا بها في مسائل التنسك والزهد والرهبنة.

وتدل مصادر ومراجع أخرى على أنها نشأت يد الآريين الذين بدأت أمواج هجراتهم من الشمال الغربي للهند حوالي العام ١٧٠٠ق.م ووصولهم الى إيران ذلك الاسم الذي يدل على هذه الهجرات من العنصر الآري، فكانت هذه الفلسفة التي تبنتها الهندوسية قد ساعدت على وضع فلسفة الابتعاد عن الملذات والشهوات عن طريق الزهد والتصوف فإنها البحث نحو حياة أفضل، وإيجاد الحلول لتحسين تلك الحياة أما الهندوسية تقول بأن الإله فيشنو نزل من السماء تسع مرات الى الأرض راكبا طائر الغار ودا وفي الانحدار العاشر جاء ممتطيا جوادا أبيض. ويحمل سيفا من لهب. وفي نهاية الأمر ينزل إلى الأرض ليهلك الأشرار.

فالمرحلة التي بدأت بالبراهما التي تدعو إلى التحول من عبادة الطبيعة الى عبادة الإله، إلا أن حالة التصوف هذه تكمن في تعاليم الأوبانشاد، وتعني التتلمذ على يد أستاذ وقد تعمقت هذه الأناشيد لدى القسيسين.

ورغم أن هذه الديانة قديمة جداً فإننا نرى كيف نظرت إلى مسألة العقل وكيف تضع والنواظم والاستنتاجات.

" إن أول دراسة يعلمها حكماء اليوبانيشاد لتلاميذهم المخلصين هو قصور العقل إذ كيف يستطيع هذا المخ الضعيف الذي تتعبه عملية حسابية صغيرة أن يطمع في أن يدرك يوما هذا العالم الفسيح المعقد الذي ليس مخ الإنسان إلا ذرّة عابرة من ذراته وليس معنى ذلك أن العقل لا خير فيه بل إن له المكانة المتواضعة "[1].

المادة القدسية:

واعتبرت موادها قدسية . فلا يجوز ترديدها بحضور الطبقات الدنيا، واعتبرت "اليوبانيشاد"[2] مبادئ الاوبنشاد التي انبثق عنها مبدأ الزهد . لأنها الصورة المثالية للديانة الهندوسية، وان " الريج فيدا " تتحدث عن الأشخاص الصامتين، وأصحاب الشعر الطويل، وهي تركز على الجانب الداخلي الذي به يعتنق مبادئ الفيدا .

قال شوبنهور(انك لم تجد في الدنيا كلها دراسة تفيدك، وتعلو بك أكثر مما تفيدك، وتعلو بك دراسة أسفار يوبانشاد لقد كانت سلواي في حياتي، وتكون سلواي في مماتي)[3]

وان هذه المعتقدات الصارمة وتقصمها بشكل كبير في العقيدة الهندوسية تفرض شروطا قاسية على من تجاوزها، وقد كان تكفير الناس عن خطاياهم قاسيا الى حد الاضطجاع وسط النيران، والتحديق في الشمس، والوقوف على ساق واحدة، أو الجلوس جلسة غير مريحة لفترة زمنية طويلة.

1- قصة الحضارة —ج٣- ص:٤٦

2 ـ مؤلفة من مقطعين " يوبا" ومعناها بالقرب من و"شاد" معناه اجلس ومجلس، فهي حرفيا تعني الجلوس بالقرب من المعلم ثم أخذت تطلق على المذهب الغامض الذي أسره المعلم الى خيرة تلاميذه، ومنها ١٠٨ محاورات مما جرى بين المعلم وتلاميذه ألفها كثير من القديسيين والحكماء فيما بين السنوات(٨٠٠- ٥٠٠ ق م)

3- قصة الحضارة —ج٣-٤ ص:٤٣

كما إن الهندوسية قد نظمت تعاليم كثيرة الى جانب الثواب والعقاب وعلاقتها بالكائنات الأخرى . وبخاصة الرفق بالحيوان . وظهر بوضوح تحريم إيذاء البقر لان الآريين الفيديين يستخدمون البقر للتضحية للآلهة، والفكرة التي تقول إن إزهاق حياة حيوان، أو حياة بشرية تحت أي ظرف من الظروف هو عمل آثم، وإن كان يؤدي الى ميلاد جديد في كائن حي آخر أدنى، هذه الفكرة لا يمكن أن تلعب دورا في دين يقوم على أساس التضحية، وعلى العكس من ذلك، فإنها ترتبط ارتباطا وثيقا بصفة خاصة بحركات الزهد المعارضة للفيدا كما أن اليوجا وهي كلمة سنسكريتية تعني الاتحاد ، وتطلق على الحياة الصوفية في الهندوسية، ويلجأ معتنقو هذا المذهب عموما الى التدريب القاسي في سبيل الوصول الى هدفهم الروحي .

ورغم التطور الذي أصاب البشرية، والأديان الوضعية التي ظهرت فقد بقيت هناك معتقدات منها التناسخ إذ أن الهندوسيين يؤمنون بحلول الأرواح في الأجسام بعد الموت، و(الكارما) وتعني أنه إذا كان الإنسان صالحا في واحدة من دورات حياته المتتابعة، فإنه سيلقى ذلك في الدورة الثانية، وإذا كان طالحا كذلك سيرى ذلك في الدورة الثانية، أو بمعنى آخر جزاء الخير خير مثله، وعقاب الشر شر مثله، وهذا هو قانون "كارما" .

أما حالة "النرفانا[1]" فهي حالة الروح التي بقيت صالحة في فترات متعاقبة في حالات التناسخ، وهي حالة الكمال الروحي لها .

1- النرفانا: كلمة سنسكريتية وبصفة إجمالية معناها "منطفئ" كما ينطفئ المصباح أو تنطفئ النار، أما الكتب البوذية المقدسة فتستعملها بمعان كثيرة منها ١- حالة السعادة التي يبلغها الإنسان في هذه الحياة باقتلاعه لكل الشهوات الجسدية اقتلاعا تاما. ٢- تحرير الفرد من عودته إلى الحياة. ٣- انعدام شعور الفرد بفرديته. ٤- اتحاد الفرد بالله. ٥- فردوس من السعادة بعد الموت أما الكلمة في تعاليم بوذا فمعناها فيما يظهر إخماد شهوات الفرد كلها وما يترتب على ذلك للذات من ثواب وأعني به الفرار من العودة إلى الحياة وأما في الأدب البوذي فكثيرا ما تتخذ الكلمة معنى دنيويا إذ يوصف القديس في هذا الأدب مزارا بأنه اصطنع النرفانا في حياته الدنيا بجمعه لمقوماتها السبعة وهي (السيطرة على النفس والبحث عن الحقيقة والنشاط والهدوء والغبطة والتركيز وعلو النفس) وغالبا ما تتخذ النرفانا السكينة التي لا يشوبها ألم ويقول بوذا " والآن فهذه هي الحقيقة السامية عن زوال الألم، انه في الحق فناء المرء حتى لا تعود له عاطفة تشتهي انه اطراح هذا الظمأ اللاهث والتخلص منه والتحرر من ربقته ونبذه في نفوسنا نبذا لا عودة له ". (قصة الحضارة – ج: ٣- ص:٨٤- ٨٥)

وبهذا يعمل كل هندوسي للولوج الى مرحلة النرفانا، فهي الغاية العظمى وفق ما جاءت به تعاليهم الهندوسية، فلا بد من العمل من أجل أن يكون صالحا في كل مراحل الحياة الأخرى لينتقل من جسم صالح في المرحلة الأولى الى جسم صالح في المرحلة الثانية حتى يصل الى الكمال الروحي، وهي غاية النسك، والتصوف لديهم، وهي حالة السعادة الأبدية، وما يسمى بالنرفانا، وعليهم أن لا يفعلوا الشر وأن يبتعدوا عنه، وهذه المراحل تسمى بعقيدة التناسخ التي لا يؤمن بها كثير من الأديان.

الزهد والتقشف في الديانة الهندوسية "التصوف":

إن المتتبع لفلسفة الديانة الهندوسية وتعاليمها التي تعتبر من أقدم الديانات في الهند وفي الشرق التي امتزجت بتراتيل وفلسفات عبرت أصدق تعبير عما يجول في خاطر الإنسان آنذاك . وأن السؤال الرئيس الذي لازم الإنسان الهندي وغيره في التجمعات البشرية منذ بدء الخليقة هو ..لماذا..وكيف....وهذه الأسئلة التي بدأت معها معرفته للحياة الأولى والبدائية.

وإن عدد الآلهة يصل الى بضعة آلاف، وهذه الآلهة ليست موجودة بقدر ما كان يجسّدها الهندوسي في وعيه، وليس لها سمات بشرية، وإنما لقوى أساسية في هذه الحياة وهي تمثل القوى التي تخلق العالم وتدمره ومن هذه الآلهة (آجني[١] – أندرا[٢] – فاك[٣] –

1- آجني: هو أحد الآلهة الفيدية الرئيسية وهو اله النار وكلمة آجني تعني النار ويرمز لقوة النار الرهيبة. (– الفكر الشرقي القديم– عالم المعرفة – ص:٤٧)

2- أندرا: كان من كبار الآلهة وهو أكثرها شبها بالبشر بين آلهة الفيدا، وهو سيد للصاعقة يهزم الأعداء ويحمي شعبه ويهزم قوة العماء والظلمة الكونية ويفسح الطريق لأشكال الوجود الخلاقة ويرد اسم أندرا في الفيدا وهو اله يرمز إلى الشجاعة والقوة لحماية العائلة والمجتمع. (– الفكر الشرقي القديم– عالم المعرفة – ص: ٤٨)

3- فاك: وهي الآلهة التي يعنى اسمها "الخطاب" وهي آلهة الاتصال ولا تمثل الكلمات وحدها وإنما الوعي الكامن الذي يجعل الحديث ممكنا وقد أدرك شعب الفيدا القوة الهائلة التي يتمتع بها الخطاب وهو يصدر أوامر الحياة والموت ورمزوا لهذه القوة بربة الاتصال وجعلوها على هيئة سيدة جميلة تتحلى بالوعي المتألق والكلمات الجميلة. (– الفكر الشرقي القديم– عالم المعرفة – ص: ٤٨)

فيشنو[1] – كرشنا[2]..... وكثير من الآلهة الأخرى الفيدية ترمز إلى أكثر القوى الكونية والإنسانية وهذا ما جعل الوجود الكوني عميقا في نسيج الحياة اليومية الفيدية كما ينظر إليها . فليست هي الخالقة للوجود . وإنما متضمنة في الوجود ، ولا يمكن فصل إحداهما عن الأخرى.

إننا نجد صعوبة في تحديد مساق للتصوف، والزهد حول هذا المبدأ، أو ذاك ولكن مع هذه الكثرة . فقد تعددت أشكال التصوف، والزهد ، وما نراه لدى الهندوسيين بأنهم يقدّسون العديد من الحيوانات الى حد عبادتها لأنهم يرون هناك عناصر مشتركة بين الإنسان والحيوان ، فهي صنوف إلهية . وأعلى وأقدس ما في هذه الحيوانات هي البقرة فيبدأ أحدهم يطرح سؤالا في نوع من الغرابة كيف نأخذ من البقرة حليبا أبيضا . والبقرة حمراء .

لقد أقيمت لها تماثيل في كل بيت ومعبد ، وأن البقرة تمشي في الطرقات ولا يستطيع أحد اعتراضها وأن لحمها لا يمكن أكله من قبل الهندوسيين وجاء التقديس لها بالاقتصار على ذبحها للآلهة فقط، لا يجوز ذبحها لغير تلك الغاية، ولا أكلها وهذا نوع من المقدس الذي يعتنقه الهندوسيون ولا تجد أكثر منهم تطبيقا لهذه المبادئ، وهذه المقدسات وفق معتقداتهم، التي لازمتهم آلاف السنين، وأن هذه الطقوس لعبادة الحيوانات لم تقتصر على البقرة، وإنما كانت هناك عبادة للتماسيح والأفاعي . وبهذا فقد تعددت الآلهة عند الهندوسيين بتعدد معتقداتهم التي كانت تدور وفق قوى الطبيعة وعناصرها كالشمس . والسماء . والماء . والنار....

1- فيشنو: وهو الإله الثاني ووظيفته هي الحفظ وهو يتخلل كل الأشياء وتصور الفيدا في صورة قزم عبر الكون كله بثلاث خطوات عملاقة وهو عند أنصاره الروح الحية العظمى وغالبا ما يصوّر وقد أسفر على الحية وينبعث براهما من زهرة اللوتس التي تنمو على سرته وهم يتصورون أنه يهبط بين الحين والآخر إلى الأرض لتخليص الإنسانية من المخاطر. (– الفكر الشرقي القديم– عالم المعرفة – ص:٨٤)

2- كرشنا: وهو التجسيد الثامن للآلهة فيشنو وهو أكثر الآلهة شعبية لدى الهنود وتروى القصص حول مغامراته وعبثه مع الراعيات الأسطوريات وعزفه على الناي واسمه حرفيا " الأسود " أو الداكن مما يدل على أنه كان إلها للهنود الأصليين المائلين إلى السواد. (الفكر الشرقي القديم– عالم المعرفة – ص: ٨٤)

وإذا كانوا يعتنقون مبدأ التقمص أيضا فان ذلك واضح من تجسيد هذه القوى الطبيعية في بناء التماثيل للآلهة ونحتها .

بالإضافة إلى التراتيل وأناشيد الفيدا التي أنتجها العقل البشري في الهند التي أوصلتهم إلى حقيقة وجود الجوهر الذي عن طريقه وجدت كل الأشياء وأطلق على ذلك اسم (براهما) وهو اسم غير وصفي وليس شيئا محددا ويصعب وصفه وأنه لا يتغير . ولا يمكن إدراكه وسماعه . أو رؤيته . أو شمه . أو تذوقه . وليس له بداية . أو نهاية . فهو يتخلل كل شيء . وهو كلي الوجود . ويعتبر مصدر كل الموجودات . وبهذا نلمس بذور الاعتقاد بوحدة الوجود في التصوف الهندوسي .

وهذا أعظم ما أصدرته اليوبانيشاد في بحثها في المطلق من خلال التجربة التي تؤكد من خلال الاستنارة الواعية الكلية لأن " براهما " هو الذات المطلقة والموضوع المطلق هو آتمان فهما إذا شيء واحد .

ومن هنا نرى أنه قد تم تكريس مبدأ أن النفس تعرف كل شيء وهي الجزء الذي لا يتجزأ من العالم الكوني وصولا إلى وحدة الوجود ومصدره . وهنا يكمن جوهر التصوف الهندوسي .

كما أن الدرجة الرفيعة التي يصلها الهندوسي هي البراهما ، وهي رتبة الكهنة ، الذين هم أفضل وأشرف الناس ، وقد سنت قوانين صارمة على من يتطاول على البرهمي ، أو يريد إيذاءه ، فإن عقوبته أن يصلى عذاب النار لمدة مائة عام ، ومن يعتدي عليه يعاقب بالجحيم لمدة ألف عام . وهذه القدسية للبرهمي عند الهندوسيين تعزى أيضا إلى أن البرهمي قد خلق من رأس "مانو" وهو أول البشر في معتقدهم ، وأما مجموعات البشر التي خلقت من أطراف مانو فهم أربعة ولكنّ الثلاثة الباقين هم في خدمة البرهمي .

الديانة البوذية[1]

تنسب هذه الديانة إلى بوذا (الرجل المستنير) التي شاعت في الهند، وكانت إحدى دياناتها الكبرى .ولا تختلف رؤيتها كثيرا عن بقية الأديان الأخرى بالنسبة لرؤيتها للمعاناة الإنسانية، والظلم وكل أشكال الشقاء الإنساني، فتطرقت إلى مسائل الحياة، والموت، والخير، والشر، والفضيلة، والرذيلة، فكل من أجاد في تطبيق هذه المبادئ، والمغالاة فيها أصبح متصوفا لذات المبدأ، والعقيدة التي يؤمن بها إيمانا مطلقا وصولا إلى الحقيقة، وهي حقيقة الوجود التي تتباين فيها المعرفة بين دين وآخر، ولكنها تتوحد في مسارات متعددة، وتبقى اختلافاتها في أجزاء تفصيلية، ولكن الوجود الإنساني بعيد عن الكمال الخالص، والمطلق، وحتى من وصل إلى جمع الأموال، والمكانة فلابد له من التسليم بقدر كاف من التعاسة، والبؤس، والشقاء، ولكي يدرك من وراء ذلك بأن الحياة ليست كاملة، وان هذه

1- البوذية: نسبة إلى بوذا، والكلمة تعني حرفيا "المستنير" أو "المتنوّر" أو "المستيقظ" وهي لقب واحد من ألقاب عديدة تطلق على (سدهارتا جو تاما) مؤسس البوذية ومن أبرز ألقابه "ساكيا موني" أي حكيم قبيلة ساكيا التي ينحدر منها سدهارتا وكذلك لقب ناتاجاتا، وهو لقب غامض ولكنه ربما كان يعني الذي مضى على هذا النحو أي ذلك الذي يمكن أن يشار إلى حياته العملية ودونما سبيل إلى وضعها وهناك أيضا لقب " جينا " أي المنتصر، وغيره من الألقاب أن هذا المذهب الذي قال عنه سدهارتا في شمال الهند في القرن السادس قبل الميلاد واستهدف في جوهره التحرر بنور البصيرة وأعتمد على التأمل للوصول إلى حالة النرفانا التي تعني الانطفاء والإخماد ويهدف إلى الوجود الخالي من المعاناة تسعى البوذية إلى حالة سامية من التحرر عن طريق إخماد رغبات الفرد ووعيه وينسب إلى (bo) وهي شجرة المعرفة التي كان يجلس تحتها معتكفا ومتنسكا وكانت هذه المرحلة مهمة جدا في طريقه إلى المعرفة (الفكر الشرقي القديم –عالم المعرفة– ص: ٤٢- ٢٠٢).

المبادئ والعقائد تمت صياغتها بالعقل والتجربة . وجميع حواس الإنسان . ومع هذا التعدد والتنوع لم تسفح على أرض الهند دماء من أجل الدين في حين يوجد خليط من العقائد الدينية، وما دوّنت تلك العقائد من خلال الملاحم، وإن كانت ذات صبغة أدبية، ولكنها بموجب هذه التعاليم اكتسبت حد القداسة، وكأنها آيات منزلة تأتي بعد الفيدات.

(فالبوذية رغم ما فيها من عناصر الشمم هي كالرواقية – فلسفة للعبيد، ولا يغير الموقف أن ينطق بها أمير لأنها ترمي إلى وجوب الزهد في كل شهوة، وفي كل كفاح حتى، ولو كانت الشهوة، وكان الكفاح من أجل الحرية الفردية، أو الحرية القومية مثلها الأعلى هو حالة جمود لا يعرف الرغبات)[1].

وبهذا صوّرت الديانة الهندية الحياة بأنها لا مفر منها في حين لم تراع بعض المسائل الأخلاقية، وتمسكت بعادات وحشية مثل حرق الأرملة عند وفاة زوجها واعتبرت الشكليات هي كل شي تبحث عنه الهندوسية، وأن جواهر الأمور لاشيء .

حياة بوذا:

(غوتا ماسد هارتا بوذا) الذي ولد في عام ٥٦٠ ق.م في سفوح جبال الهيمالايا، وتوفي في عام ٤٨٥ق م أدرك بأن مواجهة المشكلة، ومعايشتها خير وسيلة من النظر عليها من بعيد، فهو الرجل الثري الذي أصبح ملكا على البلاد، وعاش في برج عاجي، وغنى فاحش، وإمبراطورا على كل بلاد الهند، فقد كان أبوه زعيما لقبيلة(ساكيا) وعندما كان عمره ١٩عاما تزوج غوتاما أميرة من الجوار، ولم يهنأ له العيش في حياته، واكتشف أنه غير سعيد في هذه الحياة.

فأراد أن يهجر الحياة التي يعيشها، وفي نهاية العقد الثالث من حياته بعد أن أنجبت زوجته طفلا، وشعر بأن الوقت قد حان لتحقيق رغبة في نفسه، خلع ملابسه الثمينة، وارتدى ثوبا أصفر خشنا إقتداء بناسك قد رآه يوما من الأيام، وهام على وجهه لمدة ست سنوات في البراري،

1- قصة الحضارة – ج ٣- ص: ٢٣٢.

وقد كان يجول في ذاته صراع داخلي للبحث عن الحقيقة، واستمد هذه الطريقة من الهندوس، وطريقة النسك الصارم على غرار الجاينيين، وهي طريقة في النسك، والعبادة، والتأمل، والتصوف، وهي أسبق من (غوتاما البوذية) وكان مؤسس الجاينية (مهافيرا) والذي ولد من عائلة الأشراف، وكذلك فقد ثار على الوضع الاجتماعي وترك عائلته بعد أن أنجبت زوجته طفلا، وترهب ثم أسس نظاما نسكيا جمع النساء، والرجال، وزالت الفوارق الطبقية بينهما، وأن (غوتاما وماهافيرا) كانا غير مقبولين لأنهما رفضا قداسة الفيدا.

وقصد بوذا مكانا يدعى (بودغايا) وجلس تحت شجرة صارت تدعى شجرة المعرفة، أو شجرة البو(BO) وهذه المرحلة تعتبر من المراحل المهمة التي جاءت لتؤثر على حياة الملايين من بعده.

هذا الصراع الذي لازمه طيلة الفترة حث في نفسه أسئلة كثيرة ورأى أنه سيلقى بعض الأجوبة من خلال هذه المعاناة التي سلكها ليتحرر من الرغبة، والملذات التي يعيشها، ومن كل توق جسدي، وأيقن بأن قد حصل حالة الصفاء العقلي والفكري بدأ يظهر لديه نور المعرفة، وهناك مسائل كثيرة أراد الإجابة عنها، وأصبحت من المسلمات لما رأه قبل أن يهجر كل هذا الترف وأن مسألة الولادة (حالة الولادة) لن تتكرر في الحياة وليست محصورة عند جنس بني البشر وإنما في كل الكائنات الأخرى، ولكن الموت سيواجهه بعد أسئلة أثارت حفيظته عندما رأى عجوز منحني الظهر، ومتعثرا في مشيته، وحاقت به الأوجاع، وسأل سائقه، فأبلغه بأنه عجوزا، ولكنه لم يفهم الكلمة، ولم يكن له خبرة بالشيخوخة مستوضحا من السائق مرة أخرى ليلقى الإجابة نفسها ويردف ويقول له نحن أيضا معرضون للشيخوخة، وتلتها مواقف لرجل مريض استبد به المرض، فجرى حوار مع سائقه أيضا، فكانت النتيجة أنه معرض للمرض كذلك.

تعاليم بوذا وفلسفته:

هذه الحوادث، والمشاهد التي شاهدها بأم عينيه أعادته إلى قصره، وعكف على التأمل، وبقي الموقف الذي خلد في ذاكرته ذلك الرجل الذي رآه عندما كان يتجول بعربته، فكان حليق

الرأس، ويرتدي ثوبا أصفر، ويبدو قانعا مع نفسه في حالة تأمل فيدنو إليه ويسأله . وكان حوارا بين بوذا وذلك الرجل المعتكف الناسك المتعبد والمتأمل الذي استرعى انتباه بوذا ما الذي فعلته أيها المعلم لكي يكون رأسك مختلفا عن رؤوس الآخرين؟ وملابسك مغايرة لملابسهم؟

ويجيب الناسك إنني يا مولاي شخص مضى قدما ..... ويتساءل ما الذي يعنيه هذا المعلم – انه يعني أن المرء أصبح ضليعا بالحياة الدينية، ضليعاً في الحياة الطيبة، ضليعا في السلوك الجدير بالتقدير، ضليعا في الشفقة على الكائنات الحية.

لقد اكتشف غوتاما (بوذا) أنه لم يجد السعادة والحقيقة التي بدأ يتلمسها عندما كان يعيشها والرفاهية والثراء الذي كان ينعم بهما، وكذلك لم يجد أيضا في درجة تقشفه هذا وزهده ونسكه للوصول إلى الحقيقة . السعادة والمتعة التي كانت نفسه تسعى إليهما، وهذا ما ساعده على الإفصاح بالحكمة والفلسفة الحياتية ولكي يعلمها للناس الآخرين ويصبح له أتباع ومريدون، فأختار تبني طريقا وسطا بينهما، حيث استعان بضبط النفس، والتطهر، فأصبح غوتاما المستنير (بوذا) وعاش النرفانا (السعادة) عن طريق البراهما (الإله براهما) الذي سبق وتحدثنا عنه في الديانة الهندوسية التي تضمنت كل ما يدور حول الآلهة براهما في الفيدا الذين سعوا إلى طريق السلام، وبهذا تتوجه الديانة البوذية إلى النفس البشرية للوصول إلى السلام، وليس للأنانية، ويتطلب من معتنقيها أن يكونوا كابحين للعواطف، وعديمي التأثير بالمؤثرات الجسدية كاللذة، والألم، فلم تكن هذه التعاليم من وحي يتلقاها البوذي، وإنما هي مجموعة الآراء ، والعقائد في أطار منطقي استدل عليها الإنسان بعقله، وعواطفه، وعندما يوازن بين الرغبة والعقل يرجح العقل، وأن الغرائز، والميول، وأهواء النفس بطرفيها النقيضين (اللذة والألم) لا تساوي شيئا أمام العقل وان ما توصل إليه بوذا من خلال انقطاعه وتأمله، وتفكيره، في البحث عن الحقيقة . والحكمة التي صاغها لأصحابه . ويقول (أخيراً وجدت مفتاح الحكمة إنه أول قانون للحياة ... من الخير يجب أن يأتي الخير .... ومن الشر يجب أن يأتي الشر)[1]، وهذا ما ارتكزت عليه الديانة البوذية كديانة وضعية دان بها ملايين البشر .

1- قصة الديانات – سليمان مظهر – ص: ١٢٢.

وتذكر الكتب البوذية المقدسة (كل مانحن عليه هو نتيجة تفكيرنا، وأساسه مبني على تفكيرنا، كما أن قوامه هو تفكيرنا)[1]

لقد وضع بوذا مجموعة من التعاليم ومنها الوصايا العشر (لا تقتل - لا تسرق - لاتزن - لا تكذب - لا تتناول المخدر، ولا السم - كل باعتدال، ولا تتناول طعاما بعد الظهيرة - لاتحضر حفلات الرقص، والغناء، والتمثيل - لا تستعمل الأسرّة المرتفعة، أو العريضة - لا تقبل الذهب، والفضة)

وهذه الوصايا تسمى أيضا وصايا السانغا، وهي الطريق الأوسط للناسك، وإذا انحرف عنها الناسك وجب عليه الاعتراف بخطيئته في اجتماع عام كما أنها قسمت هذه الوصايا العشر إلى قسمين منها الخمس الأولى للناس العاديين من نساء ورجال، وأما كل الوصايا العشر، فهي للرهبان، والنساك.

ومن المعروف أن هذه العقائد لم تهتم بها العامة كثيرا، وكانت مقصورة على دائرة النساك والرهبان، وقد اهتمت بشخص بوذا، والأخبار المنسوجة حول حياته، وأفضل ما رأته في عطفه على الناس، فمن هنا تتحول المبادئ، والعقائد إلى دين عندما يتم تأليه مؤسسي هذه الأفكار، والعقائد، ولم تهدأ أفكار بوذا الذي، وأدرك في تلك الفترة التي عاشها معزولا عن العالم، والمجتمع يتأمل ويفكر متقشفا، أنه بوذا لنفسه فقط، ولم يكن بوذا للآخرين، فقرر أن يعود ليعلم بعضا من حوله لينقل ما تعلمه خلال تلك الفترة التي قضاها، فبحث عن خمسة قد تركهم قبل اعتزاله واعتكافه، ولكن عندما عاد إليهم ظنّوا أنه قد هجر النسك، وعاد إلى حياة الترف، واللذة، وكانوا سعداء بأنه قد عاد إليهم وتراجع عن مواقفه وأعماله فوجدهم في مكان يسمى حديقة الأيائل في بينارس، ودار حوار لمدة أيام بينهم وبين الناسك المستنير الذي أصبح ينطق بالحكمة والمواعظ أجابهم بوذا بكلمات كانت (الموعظة في حديقة الأيائل) وأشهر ما قاله لأصدقائه. جعلتهم يغيرون مسيرة حياتهم ومعتقداتهم ويتبعونه ومن هذه الأقوال (هناك أمران متطرفان يجدر بمن أعتزل العالم اجتنابهما: تكريس الحياة للشهوات، وممارسة أفعال الإماتة، أما الأول فهو منحط، ولا يعطي نتائج

1- حكمة الأديان الحية — ص:١٩

حسنة، وأما الآخر، فهو أليم، وغير نبيل، ولا يعطي نتائج أفضل، وبابتعاده عن هذين الخطين المتطرفين يصل طالب الحقيقة إلى الطريق الوسط الذي يفضي به إلى المعرفة، والحكمة، والسلام، والتنور، والفناء)[1]

فاهتدي النساك الخمسة، وأسست الرهبنة البوذية الأولى (السانغا) في شمال الهند، فأرتفع بعد ذلك إلى الستين، ومعظمهم من طبقة الأشراف التي ينتمي إليها.

وفي نهاية حياته لم يبق حوله سوى أحد المخلصين له رفيقه الأقرب (أنا ندا) وتوفي في العام ٤٨٥ق م.

وقد ترك بوذا تعاليم هامة في حياة الشعوب الهندية، والصينية، واليابانية، وتشكلت منها فلسفة، ودين اعتنقتهما تلك الشعوب لأكثر من ألف عام، ومن بين تلك التعاليم التي ارتكزت عليها هذه العقيدة والديانة حقائق رسمها بوذا من خلال فلسفته لتلك الحياة ومعرفته فيقول (طوبى للذي يتغلب على ذاته.... وطوبى لمن ينتظر السلام...... وطوبى للذي وجد الحقيقة.... الحقيقة نبيلة جميلة..... لأنها تنقذك من الشرور.......ما من مخلص في العالم يعدلها أو يساويها.... لنثق بالحقيقة..... وان كنت غير قادر على إدراكها...... فتظن حلاوتها مرارة وتهرب منها...... ثق بالحقيقة لأنها أجمل مما هي..... وما من أحد يستطيع السيرة عليها..... وان إدراكها لا يكون إلا بالإيمان.... فآمن بها.... وأحيا فيها..... الذات حمّى خدّاعة..... فترى حلما جميلا ثم يضمحل..... أما الحقيقة فتجلب الصحة والطمأنينة..... الحقيقة بلسم.... الحقيقة سرمدية.... ولا خلود إلا فيها..... لأنها هي وحدها تبقى أبدا...)[2].

الحقائق النبيلة الأربعة[3]:

هذه التعاليم، والمواعظ تعتبر هي التي تفضي إلى الحكمة، وتصل بالفرد إلى السعادة، والمعرفة، والنرفانا.

1- حكمة الأديان الحية – ص:٥٥

2- قصة الديانات – سليمان مظهر – ص: ٩٩.

3- الفكر الشرقي القديم – عالم المعرفة – ص:١٩٢.

- ***الحقيقة الأولى:*** وتتلخص " تلك أيها الرهبان هي الحقيقة النبيلة للمعاناة، فالميلاد معاناة، والملل معاناة والمرض معاناة، والموت معاناة، ووجود الأشياء التي نكرهها معاناة، والانفصال عن الأشياء التي نحبها معاناة، وعدم الحصول على ما نرغب فيه معاناة، وباختصار، فان المجموعات الخمس التي تنبع من التملك مؤلمة ".

هذا ويؤكد بوذا من خلال هذه المعاناة بأن ما يمكن أن يستلذ به أحدهم، قد تكون معاناة أخرى، والآلام للآخرين تزعزع شعور المرء بالقناعة والرضا.

والشكل الآخر من خلال المعاناة بأن اللذة ليست مستمرة، ولكن ذلك يدفع إلى تقوية الدافع كلما زادت الملذات، وكلما زاد التشبث بالملذات زادت المعاناة.

إن الاستمرار بالملذات قد لا يوصل إلى السعادة بحكم كونها سطحية، وعناصرها تؤدي إلى التعاسة ويجب عليه ألا يبتهج بالتكريم الدنيوي، وإنما عليه أن يسير نحو الانقطاع عنه.

- ***الحقيقة الثانية:*** وتضرب جذورها في تلك الرغبة الملحة (الشهوة) التي تجدد الصيرورة، أو الميلاد من جديد، وتصحبها اللذة الحسية، وتسعى إلى الإشباع في التو، واللحظة (هنا ،الآن) أي التوق إلى الملذات، والتوق إلى الصيرورة، والتوق إلى اللا صيرورة).

وحول هذه الحقيقة يقول بوذا إن المعاناة تمتد إلى الرغبة الملحة، أو الشهوة عندما يتوق المرء إلى رغبة يريد الحصول عليها، ولا يستطيع حيازتها كالفقير الذي لديه رغبة شديدة لجمع المال، فهذه معاناة، وكذلك المريض عنده الرغبة الشديدة بالصحة، والرغبة في الخلود عند حتمية الموت، وهذه الثنائيات تؤدي إلى المعاناة.

وكذلك يتطرق بوذا من خلال ذلك إلى أن هناك حقائق موضوعية، ولا يقتصر ذلك على الإنسان، والنفس الإنسانية التي تحول فيها الرغبة، والدافع، والحصول عليها، وما بينهما تحصل المعاناة، فقد يرى غير ذلك في الأشجار، والأحجار التي لا توجد فيها نفس، فإذا انشطر حجر إلى شطرين، أو انكسرت شجرة، فهذه ليست لها نفوس.

- ***الحقيقة الثالثة:*** "وهذه أيها الرهبان هي الحقيقة النبيلة الثالثة المتعلقة بتوقف المعاناة إنها حقا التجرد من الانفعال التوقف دونما أثر لهذا التوق ذاته. وتنحية هذه الرغبة الملحة. والتخلي عنها، والتحرر منها، وعدم التعلق بها "

ويتطرق بوذا في هذه الحقيقة إلى أن المعاناة يمكن القضاء عليها بتحليل أسباب المعاناة، فإذا كان التوق الأناني هو سبب المعاناة، فان توقف المعاناة يكمن في انقطاع ذلك التوق، وعند الانطفاء، أو الإخماد تجتث من جذورها.

- *الحقيقة الرابعة:* وهي الطريق المفضي إلى وقف المعاناة، فنجده يقول فيها "إنها الطريق ذو الشعاب الثماني أعني أنها سلامة الرأي، وسلامة النية، وسلامة القول، وسلامة الفعل، وسلامة العيش، وسلامة الجهد، وسلامة ما نعنى به، وسلامة التركيز.

أقوال وقصص الدمايادا[1]:

وجدت تعاليم بوذا تربة خصبة في نهر الغانج بعد وفاته، وازداد عدد الرهبان، وانضم إليهم العديد من النساك من كافة أبناء المجتمع، والطبقات الحاكمة، وتقول الرواية حوالي ٥٠٠ ناسك، وأنشدوا ما في السلال الثلاث لتعاليم بوذا.

ولكن بعد مضي قرن من الزمن قد شاب هذه التعاليم التعديل كتناول وجبة الأكل بعد منتصف النهار والسماح للبعض للنوم على أسرّة مريحة، واقتناء الذهب، والفضة، وتناول المشروبات المخمرة، وبهذا حدث انشقاق عن البوذية القديمة (الأصوليين) أما المنشقون فقد اكتسبوا تسمية جديدة (هينايانا).

1- الدمايادا:وهي كلمة سنسكريتية وهي من المصطلحات ذات المعاني المتعددة فهي في الهندوسية " القانون الأخلاقي " وفي البوذية " الحقيقة الكاملة " وفي الجاينية " الفضيلة الأخلاقية " والجوهر الأزلي الذي يحرك العالم في آن واحد وهذا المصطلح راج كثيرا في العديد من أرجاء آسيا الدمايادا وهي مجموعة الكتب البوذية المقدسة، أو سلال الحكمة (تيبتياكا) وهي أضخم ما ورد من التراث التشريعي في أي دين من الأديان، فالسلة الأولى، والثالثة (التيبتاكا) تعطي وصفا دقيقا لقواعد النسك، والرهبنة، وتوضح معالم كل قاعدة بشتى الشروح، والتفاسير وفقا للعقيدة البوذية، أما السلة الثانية (ستابيتاكا) فهي مجموعة هائلة من المواعظ، والأحاديث تعزى إلى بوذا منها ٥٥٠ قصة من قصص الولادة (الجاتاكاس) وقصص الأمثال البوذية (الدمايادا) كتبت كلها شعرا، وينتظم في ذلك الكتاب ٤٢٣ موشحا يتضمن كل واحد منها فرضا من الفرائض، أو قاعدة، أو ناموسا.

ويظل مبدأ الرهبنة التي انتشرت فيها الهينايانا من جديد ، تعتمد بشكل أساسي تعاليم بوذا ، واللباس الأصفر ، وحلق الرؤوس كما كان يفعل غوتاما (بوذا) والذين يهدفون إلى الخلاص الفردي، والتأمل النسكي الصامت المتبع في جميع أديرة الهينايانا ، وهناك اعتقاد أن الهينايانا تنظر إلى أن هناك بوذا في مرحلة التكوين اسمه (ماتريا) وهو ينتظر الوقت الملائم ليعود إلى الأرض، وستكون حياته مثل حياة غوتاما ، وتدل الدراسات التاريخية على أنه لم تكن هناك تماثيل لبوذا إلى أن جاء الإغريق إلى ولاية البنجاب شمال غرب الهند ، ووضعوا له تماثيل تمجده وذلك خلال القرنين الثاني ، والأول قبل الميلاد ، وكانوا يتوقون إلى بناء أبراج تتدرج حتى تنتهي إلى قبة مسننة، وهي دور للعبادة، وتعتبر الهينايانا هي الوسيلة الصغرى، ولكن بدأت تظهر مدرسة أخرى هي الماهايانا ، وهي الوسيلة الكبرى.

وكذلك سبقت هذه المرحلة (بوديساتفا) والذين ينظرون إلى بوذا على أنه كائن الهي وضع للناس من أجل أن يخلصهم من الآثام، وهذا الكائن الإلهي قد دخل رحم امرأة، وهي نائمة في قصر الهيملايا ، وهذه إحدى الروايات التي صيغت ضمن الفلسفة والديانة البوذية كما أن هناك روايات أخرى تدور حول السياق نفسه كلما تقدم الزمن، وهذا ما ينطبق على بعض الأديان الوضعية الأخرى، ولكنها بقيت تنشد التفاؤل :

- البغضاء لا تتلاشى بالبغضاء أبدا إنما تتلاشى البغضاء بالحب هذا الدستور الخالد (داما يادا)
- من يرغب في ارتداء جبة الراهب قبل أن يطهر نفسه من الخطايا ، هو غير خليق بذلك الرداء
- الراهب الذي يبتهج بالتفكير ، ويخشى الطيش قريب من الخلود .
- المنتصر من يقهر نفسه، وليس من ينتصر في ألف موقعة على ألف محارب.
- من يعمر مائة عام دون أن يدرك الناموس الأسمى خير له أن يعيش يوما واحدا ، وهو يدرك ذلك الناموس.
- حتى الرجل الصالح يعاني أيام نحس ما دامت الصالحات لا تثمر أما إذا نضجت أعماله الصالحة فعندئذ ينعم بالخير.

- لا عاصم للإنسان من الموت حتى، وإن اتخذ السماء، أو البحر، أو كهوف الجبال، أو أية بقعة ملجأ له

- من تذوق حلاوة الوحدة، والهدوء يتحرر من الخوف والخطايا.

- الناسك المتراضي لا يصنع أكثر من زيادة نثر غبار الأهواء.

- الذين يعرفون الحلال حلالا، والحرام حراما هم الذين يتمسكون بالعقيدة الصحيحة، ويسلكون طريق الصلاح.

- حالة الأم في هذه الدنيا مبهجة، وحالة الأب مبهجة، وحالة الناسك بهجة.

- ضبط العين خير، والخير في ضبط الأذن، وضبط الأذن خير، والخير في ضبط اللسان، وضبط البدن خير، وأكثر منه خيرا ضبط العقل، والضبط في كل شيء خير إن الراهب الذي يضبط نفسه عن كل شيء يتحرر من الألم.

- من يسيطر على يده فقد سيطر على قدمه، ومن يسيطر على كلامه، يبتهج في قلبه، والهادئ والمنفرد، والقنوع . هو الذي يدعى بالراهب.

- الراهب الذي يسيطر على فمه، ويعلم، معنى الشريعة يكون كلامه حلوا.

- يا أيها الراهب لا تبالغ في تقدير ما أوتيت، ولا تحسدّن قط أحدا، فالراهب الحسود لن يهدأ له بال.

- من لا يحزن على ما فات، فهو ناسك حقا.

- أيها الناسك أيقظ نفسك بنفسك، وامتحن نفسك بنفسك، وهكذا بمراقبة نفسك،وحراستها تعيش سعيدا.

لقد تطرقنا إلى حياة البوذا والتعاليم التي أرساها من خلال معاناته، وتركه لكل الملذات والشهوات التي كان ينعم بها، ووضع معايير للوصول إلى حقائق بفضل هذه المعاناة وصولا إلى الحكمة والمعرفة التي كانت تدور في خلده، فميز بين طرفي المعادلة، فأختار الطريق الوسط في هذه الشهوات . ويأتي التصوف على يد هؤلاء الدعاة الذين يجسدون هذا السلوك أيما تجسيد، مع ما يمكن أن يدخله من بعض الإضافات وفق رؤى، وأفكار جديدة يقوم بها

الأتباع ، وبقدر تمسكهم بتلك المبادئ، وهذه المعايير ، والمعتقدات تكمن درجة التصوف ، وان ممارسة الطقوس الدينية، التي أصبحت من المقدسات لا يجوز التعدي عليها ، وأصبح لديهم بمرتبة الآلهة وهي من وضع البشر ، وليست دينا سماويا ، وهذه الديانات قبل نزول الديانات السماوية، وهذا مايبين أن استنباط هذه المعارف مبني على العقل المحض، وكثير من هذه الديانات صغيرة أم كبيرة كانت تدور في ذات المعنى ، وان اختلفت في بعض الجزئيات، أو الشكليات، والديانة البوذية من الديانات الكبرى التي نشأت في الهند . والتي تعددت الطقوس الدينية فيها ، فأخذت في تقديس كثير من الأشياء ، والحيوانات حتى كثر فيها الزهاد ، والقديسون أكثر من أي بقعة من بقاع الأرض، وكانت كلها تصل في نهاية المطاف الى البراهما ، فلا بد على من سلك هذا الطريق من أن يتبع التعليمات التي وضعها أسلافه بحرفيتها ، والمحافظة على المبدأ ، والمعتقد ، فلا يقتصر التصوف على جانب العبادة، وإنما هناك بعض الالتزامات الاجتماعية، والأعراف والتقاليد التي يجب أن يسلكها المتصوف لكي يتسم بالقداسة، والزهد ، ومن الملاحظ منذ القديم إلى الآن أن الشعب الهندي يعيش ضمن معتقداته الدينية ويمارس حياة خاصة في طقوسه الدينية وفي حياته الاجتماعية كغيره من الشعوب التي تدين بأديانها سواء كانت وضعية أم سماوية، وظل يدافع عنها بقوة، وحتى في قضا يا الزواج المتشددة فهناك (قسما") على صيانة العفة قبل زواجه، وأن يلتزم بذلك طوال حياته، وأن يكون خدوما ، وأمينا لشيخه، ومعلمه الذي تلقى منه هذه التعاليم، وهذه الدروس، وألا يتأخر زواجه عن الثامنة عشرة من عمره لكي تبدأ دورة الحياة الثانية البرهمية للتناسل من أجل أن يكون له أولاد في خدمة أسلافه ليعبدوه، ومن يرغب في القداسة، والزهد مع زوجته يعيش في الغابات، وعليه أن يقاوم الشّح ، وأن يقاوم الملذات الشهوانية، وهو راضٍ عن ذلك وتقتصر عيشته مع زوجته فقط على إنجاب الأطفال، وإذا أراد الزاهد أن يرقى الى أعلى درجات القداسة، والتصوف، فلا بد أن يترك زوجته، ويستغني عن أملاكه، وكل أمواله، ولا يملك سوى جلد وعل لكي يغطي جسده ، وعكازة يتوكأ عليها ، وجرعة ماء لظمئه، وعليه أن يلطخ جسده بالرماد كل يوم، وأن يعيش معتمدا على صدقات

المحسنين، وأن ينظر الى الأمور بشكل هادئ بعيدا عن الاضطراب وصولا الى الحكمة الروحانية التي تمكنه من الاتحاد بعالم الربوبية، وعالم الربوبية يفصل بين الإنسان وبين شهواته، وملذاته بعد أن يمر بثلاثة طرق، ومراحل (المرحلة الأولى : طريق التأمل – المرحلة الثانية : طريق العمل – المرحلة الثالثة : طريق الحب)

وهذا ما أدى الى صياغة قانون بوذي مكتوب، ولكنه يضم بعض المتناقضات، وفيها يقول المعلم البوذي نجاسينا (إن الدين لا ينبغي أن يتخذ مجرد وسيلة فرار يلوذ بها المعذبون بل يجب أن يكون سعي الزاهد حتى مرحلة القداسة، والحكمة دون أن يزعم وجود جنة، أو إله لأن هذا القديس يؤكد لنا أنه لا وجود لجنة، أو إله)[1]

والملاحدة في الديانة البوذية الذين يشككون في حقيقة الأرواح، ويحتقرون الخلود، ومن هذه الملاحم التي تهاجم هؤلاء الشكاك "المهابهاراتا"[2] أن ذلك الشك لم يوصل النساك، والزاهدين إلا لغاية هي عدم الشك، وأن لا يهاجموا عقيدة الناس، وهذا يندرج بشكل عام على كل أهالي الهند، وحتى شعرائها الذين يتميزون بالورع، ومنهم (كابر) و(فيمانا) يدافعون عن نوع من العقيدة في الله متحلل من كثير من القيود وهو شاعر ظهر في جنوبي الهند في القرن السابع عشر بروح السخرية من الرهبان، والزاهدين، ومن حجاج المعابد، ونظام الطبقات.

وأخذ بهم الاستهزاء من هؤلاء الزهاد، والنساك (عندما يلطخون أجسامهم بالرماد بدلا من أن يركزوا في تفكيرهم في الخالق، وأن ذلك يتساوى بينهم، وبين الحمار الذي يستطيع أن يتمرغ في الوسخ . إن كتب " الفيدا " أشبه ما تكون بالفاجرات اللائي يخدعن الرجال، وليس لهن أغوار تسبر أما علم الله الخبي فهو شبيه بالزوجة الشريفة . أيمكن لتلطيخ الجسم بالرماد الأبيض أن يذهب برائحة وعاء الخمر؟ أيمكن لحبل أن تلفه حول عنقك أن

1- قصة الحضارة – ج ٣- ٤ ص: ٢٣٠

2- المهابهاراتا- والرمايانا: لا تعتبران ملحمتان أدبيتان فحسب بل اعتبرت في الهند بمثابة آيات منزلة تأتي في التقديس بعد الفيدات (قصة الحضارة – ج: ٣ – ص: ٢٣٢)

يجعل منك إنسانا آخر؟ لماذا نرى واجبا علينا أن نسيء إلى طبقة الباريا إساءة لا تنقطع؟ أليس المنبوذ مثلنا في لحمه ودمه؟. ومن أي طبقة عسى أن يكون الإله الذي يحل جسد الباريا؟ إن من يقول " أن لا أعلم شيئا هذا هو أبلغ الناس حكمة)[1] إن مثل هذه الجرأة، ونقد المعتقدات من قبل هؤلاء الشعراء يدل دلالة واضحة على ما كانت تتمتع به الهند من حريات،

إن البوذية التي رسمت هذه التعاليم وإذا كان الرجل المستنير " بوذا " قد أتى في نهاية المطاف من الحياة أي أنه مر سبع مرات بالحياة وأنه عاش في أجساد "أسد فغزال وجواد وثور وثعبان وضفدع ".

لقد كرس عقيدة اعتنقها الملايين من البشر ووضع تعاليم باقية آثارها إلى يومنا هذا منذ أكثر من ٢٤٠٠ عام إلا أن البوذية قد تنوعت مذاهبها وطوائفها وكذلك تقلصت لأن الديانة الهندوسية قد طغت عليها وأصبحت دين الدولة الرسمي وانصهرت هذه التعاليم في جوهر الديانة الهندوسية، ولم يبق لهذه الديانة من أتباع إلا قليلا في جبال الهيمالايا.

لقد اختلف أتباع بوذا في تفسيراتهم لتعاليمه فاختلطت فيها الآراء الشخصية عندما عجزوا عن تفسير البعض منها وقد عمل أتباع بوذا على مناقشة الوصايا العشر الذين اختلفا في تفسيرها وتطبيقها فقسم منهم وضع بوذا في مرتبة الآلهة وقسم آخر وضعه في مرتبة الحكيم والمعلم في تواضعه وبساطته وأنه صاحب عقيدة لكافة طبقات الشعب وقد كانت العبادة والنسك محرمة على النساء ولكن بوذا لم يحرم من ذلك لأن دعوته للشعب كله . وكانت زوجته أول من لحقت بدعوته وأتباعها من النساء

فالذين قالوا عنه بأنه اله وضعوا له النصب والمعابد فأخذوا يضعون تحت قدميه الأزهار ويحرقون البخور ويقيمون طقوسا دينية حوله وهذا الاختلاف موجود في الهند نفسها بين شمال البلاد وجنوبها.

1- قصة الحضارة — ج: ٣ — ص: ٢٣١.

فلسفة التصوف في الديانة البوذية:

في زمن موغل في القدم (٢٥٠٠ ق م) ظهرت مسألة التقديس والنسك في معتقدات أهل الهند ومنها ما يسمى مذهب اليوجا ويغلب اسم اليوجيين على القديسين في الهند . ويجلس هؤلاء الزهاد على جنبات الطرقات فمنهم من لا يتحرك ويظل يفكر في هذا الكون في حالة سكون دائم، ويجلس القرفصاء ، ولا يلبس إلا خرقة تستر عورته، ومنهم من يبقى محدقا في قرص الشمس لساعات طويلة وأياما متوالية، وقد يفقدوا بصرهم من ذلك، وآخرين يرقدون على أسرّة من حراب من حديد ، وكثير منهم يصفدون أنفسهم على الأشجار، وكذلك من يدفنون أنفسهم في الأرض حتى الأعناق، ويظلون على هذا النحو سنوات طويلة، وبعضهم الأخر يقبض كفية على بعضهم البعض حتى تنفذ أظافرهم من أكفهم، وآخرون يرفع الواحد منهم ساقا أو ذراعا ويظل حتى يذبل ويموت، وهذا ما تؤكده المصادر التاريخية من أن الاسكندر المقدوني قد استوقفه هذا السلوك وتحمل الألم الذي يسببه السلوك البوذي.

- فصحب الاسكندر المقدوني حكيما من الهند إلى بلاد اليونان وهو "كالانس " سنة ٣٢٦ ق. م فمرض واستأذن الاسكندر في أن يموت قائلا أنه يفضل أن يموت على المرض وصعد على كومة حطب مشتعلة هادئا واحترق، ولم يبعث صوتا فأدهش اليونان لأنهم لم يروًا قط مثل هذا الضرب من الشجاعة التي تقذف بالنفس في الموت)[1]

وان من يريد البلوغ إلى حالة اليوجا ، فلا بد له من الدخول في ثمان مراحل من الرياضة والدروس.

❖ موت الشهوة والابتعاد عن كل عمل والسعي لتحرير النفس من تلك الرغبات.

❖ إتباع القواعد والنظم كالنظافة والقناعة والتطهير والتقوى للوصول إلى حالة اليوجا

❖ الجلوس بوضعية تصالب القدمين مع الفخذين مع تصالب الذراعين، والإمساك بالإصبعين الكبيرين في القدمين، وانحناء الذقن نحو الصدر.

1- قصة الحضارة – ج- ٣ ص: ٢٦٢

❖ كل الممارسات هذه تؤدي إلى نسيان ما عدا النفس، وإفراغ العقل من كل ما يشغله، أو يفكر فيه.

❖ سيطرة العقل على جميع المحسوسات.

❖ أن يملأ العقل، والحواس بفكرة واحدة للتركيز على موضوع واحد، ويحرر النفس من كل إحساس.

❖ حالة التأمل وهي حالة تنويم مغناطيسي تنتج من خلال الدأب المتواصل لمقاطع مقدسة للوصول إلى حالة الزهد والتصوف، وتعد خاتمة المراحل.

إن الدرجة الأخيرة تحمي كل ما في الذهن من علائق التفكير، ويعتبر البوذي أنه تصوّر الهي مبارك (فلا سبيل إلى معرفة اليوجا إلا عن طريق ممارسة اليوجا).

إن فلسفة التصوف في اليوجا هو الاتحاد بالله، والله في اليوجا لا يتجاوز فكرة من الأفكار الكثيرة واسم هذا الإله (اشفارا) وهو خالق الكون، وحافظه وأن ممارسة اليوجا هي من أجل إزالة العقل عن الجسد، وأن اليوجا هي حالة صوفية خالصة لتحقيق حالة اتحاد الروح بالله، بالإضافة إلى الصوم، وتعذيب النفس، وإيقاع الأذى بها من أجل السعادة والغبطة التي يجنيها من وراء ذلك الألم كما أن اليوجا قد أدخلت في السحر والتصوف أكثر مما هي في جانب الفلسفة.

الديانة الجاينية[1]

الجاينية والبوذية تتقاربان في كثير من القضايا . ويتعذر ان تجتمع فيما بينها هذه الخصائص وتمثل الجاينية الاعتدال فيما بين البوذية والهندوسية وقد أقرت مبدأين هما مبدأ الزهد والتقشف الى أرقى الدرجات، ومبدأ الامتناع عن إلحاق الاذى بأي كائن حي.

حياة مهافيرا:

بقي "مهافيرا" طوال حياته أعزب وفي رواية أخرى أنه تزوج من أميرة تسمى "بشودا " أنجبت له بنتا، وقد توفي والده، وهو في سن الثامنة والعشرين فهجر مهافيرا حياته واخذ يتسّول، وخلع ثيابه كاملة واخذ يتجول عاريا تماما وظل لمدة ١٢ سنة صامتا يمارس اشد أنواع الرياضة خشونة وقسوة.

وهناك رواية أخرى تقول بأنه حزن حزنا شديدا لوفاة والديه، وهو في الثامنة والعشرين من عمره، فأخذ يتأمل معنى الحياة والموت ثم انضم الى جماعة الرهبان المتسولين ونذر الصوم عن الكلام اثنتي عشرة سنة.

(وبعد أن قضى مهافيرا في إنكار ذاته على هذا النحو ثلاثة عشرة عاما أعلنت جماعة من أتباعه أنه (جنا) أي قاهر، ومعنى ذلك أنه معلم من عظماء المعلمين الذين يكتب لهم

1- الجاينية: ديانة يهودية ظهرت في القرن السادس قبل الميلاد (مع البوذية) ويعتقد أصحابها أنه ساهم في تأسيسها " ٢٤ " قديسا آخرهم مهافيرا (البطل العظيم) وتنتسب إلى كلمة (جينا) وهي ليست اسم علم بل صفة معناها القاهر، أو المتغلب، أو المنتصر، ذلك لأن مؤسسيها عرفوا كيف يقهرون شهواتهم). (التصوف والفلسفة – ص: ٢٠٠).

القدر، هكذا كانوا يعتقدون أن يظهروا على فترات دورية ليهدوا شعب الهند سواء السبيل، واختار هؤلاء الأتباع لزعيمهم اسما جديدا هو (مهافيرا) أو (البطل العظيم) واتخذوا لأنفسهم اسما اشتقوه من اسم عقيدتهم فأطلقوا على أنفسهم اسم الجاينيين ونظم(مهافيرا) طائفة من رجاله يكونون رهبانا عزابا وطائفة من النساء يكنّ راهبات عانسات)[1]

لقد أخذت هذه العقيدة تقوى شيئا فشيئا تخرج من جوفها مذهبا من أعجب ما شهده تاريخ الديانات من مذاهب.

وانقسمت بذلك جماعة الرهبان وأتباعهم من العامة إلى فريقين هما وجامبيرا أي لا بسي السماء فعرفت بالطائفة التي نذرت العريّ الكامل علامة على التخلي الكامل أسوة بـ "مهافيرا" على أساس أن العُري شرط ضروري للراهب الجيني عند هذه الفرقة، أما الطائفة الثانية، فقد اعتبرت ذلك النذر هو شخصيا، وذهبت الى ارتداء الملابس. وإن قائد فرقة العراة (بدراباهو) الذي أعلن أن فريق الملابس البيضاء هم مرتدون وأنهم رافضون قبول تلك الشرائع.

بعد وفاة رئيس المذهب الجايني انقسم فيما بينهم وظهرت خلافات حول تطبيق مبدأ الجاينية ومن هذه الخلافات أيجوز للجايني أن يغطي جسمه بالملابس أم أن ذلك مخالف لتعاليم المذهب. فمنهم من أباح ذلك ومنهم رفض ذلك، وفضلوا، أن يكونوا عراة، فاطلقوا على انفسهم لابسي السماء. وهذا يخالف مبدأ أساسا عندهم هو إنكار الذات، وعدم الاكتراث بأي انفعال.

والجاينية ترى أنه لا سبيل لتحرير الروح، إلا بالتقشف والحرمان بينما يرى (الكارما) الذي هو قانون الجزاء الذي يأتي بالتناسخ، والتجوال للروح في مراحل مستمرة من جسد الى آخر. وأن رؤيتها للحياة هي فكرة اللاعنف. وتقديس الحياة بكافة أشكالها وبهذا ساد في مذهب الجاينية الاعتماد على الطعام النباتي. وإن أكل اللحوم هو سبب في القضاء على الكائنات الحية. وتدمير للحياة، ولكن يوجد تسامح في ذبح القرابين للآلهة. وتحريم

1- قصة الحضارة - ج ٣ - ٤ - ص: ٥٩.

الفواكه ذات البذور الكثيرة . فقد كان الجاينيون رغم ذلك يقومون بالتسول للحصول على طعامهم . ولا يقبعون في مكان ولا يسمح لهم باستخدام أية وسيلة للانتقال . وفي هذه الفترة يجب يركزوا على قراءة الكتب المقدسة . وعندما يدرك أحدهم نهايته يسعى للموت بطريقة الصوم ويطمح أن يموت كما يموت الراهب . أو القديس بكل صفاء ونقاء . لقد كرست الجاينية هذه المبادئ . وبنت قيما حضارية . واشتهر رهبانهم بالبحث عن تأسيس مكتبات جميلة . وتركوا تراثا فلسفيا ، أكد على سياسة اللاعنف التي استقاها وأكدها (غاندي) بتطبيق نظرية اللاعنف بتأثير الجاينيين ولا سيما القديس (رايشارد) وأبدع الجاينيون في تراثهم الفني وزخرفة المعابد والأعمدة الفخمة .

إن الجاينية هي الطريق نحو الخلاص بموجب توبة في مذهب (الاهمسا) وهي الامتناع عن إيذاء أي كائن حي ، وأخذت تعاليم الجاينية على المريدين أن يقطع الواحد منهم عهدا على نفسه (ألا يقتل كائنا حيا ، وألا يكذب ، وألا يأخذ شيئا ما لم يعط له ، وأن يكون عفيفا ، وأن لا يستمتع بالأشياء الخارجية كلها) وأخذوا طريقا آخر في تصوفهم . وزهدهم في الحياة ، فكانوا لا يشربون الماء قبل تصفيته لكيلا تكون هناك كائنات حية كامنة فيها قد يتسببوا في موتها ، ويحيط بمصاحبة بستار حتى يقوا الحشرات لذع النار ويكنسوا الأرض أمامهم ، ويمشون وهم خائفون من أن تدوس قدمهم الحافية على كائن حي فترديه .

لقد كان التطرف في الزهد منذ ظهور الجاينية . وانشقوا الى فريقين تفصلهما بعض الآراء ، فمنهم الذين يرتدون الألبسة البيضاء ، ومنهم ذوو الأجساد العارية وطائفتهم مؤلفة من أربعة فروع ، أما الأولى فتتألف من أربعة وثمانون فرعا" ، وأن كلا الطائفتين تشكلان مليونا وثلاثمائة نسمة ، ومن أتباع هذا المذهب غاندي ، فلم يكن يستر جسده سوى قطعة قماش ، وكل أتباع هذا المذهب لا يستحيل عليهم إزهاق أرواحهم جوعاً ، وفي بعض الأحيان يميلون إلى الانتحار تجسيدا منهم لفهم جديد للروح العظمى ، التي ستظهر في فترات متعاقبة حتى الوصول الى النرفانا

الكونفوشوسية[1]

قال فولتير (لقد دامت هذه الإمبراطورية أربعة آلاف عام دون أن يطرأ عليها تغيّر يذكر في القوانين، أو العادات، أو اللغة، أو في الأزياء، وان نظام الإمبراطورية لهو في الحق خير ما شهده العالم من نظم)[2].

1- الكونفوشوسية: الكونفوشيوس ترجع إلى اعتقاد أسطوري بأنه لم يكن هناك شيء في هذه الحياة على الإطلاق، واستمر ذلك وقتا طويلا فظهر شيء جديد، ومن هذا الشيء خلق (بان كـو) و لم تـذكر المراجع المدة التي قضاها، أو عاشها (بان كو) ولكن كان يوصف بالقوة وله رأس تنين وجسد أفعى، وأنه استطاع أن يشكل العالم منذ أكثر من مليوني سنة قبل الميلاد، وبعد كدح في عمله لأكثر من ثمانية عشر عاما، وعندما مات تجمعت أنفاسه، فصارت ريحا وسحبا وأضحت أناته الأخيرة الرعد، وأصبح الدم في عروقه هي الأنهار، وعرقه الأمطار، وعظامه الصخور، وأسنانه المعادن، وشعره الغابات والأشجار، ولحمه الأرض، ورأسه الجبال، وأصبحت عينه اليسرى الشمس، وعينه اليمنى القمر، أما الحشرات التي كانت تعلق بجسمه فأصبحت آدميين، وعندما تعاقب على الأرض ملوك سماويون حكم كل منهم مئة عام، وجاهدوا بأن يجعلوا هؤلاء الآدميين خلائق متحضرة بعد أن كـانوا كـالوحوش الضارية، وبين هؤلاء الملوك (فوشي) وأنه هو خالق البشر في قصص الصينيين، وكان لفوشي أخت سماوية هي (نوكو- أشي) لها جسم ثعبان، ورأس أدمي ويعتبرها الصينيون منقذة هذا العالم، فقد حدث أن " رب العقاب " المسمى (هونج- كنج) قد بلغ في القسوة والطمع حتى دخل صـراع دموي مع رب الغابات حيث تغلب عليه ثم استمر بعدوانه حتى اصطدم (يشو- شنج) أحد مساعدي "هو انج تي " الذي أصبح فيما بعد إله النار وفي هذه المعركة الجديدة هزم رب العقاب فثار غضبه، وضرب الجبل برأسه، فأنشق و لم يكد ينهار حتى تساقطت أعمدة السماء وانهدمت أركان العالم، وهنا نهضت (نوكوا) فأذابت أحجار خمسة من ألواح قوس قزح، وأعادت إصلاح أعمدة السماء، وقطعت أقدام السلاحف لتلصق بصمغها أركان الأرض، وجمعت رماد الهدم، وكدسته لتوقف به فيض الماء، وعادت الحياة من جديد على ظهر الأرض، ولكن التسمية التي أخذت من أحد أتباع هـذا المبـدأ والعقيدة، وهو (كونج – فو- تشي) وتعني كونج فيلسوف وبهذا أطلقت على الفكـر والفلسفة (الكونفوشوسية) وهو حكيم صيني أخذ يعلم التلاميذ الفضيلة والأخلاق، وفي هذه المرة لكسب العيش بعد أن اعتزل عمله الحكومي." قصة الديانات – سليمان مظهر – ص: ١٨٦ – ١٨٧ – ١٩٣ ".

2- قصة الحضارة – ج: ٤- ص: ٩.

إن نظرة شاملة لتاريخ الصين يعطيك صورة كاملة عن عظمة هذا الشعب وحضاراته القديمة التي دامت فترة طويلة من الزمن في زمن كانت بعض الأمم والشعوب لم تنشأ بعد، والتي نشأت بعدها لم توازها بالعظمة، والقدرة، والنظم التي صاغها ذلك الشعب، وكانوا يتهمون شعوب أوربا بالهمجية، والبربرية، فقد كان الصينيون يرون أنفسهم أعظم شعوب الأرض مدنية، وأخلاقا، رغم ما كان يدور في بلادهم من فساد سياسي، وتأخرهم في بعض العلوم، وما ينتاب بلادهم من القحط، وسيطرة الخرافات، والأساطير في أساليب حياتهم، فلهم باع طويل في صناعة الخزف، والنقش وتدل هذه الفنون على عبقريتهم.

فمنذ آلاف السنين عاش الصينيون، وكانت تسيطر على معتقداتهم، وأديانهم عبادة الطبيعة، فأقاموا لها الشعائر، وجسدّوها في معتقداتهم بعبادة الأرواح الكامنة وراءها حتى تشكل فيما بعد بعبادة أرواح ذويهم، وأسلافهم، فاتسمت الحضارة الصينية بعبادة الكواكب، وظهرت مهنة التنجيم، والسحر، والشعوذة نتيجة إيمانهم بمسألة الأرواح الكامنة خلف هذه الموجودات، وتشمل الأرواح الطيبة منها والخبيثة.

حياة وتعاليم كونفوشيوس:

ولد كونفوشيوس في منتصف القرن السادس قبل الميلاد في الصين، وعاش فيها، وكانت تعاني من التفكك السياسي، والاجتماعي، وتلك الظروف أتاحت لكونفوشيوس التعرف على مضامين الحياة، وجعلته أكثر قربا من المعرفة، وبخاصة أنه كان يعمل عند الحكومة، وأنه ذو منصب رفيع (وزير الجرائم) وبعد سنة واحدة من تسلمه هذا المنصب خلت السجون من المجرمين، وجلس القضاة، والمحامون بدون أي عمل. وعندما سئل من أحد الحكام في إحدى الولايات، ماالذي فعلته حتى وصلت إلى هذا الأمر، قال: إن أغلب السجناء هم من الفقراء، والجهلة، فبالتعليم وإتاحة فرص العمل لهم يصبحوا صالحين، ولا ينسى كونفوشيوس أن الحاكم هو القدوة الصالحة في ذلك. وأن القدوة الحسنة هي أولى وسائل الحكم. ويقول (استعمل الصالحين المستقيمين، وأنبذ المعّوجين، وبهذه الطريقة يستقيم المعّوج)[1].

1- قصة الحضارة – ج: ٤ – ص: ٦١

وقد رأى السوء الذي كان يمارس، ولم يدفعه ذلك إلى الانحراف بل زاده قوة، وتأدية لواجبه على أكمل وجه، وقدرة على أن يشخّص مكامن الخطأ، ويصل إلى معرفة هذا المجتمع وحكمته . وفلسفته . وأن يحدد ما فيه من الخطأ، وكانت فلسفته اجتماعية تهدف إلى رفع مستوى المجتمع، ومعالجة كيفية الوصول بالمجتمع إلى تحقيقه الخير والسعادة، وكيف يصل إلى الحقيقة المطلقة بأن ذلك يكمن في الفرد وإصلاحه لأن الذي يبني الفرد هو الذي يبني الأسرة، والأسرة ليست بمعزل عن العالم، وإن إصلاحها هو إصلاح المجتمع، فالولد الصالح هو الذي ينقل صلاحه إلى مجتمعه.

❖ كانت تعاليم كونفوشيوس كتعاليم سقراط شفهيا لا يلجأ فيها إلى الكتابة، وجرت عادته على التنقل من مكان إلى آخر بصحبة نفر من التلاميذ، والمريدين الذين يستوحون آراءه، والحوادث التي تصادفهم عرضا في الطريق هي التي توحي بموضوع الحديث (من بين ذلك ما حدث عندما التقى كونفوشيوس في طريقه بامرأة تصرخ، وتستغيث، فلما سألها عن سبب بكائها، وعويلها في الصحراء الجرداء أجابته " إن نمراً مفترسا قتل والد زوجي في هذا المكان، كما افترس النمر نفسه زوجي ثم تبعه بولدي الصغير ".

وسألها كونفوشيوس لماذا تبقين في هذا المكان بما فيه من نمور.

فأجابته المرأة لأنه لا يوجد في هذا المكان حاكم ظالم.

فاستدار نحو تلاميذه . وقال لهم اكتبوا عندكم أيها التلاميذ (إن الحاكم الظالم أخطر على الناس من النمر المفترس)[1]

إن تعاليمه لتلاميذه لم تأخذه رأفة بتلاميذه، فقد كان يطرد الكسالى، ومن أقواله (ما أشقى الرجل الذي يملأ بطنه بالطعام طوال اليوم دون أن يجهد عقله في شيء .... لا يتواضع في شبابه التواضع الخليق بالأحداث، ولا يفعل في رجولته شيئا خليقا بأن يأخذه عنه غيره ثم يعيش إلى أرذل العمر، إن هذا الإنسان وباء)[٢]

1- قصة الديانات – ص:١٩٦.

2- قصة الحضارة – ج:٤ – ص: ٤٣.

كان يسلي نفسه في وحدته بالشعر والفلسفة، ويسرّه أن غرائزه تتفق وقتئذ مع عقله، ومن أقواله في ذلك الوقت (لقد كنت في الخامسة عشر من عمري مكبا على العلم، وفي الثلاثين وقفت ثابتا لا أتزعزع، وفي سن الأربعين زالت عني شكوكي، وفي الخمسين من عمري عرفت أوامر السماء، وفي الستين كانت أذني عضوا طيعا لتلك الحقيقة، وفي السبعين كان في وسعي أن أطيع ما يهواه قلبي دون أن يؤدي بي ذلك إلى تنكب طريق الصواب والعدل)[١]

ويضيف أيضا (أن العالم في حرب لأن الدول التي يتألف منها فاسدة الحكم والسبب في فساد حكمها أن الشرائع الوضعية مهما كثرت لا تستطيع أن تحل النظام الاجتماعي الطبيعي الذي تهيئه الأسرة، والأسرة مختلة عاجزة عن تهيئة هذا النظام الاجتماعي الطبيعي لأن الناس ينسون أنهم لا يستطيعون تنظيم أسرهم من غير أن يقوموا أنفسهم، وهم يعجزون عن تقويم نفوسهم، لأنهم لم يطهروا قلوبهم أي أنهم لم يطهروا نفوسهم من الشهوات الفاسدة الدينية، وقلوبهم ليست طاهرة لأنهم غير مخلصين في تفكيرهم لا يقدرون الحقائق، ويحفظون طبائعهم بدل أن يكشفوا عنها، وهم لا يخلصون في تفكيرهم، لأن أهواءهم تشوّه الحقائق وتحدد لهم النتائج بدل أن يعملوا على توسيع دائرة معارفهم إلى أقصى حد مستطاع ببحث طبائع الأشياء بحثا منزها عن الأهواء)[٢]

وبعد أن تعرف على مؤسس الديانة التاوية حاول كونفوشيوس أن يجد في تعاليم الآداب الصينية (الآداب القديمة الخمسة) الحكمة والحقيقة التي كان ينشدها . وأن هذه الآداب الخمسة لم تكن قديمة كلها، فالخامس منها وضعه كونفوشيوس، و مع مرور الزمن اعتبرت هذه الكتب الدينية، وهذه التعاليم هي التي توصل الإنسان إلى الفضيلة

وأول هذه الكتب يرجع إلى قرن قبل الميلاد، ومن هنا تفوق أهميته الكتب الأربعة الأخرى، ويتألف من ثمانية مخططات ثلاثية، وأربعة وستين مخططا سداسيا يتألف من

1- قصة الحضارة – ج:٤ – ص: ٤٨.

2- قصة الديانات – ص: ٢١٣

خطوط مستقيمة، ولها معان في الحياة العملية للإنسان، وعلاقته بتلك الخطوط وفي القرن الحادي عشر قبل الميلاد قام اثنان من مشاهير الملوك بكتابة شروح لهذا الكتاب، وتمت اضافات أخرى عليه من قبل علماء، وأخرها كونفوشيوس .وكتب في ذلك (لو كانت لدي خمسون سنة لدراسة كتاب " ين" فقد كنت حريا أن أتحرر من الخطأ الجسيم)

- أما الكتاب الثاني فيتضمن الأحداث التاريخية " شوك انج " وحياة بعض الملوك، والعوامل المالكة (ياء، يو، هسيا، شانك، شاء) وأكمل تاريخ ملك (يا والدي) في القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد (واعتبر كونفوشيوس وهو من احترم التقاليد احتراما شديدا — اعتبر معرفة تاريخ القدماء ضرورة من ضرورات الإنسان الفاضل)

- الكتاب الثالث أو كتاب (الغزل) يؤكد فيه كونفوشيوس أن الإنسان إذا ما تلا الشعر يوميا لن يجنح إلى الخطأ .وكان يقول لتلاميذه (من لم يع منكم هذا الكتاب لا يليق بالمصاحبة — وتتألف هذه المجموعة من أناشيد الأعياد والترانيم والمدائح ومنها ما هو الإنسان).

- الكتاب الرابع أي كتاب المراسيم (سفر كونفوشيوس) ويتضمن التعاليم الدينية التي تم عزلها بدلا من كتاب الغزل، وأدرك كونفوشيوس أن الناس يقبلون مراسيم الطقوس الدينية ويهملون الخلاصة والروح، وكذلك كان موضع تحذير دائم منه لاتباعة)

- الكتاب الخامس قد وضعه كونفوشيوس، ويعتبر أقل الكتب الخمسة شأنا، ويعتبر أيضا كتاب الربيع، والخريف، فوضع فيه الأحداث التاريخية الى زمانه هو، وبهذا أضفى القدسية على هذه الكتب الخمسة، وقد ألحقها بأربع دراسات تتضمن التعاليم والأقوال، وتعتبر موضع تقدير للكونفوشيوس . لأنها تزخر بأقوال الفيلسوف العظيم، وهي ربط بين تعاليم والسلوك لكي يعيش الإنسان بإخلاص وعلاقته مع الآخرين . ونذكر منها مما ورد في هذه الكتب:

- أتولى اختبار نفسي كل يوم بنقاط ثلاث: هل قصرت في أن أكون حي الضمير في نصح الآخرين، وهل قصرت في أن أكون مخلصا في معاملة الأصدقاء، وهل عملت به.

- لا تتألم لجهل الناس بك . بل تألم لأنك تجهل الناس.

- الرفيع يفكر في أخلاقه، والوضيع يفكر في مركزه، فالأول منها يفكر بالعقوبات على الخطأ، والآخر بالمثوبة.

- على المعلم أن يتذكر دائما أربعة أشياء علمه، وسلوكه، ونزاهته وولاءه.
- إننا لا نليق بخدمة الأحياء، فكيف بنا في خدمة الأرواح.
- ميزات الحكومة الصالحة هي وفرة الطعام وفرة السلاح وثقة الشعب، فإذا لم يكن لها التخلي عن واحدة من هذه، فلتخل عن السلاح، وإذا كان عليها أن تتخلى عن اثنين، فلتتخل عن الطعام لأن الموت غاية كل حي وإذا ما زالت ثقة الشعب، فلن يدوم شيء.
- الرفيع من يقدر فضائل الآخرين لا أن يشهد برذائلهم.
- الرفيّع دقيق مع نفسه، والوضيع دقيق مع الآخرين علام تستعمل لذبح الديك سكين ذبح الثور.

وبعد أن مات كونفوشيوس بكاه تلامذته كما يبكي الأبناء آباءهم، وقد أحاطوا قبره بأكواخ لهم مكثوا فيها لثلاث سنوات، وغادروه إلا واحد من أتباعه، بقي لمدة ثلاث سنوات أخرى هو (تزه – كونج) الذي كان حبه يفوق حبهم له. اذا كانت تعاليم كونفوشيوس ذات طبيعية أخلاقية واجتماعية فهي جزء لا يتجزأ من الفلسفات الشرق القديم ومعتقداته. ولم يكن أكثر من عبادتهم للطبيعة بشكل عام والخوف منها. وكذلك عبادة الأرواح الكامنة خلف هذه الأشياء وحتى السماء والأرض التي تتماثل صورهما بالرجل والمرأة وكذلك السيد والتابع والقيمة الأخلاقية التي هي ناتجة عن هذا الاتساق وإن تخليد ذكرى هؤلاء العظام هو تخليد للطرق القديمة وتعظيم لها فكانوا يسيرون عليها ويحافظون عليها من البدع، وقد كانت الرابط المحافظ على وحدتهم عبر الأجيال التي توارثوها من أجيال سابقة، وإن عبادة الأرواح جعلتهم يعتنون بالقبور مما زاد في اتساعها حتى صعب عليهم في بعض الأماكن شق الطرق وإقامة السكك الحديدية لقد كان لكونفوشيوس المكانة الثانية بعد السماء عند الذين لم يعدوه إلها بل اعتبروه بديلا عن الإله، فكانت تقام له الصلوات والأدعية ولكن ما يؤخذ على هذا الدين أنه خليٌ من مسألة الخلود التي اتسمت به معظم الديانات في الشرق ومن الأفعال الصينية المأثورة (ليس بين صانعي التماثيل والصور من يعبد الآلهة فهم يعرفون من أية مادة تصنع).

فلسفة التصوف في الديانة الكونفوشوسية:

إن الشعب الذي عاش في الصين أخذ يعظم أفعال وأقوال كونفوشيوس جيلا بعد جيل، وتضع له معابد ، وصورا تذكارية، فظهرت هناك طبقتان طبقة راقية ترى فيه إلها ، والأخرى تعده بديلا عن الإله، وإن أخذ هذا الشكل من العبادة في هذا الدين البسيط يكاد لا يفي بكل حاجات المجتمع والفرد مثل الصين وفق فسيفساء من التناغم، والتشابك، والتعقيد ، وأمام هذا المشهد كان هناك إيمان بخوارق الطبيعة، وأنهم يتغلبون على عداوة هذه القوى الخطيرة بالسحر، وعمدو إلى الشعوذة والاستعانة بالمشعوذين لكشف مستقبلهم، والميزة التي ميزت الشعوب الصينية، والهندية لفترة من الفترات هي اهتمامهم بحركات النجوم، والكواكب.

ولم تتوقف الديانة الصينية على عبادة عناصر السماء ومكوناتها ، بل أخذت تجسد الألوهية، وعبادة الأسلاف من جميع طبقات الأمة الصينية، فكانوا يقدمون الأضاحي والقرابين لتلك الآلهة، وقد ساد اعتقاد لهم بأن أمواتهم هم أحياء في أماكن غير تلك الأرض الذين يعيشون عليها ، وهم يقدمون لهم الطعام ويرسلون لهم الدعوات الصالحة لأرواحهم، وهذا ما كانت تعتقد به الديانة الكونفوشوسية.

وبعد وفاة كونفوشيوس ذاعت تعاليمه في كافة أنحاء الصين ومع أنه لم يعتبرها أكثر من منهج خلقي، أو أسلوب من أساليب الحياة، ولكنها استطاعت أن تقوم بالدور الذي يقوم به أي دين من الأديان لأن ما تناوله ذلك الحكيم من مسائل هامة في حياة الإنسان، استطاع أن يحقق العدالة، والمحبة، والمساواة لمجتمع الصين في تلك الفترة وما تؤكده مقولته (إن القدامى الذين أرادوا أن ينشروا أرقى الفضائل في أنحاء الإمبراطورية بدؤوا بتنظيم أسرهم، ولما أرادوا أن يهذبوا نفوسهم بدؤوا بتطهير قلوبهم، ولما أرادوا أن يطهروا قلوبهم عملوا أولا على أن يكونوا مخلصين في تفكيرهم، ولما أرادوا أن يكونوا مخلصين في تفكيرهم بدؤوا بتوسيع دائرة معارفهم إلى أبعد حد مستطاع، وهذا التوسع في المعارف لا يكون إلا بالبحث عن الحقيقة)[1].

1- قصة الديانات — ص: ٢١٢

وبعد أكثر من مائة عام ظهر من أتباع كونفوشيوس الحكيم (منشيس) الذي أطلع على كل تراث معلمه وتعاليمه، وبدأ يتفوه بالحكمة، وكان دائما يردد ويجيب أن معلمه كونفوشيوس كان قد سبقه في هذه التعاليم وقد سئل عن الفضائل فقال(أنها فعل الخير والرغبة في العمل لصالح الشعب، وألا تفعل للآخرين ما لا تحب أن يفعلوا لك، واللياقة هي أن تسلك مع الشعب الذي تحكمه سلوكا يتسم بالحياء والحكمة، وهي أن تسترشد بالمعرفة والفهم والإخلاص، وهي أن تكون مخلصا في كل ما تفعل لأنه بدون الإخلاص لا يمكن للعالم أن يبقى كما يقول الأستاذ كونفوشيوس)[١]

ولكن الصين مرت بظروف عصيبة بعد وفاة كونفوشيوس ب٢٠٠ عام فقد تولى (تشين)[٢] الإمبراطورية لأحد ولايات الصين فضم إليها كل الولايات الأخرى، و قد اقترح عليه بعض وزرائه المتملقين بجمع كل كتب العظماء، ومنها كتب كونفوشيوس من أجل إحراقها بسبب ما كان يلاقيه من انتقادات حول حكمه وخاصة أن تعاليم كونفوشيوس كانت تتعلق بهذا الشأن . وكانت هذه التعاليم مكتوبة على قش من الخيزران، فجمعوها ما عدا قسم منها قد أخفاها بعض العامة . وتم إحراقها وإعدام بعض العلماء والحكماء . فعم الفساد والفوضى والفقر والجهل بين صفوف المجتمع . وعندما مات والي الصين (تشين) الذي تنسب إليه هذه التسمية (الصين).

قام الناس بإخراج تعاليم كونفوشيوس التي أخفوها ليتمسكوا بها من جديد، ويطبقوها، وتصبح كتبا مقدسة في حياتهم، ولم يكن للشعب الصيني أن يضعه في مرتبة الإله كما كان يعبد بوذا، ولكن كتبه اكتسبت القداسة في حياتهم، وأقاموا الطقوس، والأعياد في ذكراه وتظهر مكانته من جديد أكثر مما كانت عليه من قبل، وتبقى ذكرى (تشين) أسوأ ذكرى تمر على الصينيين، وكلما تقدم بهم الزمن ازداد معتنقو المبادئ، وأعطوا لكونفوشيوس مكانة كبيرة، ولقب بأقدس القديسين، وأنبل أساتذة.

1- قصة الديانات — ص: ٢١٥

2- تشين: هو (شي هونج) كان ابنا غير شرعي للملكة في ولاية تشين. فإذا كان قد كتب له أن وحد ولايات الصين ولكنه قد أمر بإحراق كل الكتب المتعلقة بالعلوم والفلسفة وإعدام المئات من العلماء.

وأن من الممارسات التي شهدها أتباعه أنهم كانوا يعرّضون للموت هم ومن يولد لهم من الأطفال في أيام النحس (وكانت البنات المتوقدات حماسة وغيّرة يقتلن أنفسهن في بعض الأحيان ليجلبن الخير، أو الشر لآبائهن، فقد كانت نفوس الصينيين عامة وفي الجنوب خاصة تنزع إلى التصوف، وتشمئز من النزعة العقلية الجامدة التي تسود العقائد الكونفوشوسية)[1]

لم تكن هناك علاقات صدام بين الأديان رغم تنوعها في الصين، ولم تدفع البلاد إلى حالة الحروب الدينية، فكانت سمة التسامح على مستوى العقائد والأديان، فالصيني العادي من عبدة مظاهر الطبيعة، وتاوي، وبوذي وكنفوشوسي في وقت واحد، فقد كان هم ذلك الصيني أن يعيش بسعادة في الحياة الدنيا، وإن يقوم بمناسكه من أجل أن ينال النعيم الدنيوي، وليس النعيم في العالم الآخر، وبهذا نرى أن القسم الأعظم منهم لم ينخرطوا في الديانتين المسيحية والإسلامية، لأن مسألة الخلود لا تهمهم بقدر ما يهمهم أن يعيشوا حياة صالحة في حين أن بعض الديانات القديمة تنشد الخلود، ومنها البوذية.

1- قصة الحضارة – ج: ٤ – ص: ٢٦٠

الديانة التاوية

تدعو التاوية[1] إلى العمل الصالح كما يقول لاو- تسي:

(إن كثرة النواهي والمحرمات في المملكة تزيد فقر الأهلين وكلما زاد عدد الأدوات التي تضاعف من كسبهم زاد نظام الدولة والعشيرة اضطرابا وكلما زاد ما يجيده الناس من أعمال الختل والخرق زاد عدد ما يلجؤون إليه من حيل غريبة وكلما كثرت الشرائع والقوانين كثر اللصوص، وقطاع الطرق)[2]

إذا كانت أديان الصين، واليابان نظرت الى الطبيعة نظرة ساحرة يشعر بها الجمال، فإن أديان الهند قد بدأت من النظر في البشرية، وانطلقت من العالم الداخلي للإنسان . فكانت الطبيعة هي الحقيقة الجوهرية، أو بما يسمى بالكون في أديان الصين، واليابان في حين انبثقت الديانة التوحيدية عبر التأليف لمقطوعات الاوبنشاد لديانة الهند ، فالصينيون قد اعتقدوا أن

1- اختلفت المصادر والتسميات حول التاوية والداوية.

الداوية: تعني (طريقة التفكير) أو الامتناع عن التفكير وهي عقيدة (الداو) اسم الحكيم الذي عاش في زمن كونفوشيوس والسمة الغالبة لمعتنقي هذا الدين وهذه العقيدة أنهم يبنون مداخل بيوتهم على نحو متعرج إيمانا منهم بأن الأرواح الشريرة لا تستطيع أن تسلك الطرق المتعرجة فهي ترتطم على الجدار، وبشكل آخر كانوا يزرعون أمام بيوتهم الأشجار الكثيفة إيمانا منهم بأن الأرواح الشريرة لا تستطيع أن تخرج من هذه الأشجار، ومن لم يستطع أن يغرس فإنه يقوم برسم الأشجار على مداخل البيوت

التاوية: نسبة إلى الحكيم تاو وكانت أفكاره ومبادئه ترى أن هناك تنسيقا وتكاملا في الكون في وحدة مترابطة، وإن كل خروج على هذه المبادئ والوقوف أمام رغبات الناس يجعل الصراع قائما-

والداوية: نسبة إلى (داو- تي – كنج) أحد المفسرين لتعاليم لاو- تسي.

2- قصة الديانات – ص:٢٣٤

السماء تشبه القبة، وتدور فيها الأفلاك، وتعاقب الأيام، والفصول، والسنون، وعزو الكوارث الطبيعية الى الأرواح الشريرة التي تسبب لهم كل هذه المتاعب، وفي مثل هذه الظروف، والأوضاع تنشا الأساطير حول الآلهة (إن هناك حقب امتدت لأكثر من مليوني سنة حكمت مجموعات من البشر في هذه الحياة فقد ظهر الإنسان الأول وكان اسمه (كو) قبل ملايين السنين، وكان حجمه يفوق أكثر من أربعة أضعاف حجم الرجل العادي، وكان العالم في حالة فوضى، وحمل مطرقة وإزميلا لكي يفصل السماء عن الأرض، ودام هذا العمل لأكثر من ١٨ ألف سنة، وحفر الأودية على سطح الأرض، وأمكنة الشمس في السماء فوزع نفسه على الكون بعدما ازداد حجمه، وهو يعمل في خلق العالم وتوزعت بقاياه لتكوّن جبال الصين الخمسة، وأصبحت أنفاسه الريح، وغدا صوته الرعد، ولحمه الحقول، ولحيته النجوم، وعرقه المطر أما الحشرات الكثيرة التي كانت ملتصقة بجسده، فقد كانت البشر)

بعد بروز الأفكار الأولى لأي دين، أو أية عقيدة يظهر غلو لدى معتنقي هذه الأديان والزهد، والنسك حول طبيعة هذه المبادئ، والمعتقدات، وفي الفلسفة التاوية ظهر شخص متحمس كثيرا، واسمه تشانغ لينغ، فقد أسس حلقة سرية يدرس فيها التأملات وتم النظر إليه من قبل الآخرين، بأنه المعلم السماوي، ويتخذ لا وتسو مبدأ له في ذلك. وان تشانغ قد اكتشف شراب الخلود، وأنه صعد على قمة جبل عن ظهر نمر بعد إن أطال الله عمره بواسطة ذلك الشراب.

وقبل كونفوشيوس ظهرت في الفلسفة الصينية أقوال بان هناك قوتين إحداهما ذكرية وهي "اليانغ" والأنثوية "اليين" و "اليانغ " تتمثل في القوة، والفعل، والوضوح ،و"اليين" تتمثل في الأجزاء التي يشوبها الخمول، ومصيرها السقوط، ومع مرور الزمن ضعفت عبادة الأرض، وقويت عبادة السماء في عهد " شانغ " الأعلى، ومعنى " تي" الحاكم، أو الإمبراطور، فكان الناس يطلبون منه إرسال المطر ويسألون المنجمين إذا كان الإله " تو " راضيا عنهم، وان بعض الأرواح موجود فوق الجبال، والأنهار، فكانت تروج بينهم عبادة الجبال، والأنهار، وهي جزء من التاوية المتجسدة في الطبيعة، وانتهاء بالكون، فالأرواح الصالحة تسكن الطبيعة " الشمس، والنجوم، والنبات، والنار، والجبال . . . . . . ".

أما الأرواح الرديئة، فتسكن في الظلام، وهذا ما دعا الصينيين أن يضعوا ديكة خشبية على أبواب منازلهم لطرد الأرواح الشريرة، والرديئة، واتخذوا من زهرة الخوخ رمزا للخير لأنها تظهر في بداية فصل الربيع، وذلك خلاصا لهم من ظلمة الشتاء .

ومن خلال ما يتطرق إليه هذا الحكيم من مبدأ تناسق الكون وأن كل ما يمكن أن نحصل عليه من شرور هو نتيجة مخالفتنا لقوانين الطبيعة ويضيف لاو- تسي

(إن الطبيعة جعلت حياة الناس في الأيام السابقة بسيطة آمنة فكان العالم كله هنيئا سعيدا ثم حصل على المعرفة فعقدوا الحياة بالمخترعات وخسروا كل طهارتهم الذهنية والخلقية وانتقلوا من الحقول والمدن وشرعوا يؤلفون الكتب فنشأ من ذلك كل ما أصاب الناس من شقاء وجرت من أجل ذلك دموع الحكماء فالعاقل إذن هو من يبتعد عن هذا التعقيد الحضاري وهذا التيه المفسد الموهن، ويختفي بين أحضان الطبيعة بعيدا عن المدن والكتب، والموظفين، والمرتشين، والمصلحين والمخترعين فسرّ الحكمة كلها وسرّ الصناعة كلها هو الطاعة العمياء لقوانين الطبيعة ونبذ أساليب الخداع وأفانين العقل وقبول جميع أوامر الطبيعة الصادرة من الغرائز)[1]

حياة وتعاليم (لاو- تسي):

عاش لاو- تسي وكونفوشيوس في عصر واحد وكانت الصين في الفترة التي ظهر تعيش صراعا سياسيا واجتماعيا حتى ليبدو لنا أن كل هذه الصراعات لا بد أن تخرّج مفكرين، وعباقرة، وفلاسفة، ولأن تكون مصدرا للإلهام الفكري، وتنطوي فلسفة التاوية على تناسق الطبيعة والكون، وهذا ما ينساق في كل الأديان اللاحقة حول تلك المسألة، وإن أفعال الإنسان هي التي تؤدي به الى التعاسة، وما عليهم إلا أن ينظروا في عالم الكون، وتناسقه ليحققوا السعادة، وفي نظر التاويين أن الإنسان يرى بوجهة نظر خاطئة للكون الذي يضع فيه كل السعادة على العكس من الكونفوشيوسية التي ترى السعادة بأنها من

1- قصة الديانات –ص:٢٣٥

الفعل، والإرادة للإنسان، وأنه هو معيار الخير، والشر، وتؤكد التاوية بأن الإنسان يستطيع أن يعيش حياة مثلى عندما ينتظم مع الكون، وهذا تم من التاوية بالعمل من أجل الوصول الى تحسين مستوى الحياة.

❖ تندرج عقيدة الديانة التاوية ومبادئها أن الإنسان من خلال حياته في الطبيعة ومؤسس هذه الديانة هو (تاوتي كنبج) التي تعتمد على مبادئ وفلسفة "لا تسو"

ومن هذه المبادئ (يتحرك الناس بصفة عامة لتحقيق رغباتهم - ينتج عن محاولات الأفراد العديدة لإشباع رغباتهم التنافس، والصراع - لإقرار السلام، والتناسق بين الأفراد الذين يكافحون لإشباع رغباتهم فيتم التوصل الى معايير للاستقامة، والأخلاق، والإنسانية - من الواضح أن وضع المعايير الأخلاقية لا يحل المشكلات ذلك أن التنافس والصراع يبقيان على حالهما، والقواعد تنتهك، ويتم إقرار قواعد جديدة لحماية القواعد القديمة، ولكن القواعد القديمة، والجديدة تنتهك، وتظل الرغبات دونما إشباع بينما يتدعم الشر، واقتراف الخطأ - وبما أن التوصل الى معايير أخلاقية لا يحل المشكلة، فإن الحل يكمن في التخلي عن هذه المعايير - لأنه لا يمكن التخلي عن الأفعال الصادرة عن الرغبات، إلا عندما يتبنى الناس "الطريق السهل " للفعل – و"الطريق السهل " في الفعل يفترض مقدما التناغم مع الكون ،والتصرف للتاو الكوني الشامل - وينبغي أن يكون تنظم المجتمع، وحكم الناس وفقا للطريق الطبيعي السهل كما ينبغي أن يدعم الطريق الطبيعي في نفوس الناس)[1]

من خلال هذه المبادئ للحياة الإنسانية نرى التاوية تريد الخروج من حالة الصراع والتنافس الذي يسود البشرية للوصول الى حالة العدالة، التي بموجبها يتم الاندماج بالحالة الكونية، وتناسقها، ومن هنا نرى أن الإنسان يصبح مسيرا، وليس مخيرا، ولم تكن وظيفة الإنسان هذه، ولكن تريد التاوية التركيز على جانب دون الآخر، وفي جوانب أخرى كيف يريد الخروج من هذا، والإنسان الذي يملك قدرات هائلة، ووجود العقل الذي ميزه عن الكائنات الأخرى، وفي أدنى صورة للتاو بأنه أطلق هذه التعليمات التي جاءت بعد تفكير،

1- الفكر الشرقي القديم – سلسلة عالم المعرفة –الكويت- ص:٣٧٦

ومنطق . فلا يكون جزءا مستعملا في كل جانب، وملقى في جانب آخر، أو إلغاؤه بشكل كامل في حين تؤكد التاوية على أن الأخلاق لا تستطيع حل المشكلات من جذورها، ولقد كانت وظيفة التاو أساس التفاعل بين " الين و اليانج "المتعارضين مثل النور، والظلام البرد، والحر.........الخ........

وإذا كانا هذان المتعارضان كان (التاو) بينهما لصيغة التفاعل، وتدلل التاوية على أنها هي أصل الأشياء من حيث القدم، وبهذا يعتبر المصدر، وتذهب التاوية من خلال المبادئ إلى أنها المصدر الذي لا يمكن تسميته لأنها أصل الأشياء جميعا، ويتساوى وجود الشيء، وعدمه بالنسبة للمصدر لأنه في كل الأشياء، وهذا مذهب تصوفي نجده في ا لديانة الإسلامية وغيرها من الديانات عندما يتصفون بالنسك، والعبادة، والرهبنة، والصوفية لتلك المبادئ، ونصيحة لا تسو للحكام (هي أنهم ينبغي إن يحكموا في إطار أدنى حد ممكن وان يتمكنوا بالطريق الطبيعي، وان يتركوا الناس يمضون في طريقهم، وما ينبغي إن يضعه الحاكم في ذهنه هو إن حكم بلد كبير يشبه طهو سمكه صغيرة)[1]

وبهذا يدلل تاو على أنه يجب إرضاء الناس كافة، وعدم الوقوف في وجه رغباتهم، وواجباتهم الضرورية . لأن ذلك يسبب الحروب، والدمار، ويسقط ذلك على الطبيعة، أو بمعنى آخر يستقي من الطبيعة هذه المبادئ، فعندما يكون الجو باردا، فان عكس الأمور تجري، فلا بد من إن حالة الدفء ستبدأ بالقدوم لينتهي البرد إلى الانعدام، و يبدأ الدفء وصولا إلى حالة الحر، وكذلك في تعاقب الفصول.

فانه بالطريقة المماثلة ترى التاوية أن حالات الغرور هذه ستقود إلى الفضيحة، والذل وهذه أيضا عود إلى منهجية المادة، والروح التي جاءت بها الفلسفات فيما بعد التاوية.

كما انه يطرح مسالة الأضداد لعملية التكامل في هذه الحياة . بين الحياة، والموت، واليمين، واليسار، والأسفل، والأعلى، والخطأ، والصواب، والذات، والأخر فلا يمكن أن يوجد الشيء، ونقيضه بالنسبة للمفاهيم التي يسقطها على الأشياء، وعندما تفقدان كلاهما

1- المصدر السابق- ص:٣٨١

أي الضدان يعني ذلك حدوث التاو المتحدة بالكون في حين أن كلا الحالتين هما ضروريتان، ولان المعرفة الحقيقية مستحيلة.

ويتطرق شوا نج تسو أيضا من خلال تلك الرؤية إلى أن النظرة التي يسقطها كل منا تختلف من شخص لآخر، فهل ما يمكن إدراكه الآن هو ذات الإدراك من قليل، أو مده قصيرة تختلف بيننا، وبين الكائنات الأخرى بالنسبة للأشياء التي نراها، أو نتقابل معها. وتبقى النظرة الخاصة هي الفارق النسبي بين الشخص، والأخر وهل باستطاعتها تحديد الخطأ، والصواب، وهل هو خطا عندما نطلق على الأفعال إنها خطأ، فهل هذه النسبية وهل هذا الخطأ ملازم في الشيء ذاته أم انه من خلال إطلاقنا له، ومن رؤيتنا، ومن معرفتنا التي ستقودنا الى الاختلاف مع الآخرين بنظراتهم اتجاه هذا الأمر، أو ذاك، وهل سيكون هذا العمل مرفوضا، وفي زمان يختلف عنه وقت إطلاقنا للحكم هو ذات الصفة التي أطلقناها في الحالة الأولى، وكم ستختلف من شخص لآخر.

ويطرح سؤالا (ذلك إن المعرفة تعتمد على شيء يتعين إن يكون صحيحا، ولكن ما تعتمد عليه غير مؤكد، وقابل للتغيير، فكيف نعرف إن ما ادعوه بالطبيعة ليس في حقيقة الأمر إنسانا، وما ادعوه بالإنسان ليس في حقيقة الأمر طبيعة)[1]

ويقود شوا نج تسو نظرية الشك الى درجة معرفة الإنسان هو إنسان، أم انه طبيعة وان كانت في إطار معرفي معين في تجليات العالم الدنيوي.

وعندما يصبح بهذه المرتبة يلتقي لديه المتعالي، والدنيوي، وهذا جوهر التاو لأنه يرى في ذلك اتحادا في الكون الكلي (في حالة الحكيم تكون حياته من إبداع السماء، ويكون موته هو تحول الأشياء، وهو حالة السكون ويشترك مع "الين " في فضيلة واحدة، وفي الحركة يشترك مع "اليانج" في تدفق واحد)[2]

وتعتبر مجموعة من المقاطع الشعرية، التي زيدت فيما بعد بالتفاسير، والشروح وهي لا تبتعد كثيرا عن الديانة البوذية.

1- المصدر السابق- ص:٣٩٢.

2- المصدر السابق- ص:٣٩٤.

❖ ومن هذه الأقوال في مجالات الأخلاق، والتعبد ، والتنسك.

- الذين تدفعهم الشهوة يرون القشرة الخارجية للأشياء .
- الحاكم الحكيم يفرغ عقول الناس، ويملأ بطونهم يضعف طموحهم، ويقوي عظامهم، ويمارس التراخي، فلا يبقى ثمة مالا يسيطر عليه.
- توجد الفائدة في عدم الوجود .
- عندما تعرف ما هو الأبدي تعرف ما هو الصالح .
- إذا عرفت الصلاح، فلن تهلك حتى ولومت.
- الحكماء يأبون التطرف.
- إذا هلكت الفضيلة هلك الإنسان .
- كل الأشياء التي تحمل الشمس في أذرعها تحمل الظل على ظهورها .
- الكمال نقص.
- (السبيل) العظيم سهل الإتباع، ولكن الناس يهيمون في الدروب الفرعية.
- كلما ازداد المنع ازداد الفقر، وكلما ازدادت القوانين ازدادت الجرائم، وكلما ازدادت المهارات ازدادت الكماليات، وكلما ازدادت الأسلحة ازدادت الفوضى.
- الحكيم يرتدي الثوب الخشن، ولكنه يحمل في صدره جوهرة.
- عندما يسمن جباة الضرائب يجوع الشعب.
- أصلب الأشجار أكثرها تهيؤا للفأس.
- ينجز الحكيم عمله بغير منافسة على التاج.
- الكلمات الصادقة قد لا تكون لطيفة الجرس، والكلمات اللطيفة قد لا تكون صادقة.

التاو – مغلف بالأسرار الكونية، ويشوبه الغموض، وكيف يفعل التاو، فان الإنسان هو الذي يفعل الآثام بانحرافه عن التاو، التي تعبر عن اتساقها مع الكون، والطبيعة المتوافقة كليا وبنظام محكم ودقيق.

إن أتباع لاو- تسي قد جمعوا تعاليمه ولكنهم لم يفهموها مثلما أريد كاتبها وحكيمها وإنما فسّروها بما يبعث على الخلود للبحث عن جزيرة عجيبة وأن هناك نوعا من الحبوب يمكن لها أن تجعل المرء يعيش إلى الأبد (إكسير الحياة)

هذه التعاليم لم يتطرق إليها لاو- تسي

وكل هذه العقائد والديانات كانت تبحث عن الخلود . ولقد اعتنق الصينيون البوذية الكونفوشوسية والتاوية لأنها كانت متقاربة .

فلسفة التصوف في الديانة التاوية:

كلما كان الاتحاد الكلي العالم الخارجي المحيط بالإنسان . كان ذلك جوهر حالات التصوف في الديانة التاوية، وهذا ما يتسق مع فلسفة شوانج تسو الذي أكد على أن السعادة الحقيقية هي الاتحاد بالتاوية، والابتعاد عن الخصوصية الفردية، والتجربة الفردية لتحقيق السعادة الكلية، ويفترض إن هناك من ينطلق بعربة النظام العادي للكون، فماذا لديه ليعتمد عليه من هنا يقال إن الإنسان الكامل هو إنسان بلا ذات وإن الإنسان الروحي لا أنجاز له وإن الحكيم لا اسم له.

وإننا نرى أن هذه المقولة هي جوهر الفكر الصوفي في التاوية، وعند شوانج تسو في الصين

وتعود صوفية " شوا نج تسو " إلى الحجج التي وضعها من حيث النسبة في التمييز، فهي تختلف من شخص إلى آخر(وما من احد يعيش حياة أطول من طفل يموت في طفولته، ولكن " بينج – تسو " الذي عمر عدة مئات من السنين " مات قبل الأوان إنني والكون معا، وأنا وكل الأشياء شيء واحد)[1]

وان شوا نج تسو لم يحدد النسبة فقط من هذا الجانب، بل نراه يؤكد أن مسألة السرور والفرح والحزن مسألة نسبية، وكذلك يتطرق الى مسألة الخطأ والصواب التي تنطبق عليها النسبية وبالتالي مسألة القتل لا يمكن أن ينظر إليها على أنها مسألة خطأ، ولكن لابد من معرفة الظروف المحيطة بذلك، ولا يمكن الميل نحو الخطأ، والصواب بشكل حقيقي.

1- المصدر السابق- ص:٣٨٥.

وما يؤخذ على هذه النظرية أنها إذا كانت مسألة الخطأ والصواب نسبية بتلك الدرجة فكذلك مسألة المعرفة بالنسبة للخطأ، والصواب

لقد بدا الشعور قويا بأن البقاء يكون بعد الموت وذلك عندما استمدوا ذلك من خلال الروابط العائلية، التي تشمل أسلافهم، وأن أرواحهم تلاحقهم، وأن أفعالهم الخيرّة تسعدهم وتلاحقهم، وربما تعاقبهم على أفعالهم أيضا، واندرج ذلك حتى في بيوتهم حيث توجد ألواح مدوّن عليها أسماء الموتى من هذه العائلة، وحتى زيارة أضرحتهم، ووضع التقدمات فوق تلك الأضرحة، لا تزال حتى يومنا هذا مما يدل على اعتقادهم لوجود الحياة الآخرة، وقد درجت في الصين، وعند معتنقي هذه الديانة أنه عندما يتوفى أحد الأشراف كانت تدفن معه أواني ذهبية وحيوانات حية، وأحيانا أناس أحياء لمساعدته في الحياة الأخرى وتعتبر الكونفوشوسية، والتاوية من الديانات الكبرى في الصين.

وظهر آخر واسمه كوهنغ في القرن الرابع الميلادي، وتدور تعاليمه حول الأمور السحرية وبعض التعليمات حول التنفس، والحمية الغذائية، وبعض الطرائق للسيطرة على قوى الطبيعة، وأمضى زمنا ليس بالقليل من عمره على جبل لاختبار "عقار الخلود "

الشنتو[1]

ظهرت هذه الديانة في اليابان ولكن عقيدة الشنتو اشتقت من مقطعين مأخوذين من بين ما كان يعتقد في الصين وبخاصة الديانة الداوية (أن أهل الصين يؤمنون بالأرواح الشريرة والأرواح الخيرة تسمى (ش) وكانت تعاليم الفيلسوف القديم لاو- تسي تسمى (تاو) بمعنى الطريق وهكذا أصبحت (شن تاو) تعني باللغة الصينية (الطريق إلى الأرواح الخيّرة)[2]

ولم تكن ديانة الشنتو بعيدة عن المعتقدات الدينية التي سادت في تلك المنطقة، إلا في بعض الجوانب وإن كانت هي مزيجا من الديانات المتاخمة لها، أو التي جاءت وافدة عليها " كما أن للعقيدة صورتين الأولى تتجه إلى عبادة الحاكمين الأسلاف، وهم الآلهة الذين أسسوا الدولة، وأقاموا بناءها، والثانية تتجه بالعبادة إلى أسلاف القبيلة،

1- الشنتو: مجموعة المعتقدات الدينية الأصلية في اليابان والمعتقد الرئيس فيها هو الإيمان بالقوى الغامضة المسماة (بالكامي) والكامي تترجم (بإله) أو(الآلهة) وتشمل أيضا قوى خارقة في الطبيعة خيرة وشريرة وأصبحت لهذه القوى مكانة لسموها وللتوقير والاحترام. وهذه التسمية للعقيدة الدينية التي كانت سائدة في اليابان، وكان يطلق عليها اسم (كامي – نو – ميشي) وعرفت أكثر بالاسم الصيني (شنتو) وهذه التسمية مأخوذة من معتقدات الديانة الصينية للذين كانوا يؤمنون بالأرواح الشريرة والأرواح الخيّرة، فالأرواح الخيّرة تسمى (شن) وتعاليم الحكيم الصيني القديم (لاو- تسي) تسمى (تاو) بمعنى الطريق، وأصبحت (شن تاو) بالمعنى الصيني الطريق إلى الأرواح الخيّرة، وان الأرواح التي كانت تسري في كل شيء هي عقيدة أهل اليابان (قصة الديانات – سليمان مظهر – ص:٢٥١)

2- قصة الديانات – ص:٢٥١

وبهذا عبد اليابانيون أباطرتهم، وأنهم ليسوا كباقي البشر، هو كالجبل، أو الشمس، أو القمر فيجب أن يعبد"[1]

لقد وضع لهذه الديانة كتابان، وهما " الكوجيكي " و" النيهونجي "

وتروى قصة ورادة في الكتابين المقدسين من أنه كانت الآلهة تولد ذكرا وأنثى ثم تموت حتى حدث في النهاية في زمن كان يعيش فيه الجيل السابع من الآلهة، وقد أصدر شيوخ الآلهة أمّرهم إلى إلهين شابين هما (ايزاناجي) و (ايزانامي) بأن يخلقا الأرض، ويقيما عليها الحياة وتسرد القصة إلى أن يتزوج هذان الإلهان، وينجبا أربعة آلاف ومائتين وأربعة وعشرين ابنا هم مجموع جزر اليابان بكل ما فيها من جبال، وأنهار، وصخور، وحيوان، ونبات. وكما تقول الأسطورة تساقطت جميعها من الثقب الذي حدث في السماء، وتساءل الإلهان يوما لماذا لا يخلقان ابنا جديدا يكون سيدا لكل لهذه الأرض؟ ولم يكن هناك ما يمنع من التنفيذ. وولدت " ايزانا مي " أنثى هي (أما تيراسو) ربة الشمس، ومنحها (ايزاناجي) مملكة النهار، وكذلك أنجبا الابن (نسوكى يومي) إله القمر، ومنحها (ايزاناجي) مملكة الليل واستمر الأبوان ينجبان فجاء لهما (سوزانو) إله العواصف ثم (كاجوتشوتشي) إله النار. وتحكي القصة في الكتابين المقدسين من أنه بعد ذلك كيف كافح الأب ليحاول إنقاذ زوجته من العالم السفلي، ولكن كل جهوده ذهبت عبثا، فاضطر إلى الهرب من الجحيم عائدا إلى الأرض.

تعاليم الشنتو:

لقد امتدت تعاليم أديان الدول والشعوب المجاورة لليابان. ومن هذه الديانات الديانة البوذية التي كانت مدعاة تشاؤم لأنها تدعو الى الموت ولكنها تحولت الى ديانة واهية تبعث الغبطة والسعادة في النفوس والأعياد المرحة واتحدت الشنتو

1- قصة الحضارة – ج:٥ – ص:١٣.

بالبوذية ولهذا وضع ضريح متواضع في المعابد البوذية، وبدأت الديانات السماوية بالظهور وخاصة المسيحية لتبدأ حالة الشك فيما بين الشنتو والبوذية . فالبوذية ليست في صالح عقيدة أهل اليابان . وكذلك بين البوذية والمسيحية ويرى دعاة البوذية أن المسيحية هي مزيج من الأوهام، ولا يمكن للعقل تقبلها . وأخذ أحد أتباع كونفوشيوس يقول (إن كهنتكم يذهبون إلى أن هذه الحياة الدنيا فانية زائلة ثم تعملون أنتم على أن ينسى الناس علاقاتهم الاجتماعية، وبهذا تقتلون في الناس روح الواجب والعمل، والصواب ثم تقولون أن طريق الإنسان محفوف بالخطايا . فأهجر أباك وأمك وأبناءك ومولاك وابحث عن الخلاص ولكني أقول لكم أني قد تعمقت الدراسة فلم أجد قط للإنسان طريقا سوى ولائه لمولاه وطاعة الابن لأبيه)[1]

تصوّر اليابانيون أن هذا العالم صغير جدا، وإن ما يجري على الأرض أيضا يجري في السماء التي ظنّوا أنها قريبة جدا منهم وهناك سهم طويل قد أطلق يوما من الأيام ليثقب السماء، فنزلت الأشجار، والنبات، والأعشاب، وكل الكائنات الحية الموجودة على الأرض هي من ذلك الثقب، وساد اعتقاد أيضا بأن جسرا بين السماء والأرض يستطيع بوساطته الناس أن يعبروا إلى السماء، ولكن هذا الجسر انكسر ولم يصلّحه أحد .

وتحت هذه الأرض التي يعيشون عليها هناك عالم آخر ذو أرواح ليست لطيفة، و باب يستطيع الناس الدخول منه وأن زلزالا قويا أغلق المدخل . وكان اليابانيون يعبدون الطبيعة كالشمس، والقمر، والجبال، والأنهار، وغيرها من الموجودات، وأن لها أرواحا يمكنها أن تضرّهم، أو تنفعهم، ومع هذا فقد اتسمت هذه الديانة بالبساطة . واليابانيين يخافون الموتى، ويعبدونهم، ويقدّمون النفائس، والهدايا في القبور لاسترضائهم، وأبرز تلك الهدايا السيف إذا كان الميت رجلا، والمرآة إذا كانت امرأة،

1- قصة الديانات — ص: ٢٧١

وكانوا يؤدون الصلاة، ويقدمون الطعام الشهيّ الفاخر أمام صور هؤلاء الأسلاف في كل يوم . لقد عبد اليابانيون (الميكادو) وسلسلة أباطرتهم، والميكادو هو حفيد آلهة الشمس التي يؤمنون بأن واجبهم الديني الولاء لحاكمهم، وبهذا امتزجت ديانتهم بالوطنية والدين من حيث عبادتهم للطبيعة والحاكم، ودخلت البوذية والكونفوشيوسية إلى بلاد اليابان . ولم تكن البوذية الكونفوشوسية نفسها دائما . فقد تبدلت بعض تعاليمها، وعندما ظهر بوذا متقشفا ومتسولا، ولكنه وصل إلى اليابان أميرا يتقدمه جيش من المعبودات المتألقة ويسير خلفه جيش من المعبودات من ذكر وأنثى، مما جعل اليابانيون يدخلون في الدين الجديد، الذي أصبح مزيجا من هذه الأديان وظهر ما يعرف باسم (يوشيدو)[1] ومعناه (طريق الفرسان) وتتمثل تعاليهما بأن ينتحر الناس ويشقّوا بطونهم بأيديهم، ويخرجوا أمعاءهم، للوصول إلى درجة الشرف.

وقد تزامنت هذه العقيدة بالوقت الذي غاصت فيه اليابان بالحروب الدموية، فيما بينهم ليظهر المحاربون بصورة جلية، ويصبحوا محل إثارة للإعجاب، وأطلق على اسم هذه الفئة أيضا بـ (الساموراي)[2] وانتمى إلى هذه الفئة العلماء والسادة، وأرادوا جمع تراثهم ضمن قواعد تستند إلى تعاليم كونفوشيوس، وسميت هذه القواعد (البوشيدو) والصفات التي يتحلى بها، هي الشجاعة، والعدل، والإحسان، والأدب، والشرف، والإخلاص، وضبط النفس، والحكمة، وحب التعلم.

1- انظر قصة الحضارة – ج ٥ – ص: ٤٠.

2- الساموراي: هم حراس يحملون السيف فالقاعدة الرئيسية في المجتمع الاقطاعي الياباني هي أن كل رجل من السادة هو جندي والعكس صحيح، أي أن كل جندي هو كذلك من السادة فهنا يقع أكبر اختلاف بين اليابان وبين الصين المسالمة التي ظنت أن شرط الرجل من السادة هو أن يكون عالما لا يكون محاربا وأن حملة السيف يحبون قراءة القصص ليصوغوا حياهم مثلها وهم يزدرون العلم ويطلقون على العالم الأديب بالسكران الذي تفوح منه رائحة الكتب (قصة الحضارة – ج: ٥– ص: ٣٧)

لقد أخذ ت حياة الساموراي بالتقشف، والخشونة، والحياة، فلا يأكلون، إلا وجبة واحدة في اليوم، ويتناولون أي طعام يصادفهم مهما كانت حقارته ويكّبحون في أنفسهم كلّ ما يدل على انفعالاتهم.

كانت هذه الطقوس هي التزامهم بالطاعة لرؤسائهم، ويعتبر جزءا من تشريعاتهم، وتطورت هذه العقيدة (يوشيدو) إذ يجب على الفارس أن يقتل نفسه عندما يموت رئيسه لكي يخدمه، ويحميه في الحياة الآخرة، وكذلك ظهر لهذه العقيدة قانون (المهاراكيري) وهو الانتحار بإخراج الأمعاء بأن يفتح بطنه من اليسار إلى اليمين ومن ثم إلى الأسفل ليخرج أمعائه بواسطة سيف صغير يكون محمولا من قبله بشكل دائم أينما ذهب، وكذلك إذا لقي الواحد منهم إساءة من سيده، فيجب أن ينتحر بالطريقة السابقة أمام باب ذلك السّيد .

ومع تقدم الزمن أصاب هذه العقائد والقوانين بعض الانحرافات في اتجاهات أخرى.

القداسة في ديانة الشنتو:

(كم حدث أن لجأ الناس إلى التضحية البشرية بخاصة إذا أبى المطر الغزير أن يتوقف، أو أريد لجدار ،أو بناء كبير أن يثبت، ولا ينهار، وكم حدث أن دفن الأتباع مع سيّدهم الذي مات ليدافعوا عند أولى مراحل حياته الآخرة)[1]

اليابان هي بلاد الشمس المشرقة . تداخلت فيها مجموعة من العقائد والأديان . فمنهم من بقي على الشنتو وآخرون اعتنقوا البوذية . والكونفوشيوسية . والأجمل من ذلك ما جاء في تطوير كل من هذه الأديان والعقائد ليصبح فسيفساء من المعتقدات . فتعلموا من الشنتو حب الطبيعة ومن البوذية والكونفوشيوسية حب العلم . وازدادت براعتهم بالعلم بأنهم تعلموا كل شيء من الأمم الأخرى مما يلائم احتياجاتهم وتضفي عليهم حالة التطور والازدهار التي انتعشت فيها اليابان . فكانوا عشاق الطبيعة وفي عقيدة الشنتو التزموا في لباسهم .

1- قصة الديانات — سليمان مظهر — ص: ٢٥٢.

ومأكلهم . ومشربهم . وكيف يفكرون. وكانت الشنتو من أعز الديانات على قلوبهم . لأنها أقدم عقيدة آمنوا بها . وان الديانتين الأخريين أكثر عددا وكانت الكونفوشيوسية أكثر أثرا في نفوس اليابانيين.

إن السماء كانت مصدر وجودهم والشمس المشرقة التي دوّنوها في كتبهم المقدسة (أومي أوكورا) وما جاء فيها من تعاليم " التفت أنت........التفت إلى الأشياء القريبة.... التفت إلى وطنك الأرض ياصديقي وحاول أن تؤدي واجبك نحوها حتى تموت "

ومن المعروف إن الديانات الأخرى لم تبق بعيدة عن حدود اليابان فكانت البوذية والكونفوشيوسية ولم يكن يحفظ بقاءها إلا الإمبراطور وأن هذه العقيدة أيضا كانت متوافقة مع كلتا الديانتين (الكونفوشوسية والبوذية).

ولكي يكون الناس ملتزمين في هذه الديانة فلا بد أن يقوموا بالانتحار بشق بطونهم بأيديهم وإخراج أمعائهم وصولا إلى درجة الشرف والرفعة والكبرياء وعرفت هذه الطبقة باسم طبقة المحاربين أو الفرسان . الذين كانوا يبقرون بطونهم إذا تعرض الواحد منهم لاسائة من سيده . وبخاصة إذا كان من المحاربين فيقوم بالانتحار أمام باب سيده.

وانحرف هؤلاء الكهنة . وازدادوا في جمع الثروات والمال (وراح الكهنة يستغلون الناس فقالوا للعباد والمؤمنين أن الرجل في سن الأربعين يمكنه أن يشتري عددا آخر من السنين يضيفه إلى عمره ويدفع رسوما لأربعين معبد تدعو له بعمر جديد . والرجل في الخمسين من العمر يستطيع أن يشتري عشر سنوات جديدة . إذا دفع الرسوم لخمسين معبدا تطلب له من الآلهة طول العمر . وفي سن الستين يستطيع الإنسان أن يستأجر ستين معبدا لنفس السبب أما إذا مات خلال ذلك فلا يكون هذا إلا بسبب نقص في إيمانه بقدر السنوات التي كان يجب أن يعيشها ودفع من أجلها الرسوم)[1]

1- قصة الديانات — ص: ٢٧٠

ولم يحافظ هؤلاء على عقيدتهم كما يجب . فقد شابها نوع من الانحلال والتراجع عن تلك القيم التي صاغوها واعتنقوها لفترة طويلة . وهذا يؤكد ما نذكره . ففي فترة قريبة في التاريخ في عهد الإمبراطور "توكوجاوا" (١٤٥٤ م) "أصبح الكهنة يشربون الخمر إلى درجة الإسراف ويحيطون أنفسهم بالغانيات صراحة ويمارسون اللواط ويبيعون أحسن مناصب الدين لمن يدفع فيها أغلى ثمن"[1] .

1- قصة الحضارة – ج:٥ – ص:٧١.

الزرادشتية

تعتبر الديانة الزرداشتية[1] من الأديان القديمة في بلاد فارس ومنها أيضا المانوية[2]، والمزدكية[3] ولكن قل معتنقوها في وقتنا الحاضر، وهي من الديانات التوحيدية، وأن منشأ هذا الدين على يد حكيم فارس (سبيتا ما زرداشت)

حياة زرداشت:

ولد عام ٦٦٠ ق.م ومصادر أخرى تذكر أنه عاش قبل ذلك التاريخ أي في عام ٢٠٠٠ق.م ومن خلال المعرفة، والإطلاع على هذا الدين نرى تشابها واضحا بينه وبين

1- الزرادشتية: نسبة إلى زرداشت الذي ولد حوالي سنة ٦٦٠ قبل الميلاد وقد اعتنق زرداشت مبدأ التثنية في الوجود بين النور والظلام أو الخير و الشر وأن الصراع دائم في هذا العالم بين قوة الظلام وبين قوة النور وله كتاب (الافستا) وهو يقسم العالم الى قسمين الروحاني والجسماني واعتنق زرداشت عبادة النار ودعا إلى تقديسها فأصبحت عنوانا للمجوسية حتى دخول الإسلام الى بلاد فارس. (التصوف والتفلسف- ص:٤٧-٤٨).

2- المانوية: نسبة الى ما ني بن فاتك عاش في القرن الثالث الميلادي ونشأ في أذر بيجان ثم انتقل الى بابل حيث درس الديانات الفارسية القديمة وبخاصة عقيدة زرداشت وكتبه والمسيحية والغنوصية تمثلان مصدرا معرفيا هائلا للمانوية وقد تابع ماني زرداشت في القول في الثنائية في الوجود واتخذ بعض المانوية طريق الزهد ولباس التصوف يخفون به مذهبهم فكانوا يظهرون التقزز من ا لصيد ويرون ذلك من القسوة. (التصوف والتفلسف- ص:٤٨-٤٩).

3- المزدكية: نسبة الى مزدك الذي قتل سنة ٥٢٣ م ومن أبرز آرائه القول باشتراك الناس في المال والنساء فاتبعه خلق كثير وهذه من أهم الفرق الغنوصية الفارسية التي عرفت قبل الإسلام وعرفها العرب قبل جاهليتهم فدخلت الى نفوس العرب نتيجة من علاقات الجوار فقالوا بالثنوية وبهذا ظهرت الزندقة.((التصوف والتفلسف- ص: ٤٩).

الأديان التي جاءت بعده، ظهرت هذه الديانة في إيران وأن ما دونته الكتب قليل عما كان سائدا لذلك الدين من عقائد وقيم وأسس.

وتستند هذه الديانة على أن للعالم إلهين، ويطلق على إله الخير (أهورمازدا) ويعبر عن الحكمة السماوية، ويرمز إليه بالعناصر الثلاث (النار والتراب والهواء) وتتقدم مادة النار على هذه العناصر، فلها درجة عالية من القداسة في الديانة الزرداشتية مما أدى إلى الإطلاق على تلك الجماعة تسمية (عبدة النار) وأن هذه العناصر يجب ألا تدنس، وتؤكد فلسفة هذا الدين على أن الإله أهورمازدا سوف ينتصر على (أنكرامانيو) بفضل مجاهدة أهل الخير لكي تتحرر الدنيا من إله الشر.

وبهذا الشكل النظري يقال عن هذه الديانة أنها ثنائية، وتؤكد على أنها ديانة توحيدية وذلك عندما ينتصر إله الخير (أهورمازدا)على إله الشر (انكومانيو) بعد صراع طويل والفضل للمجاهدين من أجل الخير (والواقع أن زرداشت لم يخترع التوحيد بل ركز على العناصر التوحيدية لدى الآريين، وكان أهو رما زرداشت الإله الذي عبده الآريون في الهند وأعطوه أسم فارونا كما كانت عبارة أهورمازدا نفسها شائعة، وكلمة مازدا تعني الحكيم، أو المليء نورا فيما تعني كلمة آهور الإله أو الرب. وكانت بالنسبة الى الهنود والآريين تشير الى الشخصيات المتفوقة بين الآلهة).

وإن (الافستا) هي مدائح للرب ومسائل الخير والشر.

تعاليم زرداشت:

أول الخلق (خلق الإنسان الأول كيومرد) وأن أهرمان قد قتل الثور وكيومرد وبعد أربعين سنة كانت بذور كيومرد في الأرض فنتج عنها أول زوجين من بني آدم

كانت تسود ايران عادات وعقائد. بأن الأرض مقدسة. ولا يجوز تدنيسها وكذلك الماء والنار. فكانوا لا يحرقون جثث الأموات كما كانت تعتقد الهندوسية. وذلك إيمانا منهم بأن النار مقدسة وأن الإنسان عندما يموت لا يعود مقدسا فكانوا يضعون أمواتهم على أبراج لكي لا يلوثوا الأرض التي منها يأكلون وقالوا بتحريم حمل الجثث أو لمسها وإن هناك

طائفة معينة من الناس معنية بذلك . وكانت تدعى بالمجوس وهم لا يختلطوا بالناس من بلاد فارس . وينتمون الى جذور هندية.

وذات يوم قال زرداشت لزوجته (سأذهب بعيدا لأعيش ناسكا فترة من الوقت أفكر خلالها في الخير والشر . فربما تبينت مصدر العناء في العالم)[١]

لقد كان يبحث عن الحقيقة وعن مسألة الخير والشر وآلهتهما وكان يدعو الى ترك عبادة الأصنام وكانت هناك مساجلات بينه وبين الملك ومع كهنته وإن دعوته بأن هناك آلهة الخير (أهو مازدا) أو إله النور. و(أهرمان) آلهة الشر أو آلهة الظلمة إن آلهة الخير في الأعلى . أما آلهة الظلمات ففي الأسفل . وأول عهد يأخذه الزرداشتي على نفسه كما جاء في الافستا (لن أقدم على سلب أو نهب ولا تخريب ولا تدمير ولن آخذ بالثأر وأقرّ أني أعبد الإله الواحد أهورمازدا وأني أعتنق دين زرداشت وأقرّ أني سألتزم التفكير في الخير والكلام الطيب والعمل الصالح)[٢]

وجاء في الافستا المقدسة (سوف تبتهج نفوس الخيّرين في الحياة الثانية الخالدة كما سيتعذب الكاذبون الى الأبد)[٣]

جاء في الافستا (يبعث الموتى وتعود الحياة الى الأجسام وتتردد فيها الأنفاس ويخلو العالم المادي كله الى أبد الدهر من الشيخوخة والموت والفساد والانحلال)[٤]

وأن تعاليم زرداشت مبينة على أن هناك قيامتين القيامة الأولى عند الموت، أما الثانية فهي لإخضاع إمبراطورية الفرس التي أسسها كورش في عام ٥٢٨ ق.م في ولاية ميديا مسقط رأس زرداشت . وقد أعلن زرداشت النبوة، وأن هذه التعاليم قد استقاها من الإله اهورمازدا، ويتجنب الزرداشتيون الطيور، والحشرات التي تأكل اللحوم الميتة، أو الوسخة، وأن الضفادع، والأفاعي هي من خلق الشيطان.

1- قصة الديانات – ص: ٢٨٥

2- قصة الديانات – ص:٣١٢

3- المصدر السابق – ص:٣١٢

4- المصدر السابق – ص:٣١٣

إن هذه المبادئ قد تتطابق في بعض جانبها مع الأديان الأخرى التي تلتها من الرسالات السماوية ولكنها قد تختلف في الشكل (وقد تطرقت الى مسائل الحياة الأخرى الحياة الثانية للإنسان (فجعلوا الضمير الخلقي مقياس الثواب، والعقاب، ونشأت تفاصيل كثيرة حول فكرة المحاكمة الفردية، فقيل أن روح المبعث تجلس فوق رأسه ثلاثة أيام، وهي تفكر في أفعالها السابقة وتزن خيرها وشرها، وفي هذه الأثناء تحضر ملائكة الخير عند الروح إذا كانت صالحة، فيما تعذبها الشياطين، وتقودها نحو العقاب إذا كانت شريرة، وفي اليوم الرابع تشق الروح طريقها إلى جسر حيث تقف أمام ثلاثة ديّانين يحمل احدهم واسمه راشنو الميزان الذي توزن به أفكار الإنسان، وأقواله، وأفعاله، وبعد إصدار الحكم تعبر الروح ذلك الجسر حتى تبلغ حافته فإذا كانت خيرّه امتد الجسر فوق النهر لتكمل عبورها عليه، وإذا كانت شريرة خطت خطواتها الثلاث الأخيرة خطوة الفكر، وخطوة القول، وخطوة العمل قبل سقوطها في هوة الجحيم.

نلاحظ إن المسار في هذا السياق انه قد كتب بعد الفتح الإسلامي لان ذلك ما جاءت به الديانة الإسلامية وهذا عمل لاهوتي من قبل معتنقي هذه الديانة .

التصوف في الديانة الزرادشتية:

لم تكن الديانة الزرادشتية بعيدة عن الديانات الهندوسية التي عاشت في المنطقة قبل أربعة آلاف عام ولكن اختلاف الظروف المناخية والطبيعية بين الهند وإيران وسمت حياة الزرداشتيين بالخشونة من حيث العمل لأن ايران بلد أكثر برودة من الهند التي كانت تدين بالديانة الهندوسية . وهذا ما يفرض عليها طقوسا مختلفة تماما عن الهندوسية فضلا عن أن سكانها كانوا من الشعوب الهمجية بالإضافة إلى أنهم يدينون بعدة ديانات وآلهة . فاتجهوا نحو العمل . وتأمين المحاصيل على النقيض من الهندوسيين الذين سعوا نحو النرفانا أو السعادة المطلقة والكلية . التي يمكن الحصول عليها من خلال المجاهدة كغيرها من الديانات الأخرى . وهم يرفضون الصدقات التي كان الهنود يقبلونها في معتقدهم وديانتهم.

لقد انتقل الزرداشتيون من عبادة الأرواح إلى عبادة الشمس وعبادة الثور واعتبروا دمه شرابا ليسبغ عليهم نعمة الخلود. فكان الكهنة في داخل المعابد يتصورون أنهم يستطيعون أن يقنعوا الآلهة بأن تفعل مايريدون ومن هذا المجال دخل السحر والشعوذة في عباداتهم بالإضافة إلى أنهم اصطحبوا آلهتهم إلى المعارك أيمانا منهم بأن ذلك يحقق لهم النصر.

وكان لزرداشت حوارات مع أتباعه للإجابة عن كل الأسئلة المراد الاستفسار عنها وبعض الحوارات تدوم لأكثر من ثلاث ليال متواصلة ومن هذه الإجابات نذكر:

- السبيل إلى الإله الواحد هو الأفكار الطيبة والكلمات الطيبة والأعمال الطيبة.
- الأمر في غاية البساطة.. فالصدق صالح ...... والكذب باطل.
- الصدق يأتي أولا ولكن هناك أشياء أخرى كثيرة فالذي يسلك طريق الإله الواحد يجب أن يكون طاهرا في أفكاره وأعماله محسنا يساعد المحتاجين، يفلح الأرض وينبت الأشجار ويربي الماشية ويؤدي أعمالا نافعة أخرى ويكون رحيما بالحيوانات.

ومع كل هذا كان الشك يساور الكهنة الذين يجالسون زرداشت ويدعونه بالساحر للمنظومة الأخلاقية التي يبديها لهم وهذا ليس بجديد عندما يأتي داعية أو نبي مدع أو نبي مرسل تظهر عند الآخرين حالة الريبة والشك.

كان الزرداشتيون يقدسون النار والشمس وهي من الرموز الهامة في تلك الديانة ويعتبرونها شيئا طاهرا ومادة لطيفة ولذلك أضرموا النار في معابدهم ويجب أن لا تنطفئ مع المواد العطرية ويرتادون المعابد خمس مرات في اليوم لتقديم خشب الصندل لإبقاء النار مشتعلة ويؤدون العبادات وهم يتلون الابتهالات والطقوس الدينية ويدعون إلى التأمل والتفكر والعمل الصالح والكلام الطيب.

وللدخول في هذه العبادة على الزرداشتي أن يأخذ على نفسه عهدا كما جاء في الافستا المقدسة " لن أقدم على سلب أو نهب ولا تخريب أو تدمير، ولن آخذ بالثأر وأقر أني أعبد الإله الواحد اهورمازدا وأني أعتنق دين زرداشت وأقر أني سألتزم التفكير في الخير والكلام الطيب والعمل الصالح"[١]

1- المصدر السابق – ص: ٣١٢.

وعن العالم الآخر تتحدث الافستا " سوف تبتهج نفوس الخيرين في الحياة الثانية الخالدة كما سيتعذب الكاذبون إلى الأبد "

لقد اعتبرت الديانة الزرادشتية نقطة تحول كبير في الديانات الأخرى من حيث تعاليمها ومبادئها في طهارة الفكر والكلمة والعمل التي تعتبر جوهر كل ديانة تقوم على أسس صحيحة وأسس الإحسان إلى الآخرين والقيام بالأعمال النافعة ونشر التعليم فكانت بالإضافة إلى نشر تعاليم هذه الديانة تقوم بتعليم الصغار .

الباب الثاني

مدخل إلى التصوف في الأديان السماوية

- اليهودية
- المسيحية
- الإسلامية

مقدمة التصوف في الأديان السماوية

في الفصل السابق تطرقنا إلى الديانات والعقائد الوضعية التي سادت، وبقيت جذورها حية إلى تاريخه مع تناقص أعداد متدينيها، التي كانت عبارة عن منظومة تحدد علاقة الإنسان بالواقع وما يمكن أن يتكهن به أو يسبغ عليه نوعا من القداسة ويحدد شكل العبادة ونموذجها . فكثر الزاهدون . والمتعبدون . والكهنة بصور وأفعال شتى ممزوجة بالأساطير والخرافات وتقديس المخلوقات قبل نزول الرسالات السماوية.

فالأمر سيختلف كثيرا بالنسبة للديانات السماوية لأن هناك ما كان يبحث عنه ذلك الإنسان لقد جاءت لتوحيد الإجابات بأن هذه القوة العظمى والآلهة هي الله عز وجل وبدأت الرسالات السماوية تتنزل مع الرسل الذين أرسلهم عز وجل وتلقين هذه الرسائل بوساطة الملائكة، فلم يكن العقل وحده قادرا على صياغة الحقائق بالنسبة للإنسان والحياة واستكمال ذلك جاء بالشريعة، ولو لم يكن العقل، لما نزلت الشريعة على الإنسان بالإضافة إلى أن الإنسان هو السيد في هذه الحياة، وخليفة الله في الأرض بنص صريح في القرآن الكريم (إنيَّ جاعل في الأرض خليفة)[1] وفق ما جاء بهذه الديانات لتبدأ رحلة جديدة في الفكر والتصوف وتفرق معتنقو هذه الديانات السماوية فرقا، وطوائف، ومللا، ونحلا كل ينشد ضالته بناء على تباين العقول، والميول، والرغبات لتختص من هذه المجتمعات الدينية أتباع مما اتسموا بصفات روحية وخلقية، جعلتهم أكثر ميلا للعشق الإلهي، وقادتهم الشريعة بكل معانيها لأن يصبحوا أصحاب صفة وتصوف، ولما لهذه الكلمة من دلالات فسنبينها من خلال دراستنا.

1- سورة البقرة – آية: ٣٠.

إن الحقيقة التي بحث عنها الإنسان عبر التاريخ لا يقتصر على الجانب الديني . ولكن الجانب الديني هو الذي يعطي الإجابات الأكثر عمومية . ويصل إلى معرفة الحقائق الأخرى عبر هذه الحقيقة الكلية التي لا تتجزأ . وتعتبر الجوهر الواحد الذي يحرك كل شيء في هذا الكون . والمتكثر في موجودا ته . وهذا ما بدأ العقل البشري يكتشفه شيئا فشيئا . وكان أكثر رسوخا مع نزول الديانات السماوية.

إن أهل التصوف هم أرباب أحوال ليسوا أرباب أقوال، فالفلسفة تقود إلى الاحتكام لقوانين العقل (المنطق) بينما التصوف يقود إلى تصورات ما فوق قدرة العقل والعجز عن البوح والإفصاح عنه به في بعض الأحيان لما ينير قلبه ولهذا نرى كل متصوف يقوم برسم فلسفة خاصة به وهؤلاء هم أرباب الأحوال وأن المتفلسفة يستطيعون أن يصلوا إلى حقائق مؤطرة وإقناع الآخرين فيها ويهيم الفيلسوف في ميدان العقل ولكن التجربة الصوفية هي تجربة روحانية فردية وميدان المتصوف هو ميدان الإرادة والوجدان.

وفي كلا الديانتين السماويتين اليهودية والمسيحية كانت الكتب المقدسة تشير إلى مجيء الديانة الإسلامية التي تبشر بالخير والعدالة والمساواة، و برسالة محمد (ص) وبالقرآن الكريم الذي شرح وقصّ ما تناولته الديانتان السابقتان، فضلا عن أن هذا الدين هو خاتم الأديان، والنبي محمد (ص) هو خاتم الأنبياء والمرسلين، بالإضافة إلى ما جاءت به هذه الرسالة هو لسلالة آدم، وآدم من تراب، وقصة خروجه وزوجه من الجنة (فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين)[1] فنلاحظ أن الخطيئة الأولى التي اقترفها آدم بإغواءٍ من إبليس بعد رفضه السجود لآدم، وبهذا سارت الخطيئة التي يجب ألا يقترفها بنو آدم في هذه الحياة، ومع نزول إبليس الذي طُرد من رحمة الله (فأخْرجْ منها فإنك رجيم ❖وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين)[2] وأراد إبليس من ربه أن يُنظرهُ إلى يوم الدين، وأن يُمدَ له الحياة إلى يوم يبعثون،

1- سورة البقرة – آية: ٣٦.

2- سورة الحجر – آية: ٣٤- ٣٥.

فأجاب الله سؤاله (فإنك من المُنظرينَ إلى يوم الوقت المعلوم)[1] لهذا كانت التصوف والزهد خشيّة الوقوع بالآثام وارتكاب المعاصي والموبقات التي سيغوي إبليس بني آدم فيها، والله عز وجل قد كلف بني آدم بالعمل وهو شكل من أشكال العبادة ،ولكن إبليس قابل بالنكران عندما استُجيبَ لسؤاله. ولم يشكر لله فضله (فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم)[2]

وبدأت مسيرة البشرية، واتُخذت أشكالٌ من العبادات تباينت بين عبادة الأشخاص والأصنام والكواكب، وازداد الظلم وبعث الله أنبياء يهَدونَ سُبل السلام والرشاد إلى تلك الأمم والجماعات، وعندما يستكبرون على تلك الدعوات كان يعصف بهم العقاب، فأغرق قوم نوح. و أهلك قوم هود في اليمن إذ بعث لهم ريحا . فأصبحوا كأعجاز النخيل. وقوم عاد ، وقوم ثمود عندما كادوا للنبي صالح . فقد رموا بالحجارة ناقته، فإذا هم جاثمون . وصولا إلى النبي إبراهيم الذي عاش في بابل، وكانت مملوءة بالأصنام والعبادات الوثنية . وفيها حاكم اسمه نمرود الذي أدعى الألوهية وطغى، وتكبر، وتجبر وحصلت حوارات بينه وبين النبي إبراهيم وحجة إبراهيم كانت أقوى منه بما أمده الله من علم ومعرفة وحكمة، وقال للنمرود إذا كنت تدّعي الألوهية فالشمس في الكون تشرق من الشرق وتغرب في الغرب، وإن كنت إلهاً فعليك أن تأتي بها من الغرب إلى الشرق، فاغتاظ منه نمرود ولكن ابراهيم لم يأبه بما سيواجهه، وكان يرى القوم يذهبون إلى الأصنام في أيام الأعياد ليضعوا أمامهم الأطعمة ويروحون عنها ليتم تقديسها من قبل الآلهة، فراودت النبي إبراهيم فكرة . وكان حكيما لا تنقصه الحجة، فذهب إلى معابدهم في أيام عيدهم، وحطّم الأصنام جميعا ما عدا كبيرهم، ووضع الفأس بيده، وعندما عرفوا أن إبراهيم هو من حطمها جاؤوا به، فقال لهم: أن كبير الأصنام هو من قام بتحطيمها، فقالوا: هو لا يستطيع الحركة فقال لهم: فكيف تعبدونها وبهذا وضعهم في حيرة من أمرهم، ويجيبهم أيضا هل يسمعونكم......... هل يستجيبون لكم....... وهذا ما جاء في قوله تعالى (بل فَعَلهُ كبيرهم هذا فسألوهم إن كانوا

1- سورة الحجر – آية: ٣٧ – ٣٨.

2- سورة الأعراف – آية: ١٦.

ينطقون)[1] ويرد عليهم إبراهيم عليه السلام كيف تعبدون من لا ينفعكم، ولا يضركم، وما جاء في قوله عز وجل (أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئا ولا يضركم)[2] لقد ازدادت النقمة عليه من قبل قومه، وأرادوا التخلص منه بإحراقه بالنار بعد أن حطم أصنامهم، فجمعوا بكل ما في وسعهم من حطب، وأضرموا النار فيها حتى اشتد بأسها، واستوثقوا من رباطه والقوه فيها وهو راض وبنفس مؤمنه، ولم يحترق سوى وثاقه، وعندما خمدت النار خرج إبراهيم، ولم يصبه شيء، فازدادوا غضبا وخشية منه، فأرادت مشيئة الله أن يخرج من هذا المكان ويهاجر إلى مصر وفي حران رأى الناس كيف يعبدون النجوم والكواكب، وحاول أن يهديهم إلى عبادة الله الواحد، فلم يفلح وازداد القحط والجدب، وسافر إلى مصر ومعه زوجه سارة، وماشيته وأغنامه، وقد بلغ من العمر عتيا، فكانت سارة تريد لها ابنا يحفظ ذريتهما، وهي عاقر لا تنجب، فأقنعته بالدخول بجاريتها هاجر فخلف منها ابنه إسماعيل، وقد بعث المسرّة في نفس والده وعائلته، وظهرت الغيرة من سارة لهذا الولد، فأراد أن يخرج بهما إلى أقاصي الأرض وكانت إرادة الله أن يسير بهما إلى مكان البيت الحرام حاليا فهي صحراء لا يوجد فيها ماء ولا كلأ، فأشتد خوفها، فأفهمها بأنها مشيئة الله حتى حدت من روعها، فلا يوجد معها، إلا قليل من الطعام والماء، فنفد بعد مدة قصيرة وازداد خوفها من شدة الحر وأخذت تجوب المنطقة مرات عديدة حتى انفجر الماء من تحت قدم إسماعيل، وكانت ماء زمزم يرتوي منها الحجيج منذ ذلك الوقت حتى تاريخه وهذا ما سبب توافد القبائل العربية إلى تلك المنطقة وإن أُسرةُ إبراهيم التي وصلت إلى مصر و عبرت نهري دجلة والفرات سميت بالعبريين، وكان لإبراهيم ولد آخر من سارة هو اسحق وولده يعقوب اسم آخر له هو إسرائيل.

1- سورة الأنبياء – آية: ٦٣.

2- سورة الأنبياء – آية: ٦٦.

الديانة اليهودية

لمحة عن الدين اليهودي[1]:

عانى بنو إسرائيل من البطش والعنف والإذلال من فرعون الذي اكتشف أن بني إسرائيل كانوا يتآمرون عليه رغم الفقر الذي كانوا يعانون منه، وقد جمع فرعون الكهنة من حاشيته فنصَحوهُ بسن قانون بإغراق كل طفلٍ لكي لا يزداد عددهم ويؤدي ذلك لانصهارهم في المجتمع المصري، والأمر الثاني بأنه سيولد مولود في بني إسرائيل يَذهب مُلكك على يَدهُ، فثارت ثورته، فولد ابن لرجل (اسمه عمران) من بني إسرائيل واسمه موسى وأمه " يوكابد " وخافت عليه من الغرق بعد أن خبأته لمدة ثلاثة أشهر، وفكّرت بطريقة لكي ينجو منها، فوضعته في صندوق، وألقتهُ في نهر النيل وجاءت زوجة فرعون لتستحم في النهر، فعثرت على الطفل في صندوقه، فأعجبت به، فأخذته لعله لم يكن عبريا، وأقنعت زوجها بتربيته، وسارت أخت موسى تقصُ أثرهُ بعد أن أخبرتها أمها بهذه الخطة، فكبر موسى في قصر فرعون ثم أوحى الله له بالنبوة وأتاه العلم وعلمه الحكمة، فاتجهت أنظار المغلوبين والمستضعفين إلى موسى الذين أثقل كاهلهم عذاب فرعون وتسلطه، وعاهد موسى نفسه أن يكون لهؤلاء المظلومين نصيرا، ورأى رجلين قد اقتتلا واحد من بني قومه والأخر من قوم آل

1- (يهودي قسمين (يهوه) وتعني الرب و (ودي) وتعني الأصل السامي والاعتراف والإقرار و الجزاء ومنها أيضا // دية // عند العرب وهكذا تعني الكلمة (شكر الآلهة) أو الاعتراف بنعمته وقد اشتقت ليئة زوجة يعقوب هذا الاسم اسما لابنها الرابع من هذا المعنى حسب نص التكوين فأسمته (يهودا) واليه ينتسب اليهود باعتبارهم قبيلة من قبائل العبرانيين الاثنى عشرة)- الموسوعة اليهودية – المسيري- المجلد الأول – ص:١٠٢

فرعون، فَهمَّ موسى بضرب الفرعوني، فكانت فعلة ندم عليها موسى، واعتبرها من عمل الشيطان، واستغفر ربه.

فتآلب قوم الرجل الذي ضربه موسى، وأخبروه بأنهم مستعدين لقتل موسى، فجاء رجل من أقصى المدينة يسعى، وقال له يا موسى إن القوم يأتمرون بك ليقتلوك.

فخرج موسى إلى أرض مدين، وكانت مسيرة ثماني ليال وتزوج هناك من ابنة شيخ كهل أراد أن يكون له ظهيرا وعونا له، وأجيرا يرعى الغنم، ويقوم بنصرته، فكان موسى سعيدا بهذه الصحبة مع هذا الشيخ الجليل.

ولما تحركت في صدره جذوة الحنين إلى وطنه مصر، جمع متاعه مع زوجته، وودعا الشيخ وداعا حسنا، وفي طور سيناء تاه وضَلّ الطريق فحَارَ في أمرهِ فأبصرَ من الجهة التي تلي الطور نارا، فحط رحله، وزوجته، وأسرع إلى النار، وهذه كانت إيذانا بالنبوة فنودي {فلما أتاها نودي شطيء الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إنّي إنا الله رب العالمين}[1]

وظهرت معجزة العصا التي كانت في يد سيدنا موسى، وازداد الفساد في الأرض في مصر، وفي وادي النيل من قبل قوم فرعون، وسمع موسى دعوة الله وتهيأ لتلبية النداء، ودخل موسى وأخوه هارون ليقابل فرعون، ويريد تحرير شعبه العبرانيين من العبودية والاضطهاد وإطلاقهم لعبادة الله عز وجل، فسأله فرعون من الذي بعثك؟ أجاب موسى: الله رب العبريين يهوه، ومن معجزاته أيضا عندما خرج وأهله ومع الذين اعتنقوا بديانته وعَصَاهُ التي ضرب بها البحر للهروب من عذاب آل فرعون وعندما لحق بهم المعادون لهم، وقد عبروا ولكن البحر قد طبق على من لحق بهم

وقبل أن يموت موسى كان قد رسم لليهود طريقهم بالتعاليم والوصايا.

دخلت جيوش بابل أورشليم في عام ٥٨٧ قبل الميلاد، و أحرق الهيكل، وتمزقت مملكة يهودا، وتشرد أهلها، ومن نجا من القتل ذهب إلى البلاد المجاورة، وانصهروا في مجتمعاتهم

1- سورة القصص- آية: ٣٠.

الجديدة، وقسم آخر تم سبيهم إلى بابل للخاصة من الزعماء والسياسيين والقادة . والبابليين قد خصصوا لهم مستعمرات لإقامتهم، ولم يمض زمن طويل حتى انقطعوا عن ماضيهم، وتراثهم، وأصبحوا يعملون في مدن بابل كمواطنين أصليين، وبدأوا يدفعون الضرائب، وبذلك انصهروا في المجتمع البابلي، إلا قسم قليل منهم ظلوا يتوقون إلى ذلك التراث، والى بلادهم و عودتهم إلى أورشليم.

ومن بين هؤلاء المنفيين حوزقيال، وهو زعيم روحي أعد للكهنوت في بلاد المنفى وأخذ يفسر الأحداث بأنها من صنع الإله، وأن هذه الأحداث هي لتنقية هذا الشعب وعودته إلى صهيون.

وكان يقول على لسان يهوه (سأضع فيكم قلباً، وروحاً جديدين .... وأجعل فيكم شرائع تتبعونها)[1].

كما أضاف حوزقيال في مواضع كثيرة من تعاليمه عن الهيكل الجديد الذي سيكون بناؤه على يد الإسرائيليين، ومنذ تلك الفترة قد تم تحريف تاريخ بني إسرائيل، وكتابة الأسفار من جديد، التي ظهرت فيها النزعة العدوانية، والعقوبات لبني إسرائيل في حال تقاعسهم عن هذا العمل، وإعادة ذلك الماضي المزعوم وفق ما كتبوه ،وظهرت فيه نزعاتهم الفردية بدون أي استناد إلى أساس الدين اليهودي كرسالة سماوية، و التخريب واضح في منهجية هذه الأسفار المبتدعة، وبقية شعوب الإنسانية في تلك الفترة ظهر نظام تعبدي بإنشاء الكنيسة بدلاً عن الهيكل للاستماع إلى الخطب، والعظات يوم السبت، التي تعد بديلاً عن الهيكل، وهذه المؤسسة اعتبرت من المؤسسات المهمة، التي لا تزال حتى تاريخه تقدم المعونات، والمساعدات لليهود في العالم، وتؤدي خدمات جليلة لهم.

إن هذا الاندماج الجزئي في العالم في تلك الفترة قد أنساهم جزءاً كبيراً من تراثهم الديني، والثقافي، وجعلهم منصهرين في تلك البلاد التي يعيشون فيها، ولم يعد هناك شيء يميزهم عن تلك الشعوب سوى كلمة يهودي تعبيراً عن بلد يهودا في أورشليم.

1- الملل المعاصرة في الدين اليهودي — ص:٧.

فقد أجمعوا على صياغة القانون، ووضعوا فيه ما يشاءون من مبادئ، وعزوا سبب سبيهم إلى عدم تمسكهم بتراثهم الديني، وما يجب فعله هو التمسك بكتاب القانون الذي يحقق لهم آمالهم المنشودة بعودتهم إلى دينهم، و دولتهم المزعومة، وأهم ما يميزها السبت، والختان، وهذا القانون تطغى عليه صفة القدسية لما أودع فيه من مبادئ كالسبت الذي يقولون أن الملائكة كانت تؤديه، وأن إسرائيل هي فوق كل الشعوب . علماً أن ذلك لم يكن جديداً في حياة الدين اليهودي، ولكن الجديد فيه هو إضافاته، وبذلك هو خاضع للأهواء الشخصية، وبهذا أصبح اليهود كتابيين، والفارق الآخر بأن الكتاب المقدس استخرج من واقعهم . أما القانون الجديد ، فهم يستخرجون حياتهم منه.

وعن تطور الدين اليهودي في عصر المنفى، هناك ملاحظتان[١] :

١ ـ أن اليهود تبنوا نظرية الملائكة، والشياطين السائدة في الدين الفارسي واعتقادهم بأن الإله يهوه لم يعد دائم الوجود بينهم، فجاءت الملائكة تقوم بهذا الاتصال وتعمل كوسيط بين الإله، وشعبه المحبب.

٢ ـ نشأة الوعي الأخروي عند اليهود بعد المنفى، فكانوا يرون أن الموت خاتمة لكل شيء ، وأخذوا يتقبلون الفكرة الفارسية بالإيمان باليوم الآخر، وظلت هذه الأفكار في حيز البدعة حتى عهد المسيح.

من الملاحظ أيضا أن تمازج التراثين الشفوي،والإلهي،الذي لم يدوّن في كتاب حتى عزرا الذي بدأ بتدوينه، و أما التراث الإنساني فقد بقي ينتقل شفوياً من جيل لآخر، وما شابه من التفسيرات، والإضافات بفضل ذلك التناقل، من أهم الرجال (شماي وهيلل) قبل ميلاد المسيح بنحو / ٣٠/ سنة، وكان الأول شديد الحرص على القانون، أما الثاني فقد كان من المنفتحين، و الأول يمثل النزعة المادية، أما الثاني يعنى بالنزعة الروحية.

وأتباع شّماي كانوا قليلين، وكانوا متفوقين، وبشكل عام تميز أتباع الدين اليهودي بالنزعة المادية، وهذا ما نراه خلال العديد من المسائل في الدين اليهودي، وحتى تطرفهم،

1- الملل المعاصرة في الدين اليهودي –ص:١٥

ومغالاتهم في ذلك إلى حد تصوفهم الديني يشوبه نوع من التهافت بالحب الشرّه للمادة على حساب الروح.

وبعد تحطيم الهيكل للمرة الثانية في عام ٧٠ ميلادي من قبل الرومان قام يوحنا بن زكاي أحد أتباع هيلل بتأسيس مدرسة في يبنا خارج أورشليم، وأخذ يعلم تلامذته ما حفظه من تراث، وكرس جهده لتحفيظهم القانون، وسمي (بيت الدين) واعتبر مجلس الإفتاء والحكم (مجلس السنحدرين في أورشليم) واستمرت هذه المدرسة لمدة ٦٠ عاماً أنجزت فيه الكتاب المقدس، وأنشودة الأناشيد، وإن هذا الكتاب المقدس هو الكتاب الذي لا يشوبه زيادة، أو نقصان بعد اليوم، وبرز في هذه المدرسة الربان عقيبا، واتصف بقوة إدراكه، واستنباط الأحكام، فتزعم هذه المدرسة الذي انضم إلى باركوخيا بثورة ضد الحكم الروماني.

فبرز في هذه الثورة بأنه هو المخلص، وهو النجم الخارج من يعقوب، ووقع عقيبا تحت سطوة الحكم الروماني، فأعدموه تمزيقاً أمام مرأى العامة.

وزادت النقمة على مدرسة يبنا، وتعدوا إلى الدين اليهودي، وحرموا الختان، وإقامة السبت، وكل المظاهر. والطقوس الدينية اليهودية، وأصدروا قانوناً بموجبه يعتبر كل من درس القانون مجرماً يستحق الموت.

وفي عام ١٣٨م ألغى الإمبراطور الروماني قانون الاضطهاد بحق اليهود، وبهذا فقد انتقلت مدرسة يبنا إلى شمال فلسطين، وأصبحت العاصمة الدينية، وبزعامة مايير.

وظهرت أيضا مدرسة أخرى باسم القانون، وكان زعيمها الربان يهودا، وهو من تلاميذ مايير الذي أصدر التعاليم، والآراء في ست فصول سميت (البذور ـ الأعياد ـ النساء ـ الإضرار ـ المقدسات ـ التطهرات) وظلت التعاليم (المشنا) تنتقل من جيل إلى جيل بدون تدوين حتى عام ٣٩٠م حيث تم تدوينها وعرفت باسم التلمود الفلسطيني.

في المقابل ظهر في بابل ربانان هما (صموئيل أبو عريقا) فقد انتزعا الزعامة الدينية من فلسطين، وذلك لما تميزا به من دهاء، وذكاء شديدين من مايير ويهودا.

ومن خلال التعليمات، والتفسيرات، والتداخل بين ما تم وضعه في فلسطين، وما أضيف عليه في بابل إلى حد التناقضات مما حدا برابينا الثاني رئيس مدرسة سورا في بابل خلال الفترة (٤٧٤- ٤٩٩) م. أن عمل على تدوين هذه التعليمات، والتفاسير، وحتى القرن السادس، وسمي بالتلمود البابلي، ويتألف من (المشنا والجمارا).

ومن الملاحظ أن التلمود الفلسطيني، أو البابلي (حلقا وهجادا) هي التعاليم المنظمة لشؤون حياة اليهود، وكافة التفاسير، والقصص المتعلقة بهم مضافا إليها خبراتهم الذاتية.

نشأة التصوف عند اليهود:

أما كلمة الصوفية فلها داخل النسق الديني اليهودي دلالات خاصة فهذا النسق يتسم بوجود طبقة جيولوجية ذات طابع حلولي قوي تراكمت داخله ابتداء من العهد القديم مرورا بالشريعة الشفوية وقد انعكست هذه الحلولية من خلال أفكار مثل (الشعب المختار، وأمة الروح والأرض المقدسة)

ويمكن التمييز بين نمطين من التصوف: واحد يدور في نطاق توحيدي ويبتدئ في تدريبات صوفية يقوم بها المتصوف ليكبح جماح جسده تعبيرا عن حبه للإله ومحاولته التقرب منه وهو يعرف مسبقا أن التوحد معه مستحيل فالحلول الإلهي يتنافى مع الرؤية التوحيدية، ووحدة الوجود قمة الكفر أما النمط الثاني من التصوف فيدور في إطار حلولي وهدف المتصوف في البحث عن الصيغ التي يمكن من خلالها التوحد الخالق ثم التحكم في الإرادة الإلهية والمتصوف في الإطار الحلولي لا يكترث إلا بذاته فهو لا يهتم بإصلاح الدنيا بل يضع نفسه فوق الخير والشر وفوق كل القيم المعرفية والأخلاقية والتصوف اليهودي على وجه العموم من النمط الحلولي وهو ذو اتجاه غنوصي قوي، ويظهر ارتباط التلمود بالقبالا من خلال دراسة تاريخ التصوف اليهودي إذ تشكلت حلقات من أتباع "يوحنان بن زكاي" وهو من معلمي المشناه. وهو مؤسس حلقة (يفنه) التلمودية في القرنين الأول والثاني. وهذه الحلقات حاولت أن تغوص في أسرار الخالق. وطبيعة العرش الإلهي من خلال التدريبات الروحية الصارمة الوصول إلى مطالعة الحضور الإلهي والعرش الإلهي.(لقد صوروا التاريخ

تصويرا مسرحيا بما أدخلوه فيه من المعجزات ومن البشائر والنذور . وملأوا الهواء بالملائكة والشياطين . ومارسوا فنون السحر وتلاوة الرقى والتمائم وأخافوا أنفسهم وأبناءهم بالحديث عن الساحرات والأغوال، وأضاؤوا ظلمة النوم، وغموضه بما وصفوه من تفسير للأحلام وتبينوا في الكتابات القديمة أسرارا خفية باطنية)[١]

بقيت تعاليم التلمود البابلي، والمبني على التلمود الفلسطيني، والبابلي، وشروحاته هي التعاليم التي تمسك بها اليهود لفترة طويلة، ولم يضيفوا عليها شيئاً جديداً، فقد أخذوا يؤلفون حولها الكثير من الخرافات، وأعمال السحر، وتطلعهم إلى المسيح المنتظر، وهذه من مظاهر التصوف التي قد راجت رواجاً كبيراً في الأوساط اليهودية "القابالا" و"الشولحان أروخ"، ودخلت إليه من مذهب الغنوصية[٢]، وفي الإشراق والباطنية حيث رأى الكثير منهم في هذه المذاهب للتخلص من الاضطهاد المسيحي لهم، ومن التعصب الذي يبديه رجال الدين أمام القانون (إذ كانت نسبة اليهود الذين وجدوا السلوى في الإلهامات الصوفية إلى مجموعهم أكبر من هذه النسبة عند المسلمين أو المسيحيين، فما ذلك إلا لأن الدنيا قد كشرت عن نابها لليهود وأرغمتهم في سبيل الحياة إلى أن يخفوا الحقائق وراء ستار من نسيج الخيال والرغبة والبائسون السيئو الحظ هم وحدهم الذين لابد لهم أن يعتقدوا أن الله قد اصطفاهم لنفسه)[٣]

وقد أنجزت حركة التصوف أهم الكتب اليهودية كتاب الخلق (خلق العالم) ولم يوجد مدوناً إلا في القرن التاسع الميلادي، ونشر "موسى الليوني" كتاب الزهار (الإشراق) مدعياً

1- قصة الحضارة – ج:٤- ص:١٣٥

2- الغنوصية: كلمة يونانية تعني العرفان واصطلاحا التوصل بنوع من الكشف إلى المعارف العليا وتذوق تلك المعارف تذوقا مباشرا تلقى في النفس إلقاء فلا تستند على الاستدلال أو البرهنة العقلية وتعتبر من أقدم العقائد وهي مزيج بين الفلسفة الشرقية واليونانية والمسيحية ويكتنفها الغموض لا يعرف لها مصدر وتعتبر هي أول المذاهب التي قالت بالثنائية بين الله عز وجل والمادة ويذكرون على وجود إلهين إله للخير وإله الشر لقد سرت الغنوصية في فرق الباطنية وغلاة الشيعة والقرامطة وامتدت إلى العصر الحديث في فرق البابية والبهائية.(التفلسف والتصوف- ص:٤٧- ٤٨)

3- قصة الحضارة – ج:٤- ص:١٣٩

أن محتوياته من الحاخام " شمعون يوحاي" وإن أتباعه نسبوا الكتاب إلى النبي موسى، وإنه هو الإله الذي سيحاكم البشر يوم البعث، وقد عمل "يوسف كارو" في القرن السادس عشر دليلاً مختصراً لقوانين التلمود وأسماه "شولحان أروخ" لكل قواعد الحياة، وما تضمنه التلمود، وبشكل مختصر، فلا يقبل إي اجتهاد أو تفسير.

إن مثل هذه التعاليم المتعالية على المجتمعات الأخرى جعلتهم منبوذين داخل الشعوب التي يعيشون فيها، وبخاصة في المجتمعات المسيحية، والإسلامية مما فرض عليهم العزلة، وسميت المنطقة المعزولين فيها الجيتو.

وهذا التميز الذي يرغبون به من أجل أن لا ينخرطوا في الدين المسيحي، وبخاصة أن الشكل التعبدي لهم في الكنيسة كما هو عند المسيحيين، وللحفاظ على هذا التفريق من كلا الطرفين، ففي أسبانيا أصدر الملك مرسوماً ملكياً في مدينة طليطلة، وقرطبة بعد احتلالها من قبل المسيحيين (على جميع اليهود، والعرب في كل مدينة، وبلدة، وقرية، وناحية في المملكة... أن يجتمعوا ويسكنوا في مناطق مخصصة لهم، وأن لا يختلطوا مع المسيحيين، بل عليهم أن لا يجتمعوا معهم تحت سقف واحد)[١]

إن مثل هذا الانعزال جعل اليهود أكثر حقداً على الشعوب، وانتشارا للأفكار، والعيوب الاجتماعية داخل هذه المجتمعات، إذ يصب اليهودي كل جهده من أجل حفاظه على حياته بدون النظر إلى المسائل الأخلاقية، وهذا ما يجعله يلجأ إلى المجتمع الإسلامي حيث لا تفرقة عنصرية.

بالإضافة إلى أن العداء التاريخي بين اليهود، والمسيحية إذ ينظر المسيحيون إلى اليهود أنهم هم الذين عذبوا، وصلبوا المسيح بالإضافة نرى أن السلطة المسيحية حافظت على اليهود ليبينوا للعالم أن اليهود هم الشر الموجود في العالم، ولعدم تمكن اليهود من إدارة المؤسسات، والتملك بشكل تحريمي في البلدان العربية، مما عزا بهم إلى تجميع قواهم باتجاه الشرق، وبمساعدة الغرب الذي يريد التخلص من القسم الأعظم منهم.

1- الملل المعاصرة في الدين اليهودي — ص:٢٤

وبالمقابل إن هذا العزل لم يكن كله سلبياً فقد نجح اليهود في تضامنهم مع بعضهم البعض، وتعتبر علاقاتهم من أوثق العلاقات التي عرفها الإنسان بالإضافة إلى أن هذا الحصار حقق فيهم التشبث بالقانون.

يقول مونتسيكو : عالم الإنسان أقل انصياعاً للقوانين من عوالم الحيوان، والنبات والجماد بالرغم من أن لهذا العالم قوانينه الخاصة به، وهي قوانين غير قابلة للتبديل في حد ذاتها . ويرجع هذا إلى الإنسان كمخلوق، وذي طبيعة محددة، معرض للخطأ، وهذا بالرغم من أن الإنسان تلزمه طبيعة للحياة ككائن حر، ولهذا نجد الإنسان لا يمتثل دائماً للأدب ولقوانين عالمه بل ولا للقوانين التي يسّنها هو الذي ينظم سلوكه في العالم)[1]

إن هذه الأفكار، وإن عملية التنوير في أوروبا قد خلقت عدة تيارات في داخل الدين اليهودي منها الإصلاحي، والأرثوذكسي، والمحافظ . فالإصلاحية التي شملت في تفاصيل الدين كالصلاة، ودخول الموسيقى في أثناء الأناشيد، واقتصرت بعد أن كانت طويلة، وكذلك شمل الفكر الإصلاحي ما تعرض له العهد القديم من الكتاب المقدس للنقد، وتداول أقوال المتصوفة في العصور الوسطى من مجموعة القبالا .

وأن الكتاب المقدس ليس من صنع الله، إنما من صنع الإنسان، ولابد من أن يعاد النظر فيه، ولا شك في أنه قد حوى تراثا إنسانيا لدين من الأديان، وأخذت الصلوات يوم السبت يتخللها نوع من التجديد بدخول النساء إلى جانب الرجال مع إدخال الأورغن وغناء الأناشيد .

وما بين القديم، والحديث، وما بين الشرق، والغرب أيضاً، ظهرت مله أخرى تدعى الأرثوذكسية[2]، ففي الشرق ظهرت حركة تصوف باسم حاصيديم، وهي تهدف إلى إعادة

1- الملل المعاصرة في الدين اليهودي – ص:٣٤.

2- اليهودية الأرثوذكسية: تعتبر الأصولية اليهودية وهي فرقة دينية ظهرت في بداية القرن ١٩ م وهذا مصطلح مسيحي يعني " الاعتقاد الصحيح " وهو للإشارة لليهود المتمسكين بالشريعة وتزعم هذه الحركة الحاخام شمسون هيرش، ويعد الحصيديون من اليهود الأرثوذكس واليهود الأرثوذكس هاجروا مع المهاجرين من اليهود اليديشية في شرق أوربا وان فكرهم يعبر عن الحلولية اليهودية.(الموسوعة اليهودية – مجلد:٢- ص:١٥٢).

التقوى، وأشكال العبادة، ومبادئ الأخلاق اليهودية التي وصفوها في الكتاب المقدس، وجاءت مناهضة لحركة الميتناجديم، التي كانت تتمسك بالقانون، وإن كل ما هو جديد يجب أن يشمله القانون، ومن خلال الصراع بين النزعتين تغلبت النزعة الصوفية واتحدت هاتان النزعتان، وأصبح فيهما الدين اليهودي قوياً على النقيض من تمسك الغرب في حدود القانون بعيداً عن الجانب الإصلاحي فيه، وهذه النزعة، أو الحركة سميت بالأرثوذكسية، وإن كانت هذه التسمية أيضاً موجودة في الكنيسة المسيحية.

ومن بين هذه التعاليم في التلمود ندرج ما يلي:

- (لا تعملوا بالآخرين ما هو مكروه لكم، هذا هو الناموس برمته، وكل ما عداه شروح) التلمود.

وكذلك الوصايا العشر[1]:

١ـ أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية لا يكن لك آلهة أخرى أمامي.

٢ـ لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً، ولا صورة مما في السماء من فوق ،وما في الأرض من تحت، وما في الماء من تحت الأرض، لا تسجد لهن، ولا تعبدهن لأني أنا الرب إلهك إله غيور أفتقد ذنوب الآباء في الأبناء في الجيل الثالث، والرابع من مبغضيّ وأضع إحساناً إلى ألوف من محبيّ، وحافظي وصاياي.

٣ـ لا تنطق باسم الرب إلهك باطلا لأن الرب لا يبرئ من نطق اسمه باطلاً.

٤ـ اذكر يوم السبت لتقدسه، ستة أيام تعمل، وتصنع جميع عملك، وأما اليوم السابع ففيه سبت للرب إلهك لا تصنع عملاً ما أنت ،وأبنك ،وابنتك، وعبدك، وأمتك ،وبهيمتك ونزيلك الذي داخل أبوابك لأنه في ستة أيام صنع الرب السماء، والأرض، والبحر، وكل ما فيها، واستراح في اليوم السابع لذلك بارك الرب يوم السبت، وقدسه.

٥ـ أكرم أباك، وأمك لكي تطول أيامك على الأرض التي يعطيك الرب إلهك.

٦ـ لا تقتل.

٧ـ لا تزن.

1- حكمة الأديان الحية — ص: ١٥٧

٨ ـ لا تسرق.

٩ـ لا تشهد على قريبك شهادة زور.

١٠ـ لا تشته بيت قريبك (لا تشته امرأة قريبك ولا عبده، ولا أمته، ولا ثوره، ولا حماره، ولا شيئاً من مال قريبك)

إن أعضاء الجماعة اليهودية يعملون في التجارة والربا والأمور المالية بسبب طبيعتهم ويعيشون في عزلة ويرفضون الاندماج للسبب نفسه وهو واقع لا يخضع لقانون عام لا ينضوي تحت نمط متكرر واحد.

ويتسم اليهود (بحب العزلة عن الآخرين وعدم الولاء للدولة والانحلال الجنسي ويعملون بالتجارة ومصدر أخلاقياتهم حسب الرؤية من الكتب المقدسة كالعهد القديم بإضافة إلى بروتوكولات حكماء صهيون وهذه الكتب تعبر عن طبيعتهم وجوهرهم وهذا النموذج التفسيري متهافت تماما فسلوك اليهود يختلف باختلاف الزمان والمكان وبهذا يكون الحديث عنهم بأنهم أعضاء جماعات يهودية ليس بصفتهم أعضاء شعب يهودي)[١]

فالصراع الحقيقي بينهم ناجم عن عدم التوافق واختلاف في الهوية والجنس والتاريخ لهذه الجماعات، وليس باختلاف المصالح، ولكن الوحدة فيما بينهم مبنية على المصالح المادية، وعندما يشعر اليهود بالقوة من قبل الآخرين يعملون على سياسة الاندماج في تلك الشعوب مع عدم إغفال نزعاتهم وبكل السبل تظهر وتبدو واضحة في المجتمعات الغربية داخل "الجيتو" ونرى الاختلاف واضحا بين اليهود والأغيار مما دعا حتى القباليين للقول بأن اليهود قد خلقوا من طينة والأغيار من طينة مختلفة عن طينة البشر، وأن الأغيار خلقوا بقوام الإنسان ليتمكنوا من خدمة اليهودي وبهذا تفرض عليهم الظروف عبر التاريخ أن يكونوا " متخفين"[٢] وهم يعتنقون ديانات أخرى وفق الظروف السياسية والاجتماعية.

1- الموسوعة اليهودية – المسيري- المجلد الأول – ص:٣٧

2- (اليهود المتخفون هم اليهود الذين يتظاهرون باعتناق دين آخر غير اليهودية بسبب الظروف المختلفة ويظلون على دينهم وهذه الظاهرة لم تظهر إلا في التشكيل الحضاري الإسلامي بسبب اختلاط اليهود السفارد بالمسلمين وأخذهم عنها مبدأ التقية أي إظهار غير الحقيقة حفاظا على الحياة وذلك بخلاف اليهود الإشكناز الذين فضلوا الاستشهاد تقديسا لعقيدتهم على الارتداد ويشار إلى اليهود المتخفين باسم " أنوسيم " وهي كلمة عبرية تعني المكرهين (الموسوعة اليهودية – المسيري – المجلد الأول – ص:٨٦)

"وقد ورد في العهد القديم إن تحريم الزواج مرده أن اليهودي قد يعتبر آلهة آخرين وأن زواج اليهودي من غير اليهودية يعتبر زنى "[1]

واليهودية تحرم الزواج بين اليهودية وغير اليهود . وهي في هذا لا تختلف عن كثير من الأديان . ولكن هذا الخطر في شكله التطرف يعبر عن الطبقة الحلولية الكمونية التي تفصل الشعب المقدس عن الآخرين الذين لا يتمتعون بالقداسة نفسها . وأن أنبياء اليهود وزعماؤهم كانوا يتزوجون غير اليهوديات.

(كلمة يهود على إطلاقها تثير إشكاليات كثيرة لأنها تخلط بين جماعات بشرية شديدة التباين من حيث الأصل والميراث الحضاري . والمذاهب الدينية . ويرجع هذا الخلط الى التراث الإنجيلي الذي يتحدث عن اليهود باعتبارهم كلا متماسكا . أو بوصفهم الشعب اليهودي)[2]

التلمودية

إن الشرّاح من اليهود ، والمفسرين من العلماء ، والفقهاء ، وأتباع هذا المذهب من باطنية اليهود ، أو القباليين، ينظرون الى التلمود على أنه أعلى مرتبة من التوراة.

التوراة هي الكتاب ذو خمسة الأسفار التي نسبت الى النبي موسى

السفر الأول هو سفر التكوين لأنه يتحدث عن تكوين العالم، ونشأة أمة إبراهيم

السفر الثاني : سفر الخروج لأنه يتحدث عن خروج بني إسرائيل من مصر .

السفر الثالث : سفر الأحبار ، أو اللاويين، وهو من طقوس الكهنة.

السفر الرابع : سفر العدد ، ويتضمن إحصائية لبني إسرائيل.

السفر الخامس : سفر التثنية، والاشتراع ، وهي تتمة لشريعة موسى، وهذه الأسفار هي العهد القديم، ولكن بعد الإضافة التي أصبحت سبعة وثلاثين سفرا ، واختصرت الى اثنان وعشرون سفرا بعدد أحرف اللغة العبرية.

1- الموسوعة اليهودية- المسيري – المجلد الأول – ص:٦٥.

2- المصدر السابق.

(هي: التكوين – الخروج– اللاويين – العدد – التثنية – يشوع – القضاة– راعوث – صموئيل الأول – صموئيل الثاني – الملوك الثاني – أخبار الأيام الثاني – عزرا – نحميا– أستير– أيوب – المزامير– الأمثال – الجامعة – نشيد الأناشيد – أشعيا – أرميا – مراثي أرميا – حزقيال– دانيال – هوشع – يوئيل – عاموس– عوبديا– يونان – ميخا – ناحوم – حبقوق – صفنيا – حجي – زكريا – ملاخي)[1]

والاختلافات بين نصوص التوراة هو القول بتمازج عدة تقاليد، فالأسفار الأربعة الأولى منها ثلاثة مصادر رئيسية هي التقليد اليهودي، ومصدره كما يسود الاعتقاد عند أسباط الجنوب، وقد سميّ كذلك لأن الله يحمل اسم يهوه، ويحمل فيه اسم الله ألهيم، وأخيرا التقليد الكهنوتي الذي يتناول التاريخ المقدس، والنصوص التشريعية من ناحية العبادة، والكهنوت بينما يشكل السفر الأخير تقليدا رابعا هو التقليد الاشتراعي، وهو موجز يربط تعديلات الشريعة التي حصلت في أرض كنعان منذ عهد يشوع بن نون حتى أيام ملوك إسرائيل الآخرين.

الحصيدية:

الحصيدية أي التقوى. وهي مذهب باطني، ومشتقه من الحصيد في العربية، وهو ما تبقى من الزرع الذي لا يطاله المنجل، والحصيديون هم البقية الصالحة من اليهود التي لم تشبها الديانات الأخرى.

وفرقة الحصيدية كانت تسمى فرقة الفريسيين، والفريسيون (الفرسان) أي المحاربون، وهناك رأي آخر يقول بأن الفريسيين هم المحاربون، لأن الحصيديين هم المتصوفة، أو التقاة، وهم المجاهدون في سبيل الله، وربما تجتمع التسميات لتؤلف مفهوم الجهادية، وأهل السلوك في التصوف، ولم يسر على هذه المنهجية الذين انتهجوا هذا المبدأ، وبخاصة في العصور

1- فلاسفة ومتصوفة اليهودية – ص: ٩٢.

الحديثة من القرن الثامن عشرا لميلادي، فلم يكونوا محاربين على طريقة الأولين بكل المعايير، ويرأس هذا المذهب بعل شمطوب (لم يكن محاربا، وإنما استخدم الطب على طريقة المشعوذين مدعيا علمه بأسرار الاسم الأعظم في حين سبق وعلمّ الفتيان دراسة التوراة، ولكنه واظب على دراسة فلسفة القبول اليهودية، وأصبح أتباعه عشرة آلاف، وعلى رأسهم يعقوب بن يوسف)[1] ولكن شمطوب دعا الى أن العالم فيض من فيوض الله، هو موجود في كل المخلوقات، ففي القدم كان الله، ثم انسحب على نفسه، وحجب بعض أنواره، ويذكر أيضا في الفلسفة الصوفية، بأن الله في كل شيء حتى فيها يصدر عن الإنسان من أفعال، و سلوك . وشمطوب يراها من وجهة نظرة في الحياة المثالية أمام هذه الحقائق . بأن يصعب على الإنسان تغيير الكون، أو فيما يبديه من أراء هو معرفة الله، وصفاته، وأسماؤه، والتواصل مع الذكر، ومشاهدة الحق من القلب، و لن يعمر قلب الإنسان إلا أنوار الله، ولا ينقشع الحزن إلا بنور الله، والحزن يأس، ومن يدخل قلب الإنسان، ولكن لا ييأس من رحمة الله، وهذا ما يجب إن يفعله أصحاب الخطايا .

إن طريقة شمطوب يلخصها بعبارة "النهوض من اجل الصعود " وهذا يقضي بأن الشر لا سبيل لمنازلته إلا بالمواجهة، وفي عقر داره، وبأسلحته، وعلى الحصيدي إن يشتهي كل شيء بما في ذلك المرأة، والطعام، و الشراب لأنه من خلال النشوة تتحقق بالجسد، وفي كل شيء مادي، والممارسات الجسدية عبادة لله بالجسد و تهيء للمراقبة اللاحقة، وهي عبادته بالروح، ولكن الطريق الروحي يحتاج لمساعدة الولي، أو الصديق)[2]

الصديقية:

الصديفية في الحصيدية تسبق النبي . ذلك لأن النبي لم تكن له النبوة، ولكن الصديق أراد الصديقية، وبلغها بلطف من الله، وواضح أنها فلسفة ينقلها الحصيديون عن متصوفة المسلمين غير أن الصدّيق عند المسلمين يأتي في المرتبة بعد النبي، ولكنه في الحصيدية

1- فلاسفة ومتصوفة اليهودية — ص: ١٠٨.

2- المصدر السابق:ص.١٠٩

يسبق النبي ذلك لأن النبي لم تكن له إرادة النبوة، ولكن الصديق أراد الصديقية، وبلغها بلطف من الله، وواضح أن فلسفة الصديقية تحريف لنفس الفلسفة عند البعض من المتصوفة المسلمين بل إنا لنجد البعض قد انحرف بها انحرافا مشابها، وقال بأقوال مماثلة، وجعل الولاية أرفع مرتبة من النبوة، و في ذلك ضربوا المثل بالخضر الوليّ، وموسى النبي عليه السلام)[1].

إلا إن ما نلاحظه من خلال استعراضنا لجوانب التصوف في الحصيدية قولها بالحضرة الإلهية والصديق، أو الولي دائما في الحضرة، فعلى المؤمنين أن يعملوا بالذكر الدائم، ويعزوا ذلك إلى أن الله كان مع شعب إسرائيل عندما كان في أرضه، و عندما نفي بنو إسرائيل نفي الله . فأصبح الشعب والإله غرباء عن بعضهما بعضا، و عند عودة هذا الشعب الى أرضه، يعود الله إلى شعبه، و بذلك يصبح كلام الإسرائيلي مقدسا لأن الله حلّ فيه بعد العودة، و في العصر الحالي يرى بعض الفلاسفة، والمتصوفة إن مذهب الحصيدية يروِّج عندما تتأزم أوضاع اليهود، وهو الهروب الى الدافع التاريخي، وأصبح عدد معتنقيها كبيرا يضاهي اليهودية ذاتها . إلا أن اللافت للنظر أن عالم النفس " فرويد[2]" هو من أتباع الحصيدية وقد

1- المصدر السابق:ص١٠٩.

2- سيغموند فرويد: يهودي نمساوي – صاغ نظرية علم النفس على أساس الجنس وحاول تأسيس أخلاق متحررة ودين دنيوي هو في جوهره الدين اليهودي فمفهومه عن التسامح يقوم على فكرة أن الصفوة من الناس مقابل العامة تستطيع عن طرق الرغبات الغريزية وعن طريق حرمان الذات أن توفر رأس المال النفسي من أجل تحقيق الانجازات الثقافية فإن الثقافة أيضا هي نتاج الكفء الغريزي وهي نظرية يهودية متطرفة ونظرية مادية تعلمها من التوراة مثلما تعلم أن الإنسان هو حيوان عدواني وهذه السمة تفضي الى سمة أخرى هي نزعة التنافس من خلال عدوانية الإنسان الأولية وأن الامتيازات والعلاقات الجنسية التي يجب أن تثير أقوى الضغائن وأشد العداوات بين الرجال والنساء ولهذا يحتاج الرجال الى النساء لإشباع الرغبات ولإرضاء الليبيدو ويشكل اهتمامهم بعضهم بعضا وبالتالي يترع فرويد الى دكتاتورية الصفوة في علم النفس فهي التي تدبر وتوجه أمور الجماهير الكسالى ويسميها البعض (حركة التحرير النفسي) وهي حركة شبه سياسية.(موسوعة فلاسفة ومتصوفة اليهودية)

تأثر بهذا المبدأ وعلى هذا الأساس صاغ نظرية علم النفس التي ركز فيها على إشباع الرغبات والليبيدو وحالات النزاع القائم بين البشر.

الربانيون:

هم اكبر فرق اليهود، والربان هو الحبر، وهو الحاخام، وكتاب الربانيون هو التلمود، وهو الشريعة غير المنزّلة المكملة لشريعة موسى المحفوظة في التوراة، والمغالين في الربانية يرون أن التلمود أعلى منزلة من التوراة، وأن الله نفسه يستشير الربانين إذا حزبه أمر، وفي إحدى المرات اشتد الخلاف بين الله، وأحد الربانيين، وارتضى الله بحكم أحد الربّانيين، فقضى بتخطئة الله عز وجلّ الذي لم يسعه إلا الإقرار بصواب الربانيين، وتعمل فرقة مناقضة لهم هم القرأون، فهي تهاجم التلمود، و تهدمه، وتكفر الآخذين به، ولا تقر إلا بالتوراة مرجعا وحيدا للعقيدة، والشريعة.

إن تعصب الربانيين الى الروح التي تسود التوراة، التي آلهتهم كتابة التلمود، ومنها تفرعت كتب الزهار، و فلسفة القبالة، و الحصيدية وانتهت بالصهيونية.

وبدعوتهم إن الفكر الصهيوني هو فكر رباني، وما جاء في التلمود، و بأن من لم يهاجر إلى أرض الميعاد كمن لا إله له، وتسوده الأخلاق المزدوجة، وبهذه المغايرة اعتزل اليهودي الناس، وسكن الجيتو، ونبذته المجتمعات، وسيطر عليه الحقد المكبوت، فتحين لحظة الانتقام. وان يبلغ مملكة الله، واليهود شعب مقدس، ويعيش الأبدية، أما الأمم الأخرى، فتعيش في التاريخ وان اليهود قد عرفوا هذه التجليات مع الله قبل المسيحية، فلا يمكن لليهودي يتحول الى مسيحي، و لا المسيحي الى يهودي.

مذهب ومتصوفة القبالة:

هو اتجاه صوفي لكل معتنقة في الديانة اليهودية، ويعتمدون التلمود معتبرين أنه أقدس من التوراة، وهم السلفيون، وتقوم على التسليم لله، والأمل في أن يحظى أداؤها بالقبول لدى الله، وتأويلا تهم تشكل مذهبا باطنيا، وهي طريقة يهودية في التصوف، لأنهم

يرون خلاص الفرد ، والغاية هي معرفة الله ، وتعتبر التراث الشفوي وهي السنة (لهالاخاه) والتراث والمأثورات (الهالاجاده) مع ما تم وضعه في كتاب الزهار ، أو سفر "يا تسيرا" رغم أنه تم وضعها في القرنين السابع ، والثالث عشر ، ومؤرخو اليهودية يحاولون نسب هذه الكتب الى فترة ما قبل الإسلام للتدليل على قدمها حتى قبل الإسلام ، وحتى لا يؤخذ عليهم بأن مثل هذه الأفكار قد تم استقاؤها من الإسلام من خلال تشابه الطريقة للغنوصية.

(وكان للقبالة أثر شامل واسع المدى . وظل الزوهر لوقت ما كتابا يدرسه اليهود كدراستهم للتلمود بل إن بعض القبليين قد هاجموا التلمود ووصفوه بأنه كتاب بال وقديم مفرط في التقطيع المنطقي ، وتأثر بعض علماء التلمود بالقبالا ، وانتشر الاعتقاد بصدقها وبأنها وحي من عند الله فانتشر انتشارا واسعا بين يهود أوربا)[1]

القبّالا ، لفظة عبرية قديمة لها عند اليهود معناها السري

أما في الحقيقة والواقع ، فهي لا تتخذ من التصوف إلا ستر لتغطية حقيقتها الرهيبة السرية . والمعنى الأول للكلمة الأولى Cabal : العِصَابة السرية من عدة أشخاص يحبكون مؤامرة لغاية خفية . ويستعملون من هذه الكلمة فعلاً لازماً تآمر في الخفاء وأما لفظة القبلة بمعنى التصوف اليهودي . وهي أوغل منظمة خفية ، توغل في القدم ، سوداء الزوايا ، مقنَّعة عند حكماء صهيون ، فهي عشّهم الأكبر ، وهم أبناؤها الفانون في سبيلها .

وقد حاول القباليون حل مشكلة الشر انطلاقا من صورة التقابل المجازية ، فالعالم السفلى يتأثر بالعالم العلوي ولكن العالم العلوي بدوره يتأثر بالعالم السفلى فهما متقابلان .

وثمة تفسير قبالي لقصة الشجرة التي أكل منها آدم وحواء باعتبارها الواقعة التي أدت الى انفصال الإله عن الإنسان ، ومن هنا تكون الخطيئة الأولى هي التي أدت إلى نفي الشيخيناه (التعبير الأنثوي عن الإله) مع جماعة اسرائيل أي أن خطيئة الإنسان أثرت في مصير الإله نفسه تأثيرها في مصير الإنسان . ولهذا تأتي أهمية ممارسة الشعائر الدينية التي تؤثر في العالم العلوي ، فيحاول أتقياء اليهود من خلال صلواتهم ، وأفعالهم أن يصلحوا الكون ، وأن يعيدوا الشيخيناه من المنفى ، وقد أصبحت هذه فكرة أساسية في القبالا اللوريانية.

1- قصة الحضارة – ج:٤ – ص: ١٣٨

هذا التصوف هو التعاليم السرية الممتصة من التلمود وتعاليم التلمود عند اليهود هي كما يزعمون، ما أفضى به موسى إلى سبعين رجلاً من بني إسرائيل، وإلى أخيه هارون ويشوع بن نون من أسرار شفوية لم تدخل في أسفار موسى الخمسة، ثم صارت هذه الأسرار تنتقل من رهط إلى رهط، فمن يشوع إلى القضاة، ومن القضاة إلى الأنبياء (بعد داود وسليمان) ومن الأنبياء إلى مجمع السنهدرين ثم إلى جامعي التلمود في القرن الأول والثاني بعد الميلاد ومن التلمود خرجت تعاليم القبالا وأتباع القبلة هم حكماء صهيون في كل عصر حتى يومنا هذا وهم الذين وضعوا البروتوكولات وسميت بروتوكولات حكماء صهيون)[1]

1- بروتوكولات حكماء صهيون: بروتوكول: كلمة إنكليزية تعني (اتفاقية) وبرتوكولات حكماء صهيون وثيقة يقال أنها كتبت عام ١٨٩٧م في بال بسويسرا أي في العام نفسه الذي عقد فيه المؤتمر الصهيوني الأول الذي ضم حاخامات اليهود ولوضع خطة محكمة بالتعاون مع الماسونيين الأحرار والليبراليين والعلمانيين والملحدين لإقامة إمبراطورية عالمية تخضع لسلطان اليهود وتديرها حكومة عالمية يكون مقرها القدس وتقع البروتوكولات في نحو أربعة وعشرين بروتوكولا ونشرت لأول مرة عام ١٩٠٥ م وكان ذلك ملحقا لكتاب من تأليف نيلوس وهو مواطن روسي أدعى أنه تسلم المخطوطة عام ١٩٠١ م من صديق له حصل عليها من امرأة أدعت أنها سرقتها من أحد أقطاب الماسونية في فرنسا لكن نيلوس نفسه أخبر أحد النبلاء الروس بأن هذه المرة أخذتها من رئيس البوليس السري الروسي في فرنسا أما الأخير فقد سرقها من أرشيف المحفل الماسوني.

وقد لاقت هذه البروتوكولات رواجا كبيرا بعد نشوب الثورة البلشفية التي أسماها البعض آنذاك (الثورة اليهودية)

وأصبحت البروتوكولات من أكثر الكتب رواجا في العالم الغربي بعد الإنجيل وترجمت إلى معظم لغات العالم حازت البروتوكولات اهتمام بعض المشتغلين بالتأليف وبالإعلام فقد أشاروا إليها باستحسان كبير وكأنها وثيقة ذات شأن كبير.

والرأي السائد الآن في الأوساط العلمية التي قامت بدراسة البرتوكولات دراسة علمية متعمقة أنها مزورة استفاد كاتبها من كتيب فرنسي كتبه صحفي يدعى موريس جولي يسخر فيه من نابليون الثالث بعنوان (حوار في الجحيم بين ميكافيلي ومونتسيكو أو السياسة في القرن التاسع عشر نشر بروكسل ١٨٦٤م فتحول الحوار إلى مؤتمر وتحول المؤتمر وتحول الفيلسوف إلى حكماء صهيون وقد اكتشفت أوجه الشبه بين الكتيب والبروتوكولات إذ تضمنت هذه الأخيرة اقتباسات حرفية من الكتاب المذكور وأحيانا تعبيرات مجازية وصورا منه والرأي السائد الآن أن نشر البروتوكولات وإشاعاته إنما تم بإيعاز من الشرطة السياسية الروسية للنيل من الحركات الثورية الليبرالية من اجل القيصر والارستقراطية والكنيسة بتخويفهم من المؤامرة اليهودية الخفية العالية.(الموسوعة اليهودية- مجلد١ ص١٥٨- ١٥٩).

من يطلع على البروتوكولات يجد كل الدلائل على أنها وثيقة مزيفة وإنها وثيقة روسية بالدرجة الأولى وإن كاتبها لا يعرف شيئا عن المصطلح اليهودي ولا يستخدم أية كلمات عبرية أو يديشية[1] وهناك إشارة للإله الهندي " فيشنو " وإشارة واحدة لأسرة داوود وبطبيعة الحال يمكن إثارة القضية التالية (إذا كانت البرتوكولات وثيقة سرية، فلماذا لم يكتبها حاخامات اليهود بالعبرية، أو الآرامية، أو اليديشية ليضمنوا عدم تسربها، وكانوا يتحدثون بهذه اللغة)[2]

الموضوعات الأساسية المتواترة في البروتوكولات موضوعات سياسية، فهناك دفاع عن الاستبداد المطلق، وعما يسمى "الأرستقراطية الطبيعية الوراثية "

وثمة هجوم شرس على الماسونية التي كانت آنذاك جزءا لا يتجزأ من الحركة الليبرالية والثورية الروسية.

ويحاول واضع البرتوكولات أن يضخم اليهود وقوتهم ليخيف الناس منهم فيجعلهم ينسبون إلى أنفسهم في البرتوكول الثاني كل شر " من خلال الصحافة اكتسبنا نقودنا وبقينا نحن وراء الستار وبفضل تكريسنا الذهب . ولو أن ذلك سبب أنهارا من الدم[3]" والأمثلة كثيرة على يقترفه اليهود بما يدعى بجرائم الدم فمنها حادثة دمشق[4]

1- يهود اليديشية: هم يهود بولندا الذين يتحدثون اليديشية (رطانة ألمانية دخلت عليها كلمات سلافية وعبرية ثم ضمت روسيا قطاعات منهم حين ضمت أجزاء من بولندا في أواخر القرن الثامن عشر وقد حدث انفجار سكاني فأصبحوا أكبر جماعة يهودية في العالم.(الموسوعة اليهودية – مجلد:١ – ص: ٣١).

2- الموسوعة اليهودية – المسيري – مجلد: ١ – ص: ١٥٩.

3- الموسوعة اليهودية والصهيونية – عبد الوهاب المسيري – المجلد: ١ – ص: ١٥٩

4- حادثة دمشق: تعتبر حادثة دمشق من أشهر تهم الدم وقد وقعت عام١٨٤٠م حين كانت سوريا تحت الحكم المصري وتكاد المرة الوحيدة التي وجهت فيها تهمة دم لأعضاء الجماعات اليهودية في العالم الإسلامي فقد اتهم يهود دمشق بقتل راهب من الفرنسيسكان يدعى الأب توماس الكبوشي وخادمه المسلم إبراهيم عمارة لاستخدام دمائهما في أغراض شعائرية وفي صنع خبز عيد الفصح غير المخمر (ماتزوت) وقد أشيع أن الأب توماس شوهد آخر مرة وهو يهم بدخول حارة اليهود فتم تفتيش الحي اليهودي بتحريض من الكاثوليك المحليين يتزعمهم القنصل الفرنسي وقبض على زعماء اليهود ومات منهم اثنان أثناء التحقيق وأشهر واحد إسلامه وحكم على الباقين بالإعدام.(الموسوعة اليهودية والصهيونية- مجلد:١ – ص: ١٥٢)

وإن الماسونية[1] اليهودية العالمية أداة من أدواتها، وحكماء صهيون هم منفذو مخططها إذ هي منهم وهم منها القبالا عند حكماء صهيون السلطة التي ليس فوقها سلطة، توعز بالقتل والاغتيال والتدمير ومسرحها الأكبر كان في روسيا القيصرية وأصبحت في فلسطين بعد ١٩١٨ على يد الصهيونيين أتباع عقيدة التجمع والاقتحام، وعن أعمال اليهود الخفية، وأساليبهم السرية في أسبانيا، وتظاهرهم بالنصرانية وان تعاليم القبالة من الشعائر، والنواهي وتحاول تقريبها من العامة، وهذا من أسباب رواجها بين العامة رغم الصعوبة في فهم هذه التعاليم، ولأنها أقرب الى الفلسفة، وهم مهتمّون بالتراث وتعميقه في نفوس اليهود، وان خلاص العالم والإنسانية متعلق بخلاص اليهودية وأن الله يتجلى بغبطته على الوجود، ومتعلق بذلك بمصير شعب الله.

1- الماسونية: كلمة ماسو نية من الكلمة الإنكليزية / mason / والعربية " ماسون " وشاع هذا الخطأ وهي تعني البناء وتضاف إليها كلمة " فري free " بمعنى حرّ وتعني بالبناء الحرّ وهناك رأي بأن " فري ميسون " عضو في نقابة البنائين وفي موضع آخر تشير التعاريف على إن الماسونية في عدة أنساق فكرية وتنظيمية مختلفة تماما لاتنتظمها وحدة وليس لها علاقة بالدين بالمعنى الدقيق للكلمة باعتبارها حركة أخلاقية أخوية وحسب فالدين علاقة بالخالق تأخذ شكل الإيمان به وبعبادته أما الأخلاق فهي نسق من الأفكار ينظم علاقة الإنسان بالإنسان الآخر إلا بالخالق ومن ثم الماسونية تتعامل مع رقعة من الوجود الإنساني فقد بدأت كدعوة ربوبية فهي نسق فكري ديني متكامل يستند على العقل (المادي) وليس على العقل والغيب معا والماسونية حركة سرية لا يعلم بمجالسها إلا قلة من الأحبار، والمتعصبين من اليهود وتدعوهم للتمسك باليهودية كديانة، وقومية، وألا يتخذوا من المسيحية، أو الإسلام أولياء لهم ومنهم الرئيس أدولف كرميو صاحب البروتوكول عام ١٨٦٠ وأصبحت المعابد والماسونية بحدود ٩ آلاف معبد، ومعبدها الرئيسي في فلسطين بعد عام ١٩٤٨ وتعتبر هذه المعابد هي البديل عن الهيكل، وكذلك بأن هذه الأقليات تريد أن تسيطر بعد أن مورست عليهم ظاهرة الجيتو، وهذه العقد جعلت سيغموند فرويد إن يبحث في علم النفس، وآراء العالم ديكارت الفرنسي، وغيره من المفكرين اليهود يشعرون بعقد ضد الثقافات الأخرى السائدة في العالم الشهيرة (تقويض كل أشكال الاعتقادات الأخرى حتى لو أدى الأمر الى إنكار وجود الله أصلا، فان ذلك لن يكون إلا لفترة مرحلية يسهل بعدها الدعوة لديانة موسى، وإخضاع الناس لحكم اليهود من خلالها زمن ثم لا يجوز أن يكون اليهود من بين الماسونيين، إلا أحبارا لها أي رؤساء). (بتصرف:الموسوعة اليهودية- مجلد:٢- ص:١٨٤- ١٨٥-١٨٦).

وهناك طقوس في الحالات الشعبية بالنسبة للقباليين تمتد لممارسة أساطير متعلقة بالسحر، وبعلم التنجيم، وقراءة الكف، وبذلك يكون هناك اتصال بين النخبة الباطنية وعامة الشعب، وهذا على مستوى العلمي أما المستوى النظري الذي يقوم على التراث اليهودي، فتختلط فيها الفلسفة اليهودية بالفلسفة العربية لأن نشوء القبالة كان في العصور الوسطى، والقبالة تؤمن بالفيض الإلهي، ولها عشر مراتب أعلاها (العليين)، وأدناها (الشيخنياه) أي حضور الرب مع العامة من الشعب المختار أينما كان، وبذلك يصبح وجود اليهود ضروريا وجوهريا لأنه يؤدي الى الاتزان في الكون، ومن ساهم في نشر هذا المبدأ للقبالة هم اليهود في أوروبا الشرقية في القرن التاسع عشر كما سبق إلى ذلك يهود أوربا في القرن السادس عشر، وبدأت ظاهرة التأويل منذ أن وردت في التوراة من تكرار للأعداد (العدد سبعة، وأيام الخلق سبعة، وقوى الإنسان سبع هي الحواس الخمسة بالإضافة الى العقل، والمنطق)[1] وان وجودها في سفر باتسيرا الزهار، أو كتاب الخلق يزكيها وجود مثل هذه التأويلات للأحرف في بداية السور للقرآن الكريم (الر... الم.. المص...) في فلسفة تكون الأعداد، وأن كل حرف له قيمة عددية يبني عليها أهل القبالة تلك الفلسفة، وهي في القرآن لإعجاز، أو فواتح من بدايات الأحرف لأسماء الله الحسنى، وتفسيره العددي أنكره المحققون الإسلاميون، ومع كل هذا يدّونوها اليهود في كتبهم، وما جاءت به (الزهار) بعد أن روها في كتب التفاسير الإسلامية منقولة عن اليهود، ودحض آرائهم.

وهذه الفلسفة راجت حتى عند المتقين، أو الحصيدية، وأعلى مرتبة لديهم هي الصديق في حين في الفكر الإسلامي تأتي مرتبة الصديق بعد النبي، ولم يأخذ التصوف اليهودي شكله الحقيقي، إلا بعد تلك الفترة من ظهور الإسلام، وان كتاب (الزهار) ظهر في أوربا الغربية، وهو الكتاب الثاني (الباهر) وهو الفيض الإلهي، وقد كانت من وضع (الحاخام شيمون باريوحاي) ويعتبر الزهار ذا لغة معقدة، وغير مفهومة، وقد حرمت قراءتها، أو تعليمها، والإطلاع على أسرارها من غير اليهود . ولم تكن الديانة الإسلامية الوحيدة في

1- فلاسفة ومتصوفة اليهودية:ص١٧٢

التأثير على القبالة اليهودية، وإنما كانت الديانة المسيحية، والهندوسية المانوية ومن الملاحظ أن القبالة لم تتجه الى انتظار المسيح، إلا بعد أن طرد اليهود من أسبانيا سنة ١٤٩٢ م.

وان الديانة الإسلامية تدل على اشرط الساعة، وأخبار المهدي، وبهذا نرى أن القبالة اتجهت من الأندلس الى فلسطين تحسبا لنزول المسيح باعتبارها أرض الميعاد منذ عام ١٥٣٠م وكانت الفلسفة التي جسدوها وطريقة السلوك إقامة الصلاة، والشعائر الأخرى وصولا إلى المنهج الباطني.

فرؤية اليهود للمسيح تختلف تماما عن رؤية المسيحية له والمشيحانية هي الإيمان بالماشيح[١].

(ويبرر الزهار الشر في الكون بنظرية يقتبسها من القرآن حيث يطلق على الأشرار اسم أصحاب الشمال، ومبدأ الشر في هذا الكتاب هو في هذا الشمال فيوض كفيوض مبدأ الخير الذي وهو اليمين، واليمين، والشمال هما ذراع الله، ويطلق على أصحاب هذه النظرية أصحاب الشمال عند القباليين، أما الخلق فلهم نظرية يقتبسونها من القرآن الكريم وهي نظرية الثقلين صورة الرحمن أو مبدأ خلق الذكر، والأنثى، وقد ذهب القباليون الى تقديم إجابات عن الأسئلة الكثيرة التي كانت تثار حول مسائل الخير والشر، والتوحيد، وماهية الله، والعدم والخلق، التي بسبب خلو اليهودية منها كان يظن دائما أن اليهودية دين ناقص، وأن العقائد اللاحقة جاءت لتكملتة ومن ثم نسخه)[٢]

إن هذه الكتب الدينية بالنسبة لليهود هي التلمود – الزهار – البهار – سفرا لخلق (باتسيرا) وهي من الكتب التي أثرت تأثيرا كبيرا في تفكيرهم حتى جاء ت بروتوكولات حكماء صهيون.

1- الماشيح: هو المسيح المخلص اليهودي وقد فضلنا المصطلح العبري حتى نفصل بين العقيدتين اليهودية والمسيحية فرؤية اليهود للمسيح تختلف تماما عن رؤية المسيحية له المشيحانية هي الإيمان بأن الماشيح سيصل في نهاية الزمان والتاريخ ليملأ الدنيا عدلا بعد أن امتلأت ظلما ويؤسس مملكته التي تدوم ألف عام والعقيدة المشيحانية في اليهودية ذات طابع حلولي كموني قومي فالماشيح ملك من نسل داود زهي الأسرة التي حكم ملوكها المملكة العبرانية القديمة وهذا الماشيح سيؤسس مملكة صهيون في فلسطين ويبطش بأعداء اليهود ويناصر اليهود ويجعلهم يحكمون العالم.(الموسوعة اليهودية – مجلد:١ – ص: ٢٥)

2- فلاسفة ومتصوفة اليهودية:ص١٧٦

لقد كثرت دعا ويهم في هذا المجال على سبيل المثال لا الحصر بأن العبرية هي أصل العربية كما يدعون أن اليهودية هي أصل الفلسفة الإغريقية، وأن العبرانيين ليسوا من عبر النهر ولكنهم سموا بتلك التسمية لكثرة الترحال، وهم قبيلة من البدو الرحل، وإن ما يريد اليهود فعلة هو تقويض كل الأديان من أجل أن تبقى اليهودية لأنهم شعب الله المختار، وهذا من التوصية الرابعة عشرة من البروتوكولات.

فيلون السكندري: (٢٠ ق٠م – ٤٠ م):

عاش في الإسكندرية تعلم اليونانية والعبرية من طبقة الأثرياء (طبقة التجار) ونتيجة إطلاعه الواسع، وقراءته للتوراة تناول التأويل فيها، وقام بشرح ذلك، وبنقلها إلى اليونانية، وكانت نظرية أكثر اعتدالية، فيرى بأنه الله ليس هو إله بني إسرائيل فقط، وظهرت هذه الآراء عندما امتزجت بالعقل الإغريقي بأن للعالم إله خالق لا يدركه العقل، وليس هو إله إبراهيم، واسحق، ويعقوب وحدهم، وإنما إله العالم، وإن الدين اليهودي هو دين، وليس جنسية يؤخذ بها، فيجب على اليهودي أن يكون مواطنا في البلد الذي يسكنه.

وقد أوّلَ فيلون (إبراهيم) بأنه العلم، واسحق (الطبيعة) ويعقوب (الزهد) وهذه المصادر الثلاثة هي لمعرفة الله.

الديانة المسيحية

لقد عانى اليهود في ظل حكم الرومان القهر والعذاب، وراج فيما بينهم بأن المسيح سيظهر في حياتهم، فتعددت رؤاهم وتفسيراتهم حول مجيئه، وكيفية قدومه، وأين، ومتى وبأي أرض سيظهر، ورغم تعدد الآراء إلا أنهم كانوا قانعين بأن المسيح سيظهر قريبا.

وفي بيت لحم كانت مريم العذراء بنت عمران، وهي المتعبدة في الهيكل، والناسكة لكي توفي نَذرَ أمها التي نذرتها للهيكل، والعبادة، وقبلها الله قبولا حسنا، وكانت تحت وصاية زوج خالتها (اليصابات) أم يوحنا المعمدان، وقد كانت تحيط بها العناية الإلهية، وكانت تجد رزقا يأتيها، وهي لم تفارق المكان، فكانت فاكهة الشتاء تأتيها في الصيف، وفاكهة الصيف تأتيها في الشتاء حتى إذا سألها زكريا أنيّ لك هذا قالت من عند الله، وتمت خطبتها إلى يوسف النجار لكي تُبعد عن الهيكل وبينما كانت جالسة في لحظة تفكر، وإذ بالملك جبريل الذي أرسله الله عز وجل واقفا أمامها ليبشرها بأنه سيكون لها غلام فذعرت لهذا الأمر، وكيف يكون لها ولد، ولم يمسسها بشر، ولكن جبريل عليه السلام قد خفف من روعها، وأخبرها أن هذه قدرة الله، وهذا أمره، وأن ابنها اسمه عيسى، وسيكون وجيها في الدنيا، والآخرة، وسيكلم الناس، وهو في المهد، ويعطيه الإنجيل، ويعلمه الحكمة، والتوراة، فقد حملت مريم عندما نفخ جبريل عليه السلام في جيب مريم، وقد لجأت إلى جذع النخلة عندما جاءها المخاض، وولدت الطفل، وقد خافت من أن ترمى بسوء من خطيبها يوسف النجار الذي رأى رؤيا أن ملاكا يقول له

(لماذا عزمت على إبعاد إمرأتك أعلم أنه ما كوّن فيها إنما كوّن بمشيئة الله فستلد العذراء ابنا" وستدعونه يسوع، فإنه نبي الله أرسله إلى شعب إسرائيل، وسيأتي بآيات عظيمة تفضي إلى خلاص كثيرين)[1]

1- قصة الديانات – سليمان مظهر – ص:٣٧٩

ولقد كان يحكم فلسطين هيرود . وهو ملك شرير، وأثار غضبه حديث الناس بمجيء المسيح، وسيكون ملكا" على اليهود، وهكذا سيكون ضده لأنه يريد أن يبقى ملكا عليهم، فأمر بقتل كل طفل يولد، وقد رأى النجار ملاكا يبلغه في نومه بأن عليه أن يغادر المكان، وفي ذات الليلة اشتد خوف يوسف وزوجه على الطفل، فهربا إلى مصر، وبعد فترة قصيرة وردت أخبار عن موت الملك هيرود، فعاد يوسف مع أسرته، وسكن في الناصرة، وكان أبوه فقيرا، ويعمل نجارا، ولكن لم يمنعه من التعلم، والإقبال على الصلاة، وتلقي التعاليم، والوصايا العشر في المعابد، وتعاليم الحج، وكان يمشي من الناصرة إلى أورشليم (مدينة الله) التي كان تواقا لرؤيتها، وعندها وجد فيها الأجانب، ومحاطة بقطيع من الأغنام، والأبقار المعروضة للبيع لتضحيتها قرابين من قبل المتعبدين، وقد خيبت أماله هذه المظاهر، وأخذ يعمل بالنجارة طيلة أيام الأسبوع. ويذهب إلى المعبد أيام السبت ليتعبد، ويتعلم الشريعة، وغالبا ما كان يقوم بشرح هذه التعاليم أمام المتعبدين، وظهر يوحنا بن زكريا" المعمدان"[1] يدعيّ النبوءة عند نهر الأردن، وأخذ يُعمّد الناس بماء النهر، ومع هذا كان يبشرهم بقدوم المسيح.

وعندما سمع يسوع بيوحنا المعمدان، فترك حانوته وذهب لمقابلته، وعرف من أمه أنه ابن خالته اليصابات، فرآه يخطب في جمع غفير على شاطئ نهر الأردن قرب أريحا، فعرف يسوع بأنه يوحنا المعمدان، وعندما ذكر في خطبته، وموعظته (سيأتي بعدي من هو أقوى مني، ولست جديرا بأن أصل إلى درجة الانحناء لفك رباط حذائه)

1- يوحنا المعمدان (يحي بن زكريا) أمه اليصابات، وكان مصلحا دينيا، واجتماعي عمله تبكية الناس، داعيا إياهم إلى التوبة مبشرا للخلاص، عاش ناسكا متعبدا ساعيا لإخضاع نفسه، والسيطرة عليها بالصوم كان يلبس العباءة ورسالته هي التوبة، والمعمودية، والمعمودية اليهودية تقوم على الاغتسال والتطهر، وفي إنجيل متى (أثمروا ثمرا يليق بالتوبة، ولا يخطر ببالكم أن تقولوا في نفوسكم أن أبانا إبراهيم، لأني أقول لكم إن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولادا لإبراهيم، الفأس التي وضعت على أصل الشجرة، فكل شجرة لا تثمر ثمرة جيدة تقطع، وتلقى بالنار) فقرن التوبة بالعمل وأسقط مقوله شعب الله المختار، وأدخل المهتدين إلى الدين اليهودي، وعمّدهم بغض النظر عن جنسهم، وطبقتهم، وقد طال الدس على يوحنا المعمدان من قبل اليهود وفق الأناجيل التي كتبها يهود مسيحيون (فلاسفة ومتصوفة اليهودية — ص: ٢٥٦)

وعند انتهاء الخطبة تقدم يسوع وطلب من يوحنا أن يعمّده، فأدرك يوحنا المعمدان إن النبوة ظاهرة على يسوع، وتردد وهو يقول (أنا الذي في حاجة إلى أن تعمدني ثم تأتي إليّ) وأمتثل يوحنا له، وعَمَده، وكان عمر يسوع ثلاثين عاما، ولم تستمر حياته أكثر من ثلاثة سنوات بعد ذلك، فكانت مليئة بالإحداث السريعة، والنهاية المحزنة وقد ترك يسوع يوحنا، ومضى في الصحراء يفكر، وظل أربعين يوما منعزلا وكان يصلي، ويتأمل بدون طعام، أو شراب، وأتاه الشيطان ليغويه، فقال له إن كنت ابن الله فقل أن تصير هذه الحجارة خبزا، فرد عليهم يسوع ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان.

وطلب الشيطان منه أن يسجد له بعد أن أراه ممالك الأرض، ومجدها، فقال يسوع اذهب يا شيطان لأنه مكتوب للرب إلهك نسجد، وإياه وحده نعبد، فذهب عنه الشيطان، وجاءته الملائكة لخدمته، فعاد يسوع إلى بيته، ومازالت أفكاره تدور حول ملكوت السموات، وأن وقت الصوم، والحج قد اقتربا، وعندما وصل الى الهيكل، فرأى ما رأى في المرات السابقة منظر الأغنام، والأبقار، والتجار والصيارفة، فأثار غضبه، فأخذ عصا، وبدأ يطرد الماشية خارج الهيكل، وقلب طاولات الصيارفة، وارتفع صوته لا تجعلوا بيت الله سوقا لكم، فغضب الكهنة وعندما عاد إلى الجليل بعد انتهاء فترة الصوم بدأ يعظ الناس، فاستغرب الناس ما الذي جعله بهذه الحكمة والمعرفة فرد عليهم (لا كرامة لنبي في وطنه أو في بيته)

وذهب إلى الجليل إلى قرية كفر ناحوم، وعاش مع شقيقين (بطرس واندراوس)

وهما صيادا سمك، واستمرت مواعظ يسوع لتلك التجمعات، وأنه جاء ليس ليهدم الشريعة، وإنما ليكملها.

واختار يسوع من بين أتباعة، وتلامذته اثني عشر تلميذا، وسموا بالحواريين، وتم إرسالهم إلى البلاد لإعلان قدوم المسيح، واستقطب جماهير كبيرة يبحثون عن المسيح ويطلبون الشفاء من المرض، والتفت حوله حشود المؤمنين به، ودفع يوحنا المعمدان حياته ثمنا لتعاليمه وعظاته، وعند ذلك قرر يسوع العودة إلى أورشليم لنشر تعاليمه، حيث كانت أقوام اليهود الفريسيين الذين تميزوا بقساوتهم، وابتعدوا عن شريعة البني موسى، وأخذوا يدفعون الفقراء لدفع الهبات، والتبرعات، والنذور للهيكل لكي يستولوا عليها. وهكذا

شغلتهم المادة عن العقيدة، وكان فريق آخر وهم الصدّيقيون الذين لا يؤمنون بيوم الآخرة والبعث والعقاب، والجنة، والنار، فتظاهروا بمظهر الزهد الذي كان طريقة لجمع المال . وعندما جاء المسيح ليخلصهم من هذه الآثام، فكان لابد أن يعاني من هؤلاء لأنه يريد أن يحطم كل ما أثروا منه في الجاه والسلطة، فأخذوا يكيدون له العداء الشديد للتخلص منه، فهو لا يقوم بأعمال سوى الوعظ، ولم يكن ذلك محرما في أعمالهم، ويكون محرما عندما يمس الحكومة الرومانية في فلسطين، أو موجها نحو الله بالسخرية، أو ما شابه ذلك.

ويريدون اتهامه بالخيانة العظمى، فكانوا يتحرشون به بالأسئلة لعله يخطئ في الإجابة عنها، ولكنهم فشلوا، وقد دعا الحاخام الأكبر مجلس السنهدرين للاجتماع، وأعلن فيه أن يموت واحد من الشعب خير من أن تهلك الأمة كلها، وقد علم يسوع بذلك . وعشية الاحتفال بعيد الفصح دعا تلامذته وحواريه إلى العشاء الأخير، وترك يسوع مكانه، وأخذ حوض ماء ليغسل أقدام تلامذته، فأحتج أحدهم على ما يفعله يسوع، فقال لهم (لقد حاولتم التنافس على مقاعد الشرف والآن أضرب لكم المثل الذي يجب أن تحتذوه، تذكروا أن السيد ليس أعظم من خادمه، ولا الذي أرسل بأعظم من الذي أرسله) وكان يدرك بأن يهوذا الأسخريوطي من بين التلاميذ سيسلمه، وأخذ يتعبد، ويصلي مع تلاميذه بعد أن ناموا ما عدا الأسخريوطي الذي غادرهم من أول الليل، وفي سكون الليل جاءته مجموعة من الضباط الرومان يتقدمهم الأسخريوطي، ويسألون عن يسوع الناصري، فأجابهم أنا هو، فسقط الجميع على وجوههم، وعندما نهضوا اقتادوه إلى المحاكمة أمام بيلاطس النبطي حاكم أورشليم الروماني بتهمة الكفر، والنزاعات الدينية مع اليهود ولم يجد لما يثبت ذلك حتى جاؤوا بتهمة أخرى بأنه يثير الشعب ضد القيصر

وأراد بيلاطس التهرب من المحاكمة، وقال يجب أن يحاكم من قبل هيردوس أنتيباس . ولكن هيردوس أعاده الى بيلاطس بموجب الضغوط الهائلة من قبل اليهود وكهنتهم للحكم عليه بالإعدام، وكان هناك سجين أخر قد حكم عليه بالموت بسبب ثورة أقامها ضد الحكم الروماني، وفي عيد الفصح وجد بيلاطس بأنه يجب أن يعفى أحدهما من هذه العقوبة، ويرغب بأن يكون المسيح يسوع لأنه لا يرغب بإعدامه، وعندما استفتى الناس،

والجماهير، فاختاروا المسيح، ولكن في القائمة للمحكمة اختاروا برا باس، فأطلق سراحه، وكانت طريقة الإعدام على الطريقة الرومانية بأن يحمل صليبه على ظهره إلى مكان إعدامه مع لصين آخرين قد حكم عليهما بالإعدام.

فكان صليب يسوع المسيح ثقيلا لأن برا باس الذي قتل ولد أحد البحارّة، فأراد أن ينتقم منه، فيصنع له صليبا ثقيلا ليعذبه أكثر، وعذبوه أشد تعذيب، وسخروا منه الجنود الذين يعذبونه. فكان يقول اللهم أغفر لهم لأنهم لا يعرفون ما يصنعون، و هوى رأسه على صدره، وكانت النهاية.

وتعددت الآراء، والمذاهب حول صلب السيد المسيح، وألوهيته، وكانت تدور حول تجسد الله في جسم إنسان ليفدي البشر من الخطيئة، وبأنه قد افتدى كنيسة الله بدمه، وأن عقيدة الدين المسيحي هي أن الله له ثلاثة أقانيم (الأب – الابن – روح القدس) وظلت الآراء متباينة حول صلب المسيح، وأن المسيح ابن الله مما دعا كيرلس الإسكندري أن يعلن قرارا يحرم فيه على كل من يخالف بأن المسيح اله حقيقي، وأن مريم هي والدة الإله، ولكن ما جاء في القرآن يبين أن عيسى هو عبد من عباد الله وهذا ما تبينه الآية:(قال إنيّ عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيّا)[1] وبعض طوائف المسيحية يقولون إنه ابن الإله، لأن مريم لم يكن لها زوج، وجاء في القرآن الكريم الآية:

(إن مَثل عيسى عندَ الله كمثلِ أدم خَلقهُ من ترابٍ ثمَّ قال له كن فيكون)[2]

والإسلام يرى أن الصلب قد شُبّه للمسيحيين، وأن الذي صلب هو الخائن يهودا الأسخريوطي عندما ألقوا القبض عليه، وقد كان اليهود يبتغون من وراء ذلك ليس قتل يسوع وإنما هو قتل الطائفة، ولكن أتباع يسوع ظلوا متابعين دعوته، وهم الذين أطلقوا عليه المسيح بدلا من يسوع، وأنهم أتباع المسيح، ومن معجزاته كان يشفى الأبرص، والأكمه، ويشفى المجنون، وأنطق الأخرس، وقد أشفى مريضا كسيحا لمدة ٤٠ عاما، عندما قال له انهض، واحمل فراشك، وامش.

1- مريم – آية: ٣٠.

2- آل عمران – آية ٥٩.

التصوف المسيحي:

انتشرت الديانة المسيحية في كل بلاد العرب، وفي شبه الجزيرة العربية التي كان تسودها الديانات الوثنية، ومزيج من الديانات الشرقية كالهندسية، والفارسية، وابتعد العرب إلى الأديرة تركا منهم العبادة الوثنية حتى جاء الإسلام فدخل الناس في هذا الدين.

وفي البداية لم يكن جوهر الرهبنة المسيحية نبذ الملذات، والمباهج، ولكن نبذ كل تصرفات السلطان الذي جاء بالتنكيل، والتعذيب لكل من يخالف العقيدة المسيحية مثل الرومان، لأنهم مدركون بأن ملكوت السماء قادم، ليخلصهم من هذا العذاب الذي لحق بهم، فكثر الرهبان، والنساك، وقامت الرهبنة على الفقر، والطهارة فالفقر هو رفض الماديات، أما الطهارة، فهي طهارة القلب، وليس طهارة الثياب.

وتتعدد الآراء حول مسألة الرهبنة والنسك، ولكننا نراها تزداد كلما ازداد التعذيب والتسلط والاضطهاد لبني البشر، فينزع طائفة من المتدينين إلى الاعتزال والزهد والرهبنة وبالنسبة للديانة المسيحية فإن سياسة البطش والتنكيل التي قامت بها محاكم التفتيش في العصور المظلمة في أوربا جعلت حياة الرهبنة بازدياد، وأصبحت هذه الأديرة تتلقى الأطفال في سن مبكرة، وترى طائفة البندكتيين أن النذر الذي ينذره أبو الطفل بأن يهباه إلى الدير، لا يمكن الرجوع عنه ويقول الراهب قيصريوس (أن فارسا من الفرسان انسحب من الدير، متذرعا بتلك الحجة الدالة على الجبن، وهي أنه يخشى الحشرات التي في ثياب الرهبنة، وذلك أن ملابسنا الصوفية يأوي إليها الكثير من الحشرات)[1]

لقد لعبت الرهبنة دورا رئيسيا في تطور أوربا في العصور الوسطى، ففريق منهم يَتهّم الرهبان بأنهم أثروا من خلال الهبات والتبرعات للكنيسة، وهم القيّمون عليها، وأصبحوا ذوي ثراء فاحش، وبالمقابل فإن ما قام به الرهبان في تلك الفترة هي عملية الإصلاح الاقتصادية في أوربا، وكان هؤلاء سادة أقوياء وعظماء، وأصحاب ثروات مادية طائلة.

1- قصة الحضارة – ج:١٦– ص: ١٠٨.

وهذا الثراء الفاحش قد يفُسد الأخلاق، وقد استخف الرهبان الذين كان قسَمَهم أن يبقوا عزابا وقوة الغريزة التي يستثيرها ما يشاهدونه في حياتهم مع الناس العامة، ونرى ما يقوله قيصريوس (عن رئيس دير وراهب شاب قد خرجا راكبين معا، ورفعت عينا الشاب على النساء للمرة الأولى، فسأل رئيس الدير مَنْ هؤلاء، فأجابه (هؤلاء شياطين) فردّ عليهم الرّاهب يقول: لقد كنت أظنّهم أجمل من رأيت في حياتي كلها)[1]

كان يعيش بعض الرهبان حالة صراع نفساني بين المرأة والمسيح، ولم يكن تشهيرهم بالنساء، إلا جهودا لإماته شعورهم بمفاتنهن.

وتتفاوت مظاهر التقشف في الأديرة بين هؤلاء الرهبان، فمنهم من أغدق على الكنيسة كثيرا من الأموال تصرف على المباني للأديرة ومنهم من تقشف (إن الكنيسة تتلألأ جدرانها وتُغَلَ يَدُها عن فقرائها، وتطلى حجارها بالذهب، وتترك أبناءها عُرَاة وتفتن عيون الأغنياء بالفضة التي تأخذها من البائسين)[2]

ترافق مع انتشار مذهب القديس بندكت رهبانية النساء اللاتي دخلن الكنيسة، ومن المألوف في المجتمعات المسيحية، أن تَهِبَ بعض الأرامل واللاتي يعشن وحدهن بعض أيامهن، أو كلها لأعمال البر في المعابد، وازداد عددهن ما يماثل الرهبان في الأديرة والكنائس.

ولا يمكن لأي باحث أن يغفل دور القديس أوغسطين[3] الذي يعتبر ينبوع التصوف المسيحي، الذي نهل منه الغرب، ولا أحد يستطيع أن يتحدث عن الذات الإلهية في الجانب المسيحي بمثل ما يتحدث فيه أوغسطين في كتاب " الاعترافات "

(وإن هؤلاء الصابرين من رجال الكنيسة هم الذين ثبتوا قواعد الدين المسيحي بين زعازع الإلهام الجنوني التي كانت تهدد العقول في العصور الوسطى بأشد الأخطار من حين لآخر)[4]

1- قصة الحضارة – ج:١٦- ص: ١١١.

2- قصة الحضارة – ج:١٦- ص: ١١٩.

3- أوغسطين الاكويني (٣٥٤-٤٣٠ م) لاهوتي مسيحي وفيلسوف صوفي سعى لتوظيف الفلسفة الهيلينستية في دعم العقائد المسيحية من مؤلفاته (مدينة الله- الاعترافات).

4- قصة الحضارة – ج:١٦- ص: ١٥٨.

وكان المذهب النسطوري أقرب إلى جوهر الديانة الإسلامية (وتختلف المذاهب المسيحية بالنسبة للملكانية، واليعقوبية التي ترى أن اللاهوت تجسّد في الناسوت، ومن حيث العذاب، ولقد كان المذهب النسطوري في المسيحية يرى أن المسيح عليه السلام هو إنسان، وأن مريم إنسان جزئي، ولا يلد الإنسان الجزئي، إلا إنسانا جزئيا مثله، وحدثت النعمة الإلهية، فأتصل اللاهوت بهذا الإنسان الجزئي، كما اتصل من قبل بسائر الأنبياء، ولكن صلته بالمسيح كانت أكثر دواما، واستقرارا)[1]

أما ديونسيوس وهو من أتباع القديس بولس (كان يعيش في القرن الخامس الميلادي - وأعلن بصورة متطرفة - النظرية التي تقول أنه ليس ثمة كلمات تنطبق على التجربة الصوفية، أو على الله، ولقد كتب عن الإلهي فيقول:

(إنه ليس روحا، ولا ذهنا، ولا نظاما، ولا ضخامة، ولا ضآلة، وهو ليس غير متحرك، ولا متحرك، ولا ساكنا، وليست له قدرة، ولا هو قدرة، ولا نور، وهو لا يحيا، وليس هو الحياة، ولا هو الحياة، ولا هو واحد، ولا هو الألوهية، أو الخير، وهو لا ينتمي إلى مقولة الوجود، ولا إلى اللاوجود، ولا ينطبق عليه إثبات ولا نفي)[2]

القديس بندكت (٤٨٠ - ٥٥٤ م)[3]:

ولد في عام (٤٨٠) من أبو ين كانا من طبقة الأشراف الرومانية، وفي أثناء تعلمه رأى الفساد الجنسي الذي يعم المجتمع، وهو في الخامسة عشر من عمره، ففرّ الى مكان بعيد خمسة أميال من مدينة سبياكو، وعاش في صومعة في كهف بضع سنين في عزلة مع الرهبان، وما تذكره من محاورات البابا جريجوري الأول كيف كافح بندكت كفاح الأبطال لينسى المرأة (التي بعث الشيطان ذكراها إلى قلبه وألهب بهذه الذكرى نار الشهوة نفس عبد الله... حتى كادت تغلبه لذة الحب، وفكر أن يهجر البريّة ثم لطف الله به، فعاد عقله فجأة

1- المذاهب الصوفية ومدارسها – ص:٢٨.

2- التصوف والفلسفة – ص: ٣٤٩.

3- بتصرف: "قصة الحضارة – ج ١٣-١٤- ص: ٣٣٤- ٣٣٨ "

إلى صوابه، وأبصر كثيرا من شجيرات العوسج، والحسك تنمو بالقرب منه، فخلع ثيابه، وألقى بنفسه في وسطها، وأخذ يتمرغ فيها مدة طويلة، فلما وقف على قدميه كان جلده قد تمزق، وأصبح في حال يُرثى لها، وهكذا داوى جراح نفسه بجراح قلبه) في تلك الأثناء، وفي مواصلته لتقواه، وزهده ألح عليه رهبان أحد الأديرة القريبة منه من أجل أن يكون رئيسا لديرهم، فاستجاب لهم، وطبق نظاما صارما، وبأشد البطش مما دعاهم إلى وضع السم في النبيذ، ولم يفلحوا، وعاد إلى عزلته، ولحق به بعض الشبان الأتقياء والمخلصين من مدينة روما، وفي عام ٥٢٠ م أقيم حول كهفه اثنا عشر ديرا صغيرا بكل منها اثنا عشر راهبا، ولما رأى كثيرون من هؤلاء الرهبان حُكمهِ الصارم انتقل مع أتباعه الى مونتي كسينو، وهو تل يرتفع لأكثر من ١٧٥٠ قدما عن سطح البحر في عام ٥٢٩ م، وأنشأ فيه ديرا، وبهذا وضع أساس الحكم البندكتي الذي اهتدت به فيما بعد الأديرة في الغرب، وعندما ظهرت هذه الدعوة للنسك الجماعي لكي يكون خاليا من التظاهر، والتنافس بعد أن دانت المسيحية في فرنسا، وإيطاليا بالنسك الفردي الذي أخذوه عن رهبان الشرق، ونُسّاكه الذي أدى إلى نكوصهم.

وبهذا أسس مدرسة للرهبنة، والزهد، ووضع لها تعاليم، مبادىء في ممارسة الطقوس للوصول إلى حالة حياة التقشف وأن يتعهد من يريد الالتحاق بهذا الدير أصلاح أخلاقه، وطاعة رؤسائه، وأن يقسم، وأن يشهد عليه ضمن احتفال رهيب ولا يحق له مغادرة الدير، إلا بإذن من رئيسه، وأن يطيعوه طاعة عمياء، وهم صامتون، وألا يمزحوا، أو يضحكوا بصوت عال، وأن يمشوا مطرقي رؤوسهم وأبصارهم نحو الأرض، وألا يمتلكوا شيئا سواء كتابا، أو لوحا، أو قلما، أو أي شيء على الإطلاق، وأن كل الأشياء لديهم هي مشاع، ويجب على من في الدير أن يتصدقوا على كل من يستوجب الصدقة، وأن يستقبلوا كل من يأتون من الضيوف كأنهم هم المسيح نفسه، ومن واجب كل راهب أن يعمل في الحقول، والحوانيت بالإضافة إلى فروض الصوم، وكيفية أدائه في أشهر الصيف والشتاء، ففي الصيف يسمح لهم بتناول الطعام إذ تباح لهم وجبتان من الطعام وذلك لطول يوم الصيف، وشدة الحَر فيه وكذلك الصلاة كما قررتها الكنيسة منذ الساعة الثانية صباحا، ويذهبون إلى الدير لتلاوة

تسبيحة الليل، وعند الفجر صلاة السحر، وفي الساعة السادسة صباحا الصلاة القائمة (صلاة الساعة الأولى) وفي التاسعة صباحا (الصلاة الثالثة) وفي منتصف النهار يصلون الصلاة السادسة، وفي الساعة الثالثة يجتمعون للصلاة التاسعة وفي الغروب يصلون صلاة المساء، وقبل الذهاب الى الفراش يصلون صلاة النوم وهي الصلاة الختامية

ولم تكتف تعاليم بندكت بذلك بل أضاف أنظمة صريحة وبعض الإرشادات العامة التي يجب أن يتبعها الرجل المسيحي الكامل ومنها :

أن يحب الإنسان الله بكامل قلبه، وكامل روحه، وكامل قوته.

أن يحب جاره كما يحب نفسه، وعليه ألا يقتل، أو يزني، أو يسرق، أو يشهد زورا وأن يعظم الناس جميعا، وأن يطهر نفسه، وأن يحب الصوم، وأن يعين الفقراء، وأن يكسو العرايا، وأن يكون من القديسين.

لقد كانت التعاليم البندكتية من أثبت، وأبقى ما ابتدعته عقول العصور الوسطى، ونشأ أكثر من مائه دير في أوربا وفق منهجية بندكت، وقد تعرض هذا الدير للنهب والدمار في عام ٥٨٩ م وأعيد بناؤه، ونهبه الجنود الفرنسيون عام ١٧٩٩ م وهدمته قنابل الحرب العالمية الثانية، وقذائفها حتى سوّته بالأرض في عام ١٩٤٤م وتم إعادة بنائه في عام ١٩٤٨ من قبل رهبان القديس بندكت وبأيديهم.

جريجوري الأكبر ٥٤٠ – ٦٠٤ م[1]:

ولد جريجوري في روما قبل موت بندكت بثلاث سنوات، وهو ينتمي الى أسرة عريقة ورث ثروة كبيرة بعد وفاة والده، وتقلد المناصب السياسية، وهو في سن الثالثة والثلاثين، أصبح عمدة روما، وفي عصره كانت الفتن السياسية، والحرب القوطية (٥٣٦ - ٥٥٣ م) تجتاح ايطاليا لقد أنفق معظم ثرواته في إنشاء سبعة أديرة، ووزع الصدقات على الفقراء، وكان يملك قصرا جميلا وكبيرا حوله الى دير للقديس أندرو، وأصبح أول راهب وكانت

1- بتصرف: "قصة الحضارة – ج ١٣-١٤- ص: ٣٣٨- ٣٤٨ "

رهبانيته شديدة الصرامة والتقشف، فأكثر من الصيام، ولم يأكل إلا الخضر والفواكه. لقد سيطر عليه الهدوء ليكون (شماسا سابعا) في خدمة البابا بندكت الأول. ويعتبر أن السنوات التي قضاها في عزلة تامة في الدير أنها أسعد سنيٍّ حياته.

وعين رئيسا لدير القديس اندرو في روما في عام ٥٩٠ لم ينفق أموال الكنيسة إلا في الصدقات، والهبات للمعابد الدينية في جميع أنحاء العالم المسيحي. وكان يوزع على كل أسرة فقيرة في روما شهريا قدرا من (الحبوب – النبيذ – الجبن – الزيت والسمك – والثياب...) وكانت رسائله غاية في الصرامة لرجال الكنيسة المهملين ولكبار الحكام السياسيين وكانت تفيض بالرقة، والعطف للفقراء ، والمنكوبين.

وكل هذه النصائح والمواعظ ألفها في كتاب في عام ٥٩٠ م وكان يشغل منصب بابا روما الصالح وكانت من المراجع الهامة للمسيحية

ولم يثنه المرض عن متابعة شؤون الكنيسة، والسياسة البابوية، وتأليف الرسائل الدينية، والنشوة الصوفية، ومن رسائله الباقية لوقتنا الحاضر (خادم خدم الله) وأصبح هذا اللقب يلقب به الباباوات لأنفسهم.

في عام ٥٩٦ أرسل جريجوري الى إنكلترا بعثة برئاسة الراهب أوغسطين كبير الرهبان في دير القديس أندرو، وعادوا مذعورين لما شاهدوه عن وحشية السكسون، وتغيرت نظرة جريجوري عن أنهم ملائكة لما رأه من خلال بعض الأسرى ذي الوجوه النيرة، وجمال شعرهم، ووسامة وجوههم فسأل عنهم هل هم مسيحيون، فأجيب بأنهم كفره بدا أسفه عليهم، وسأل عن بلادهم، فقالوا له من الإنكليز، وبهذا كان وراء إرسال أوغسطين الى إنكلترا الذي قال عنهم أنهم وحوش مفترسة، فالقتل عندهم أفضل من الأكل، متعطشون لدماء الآدميين، وأن أحسن ما لديهم هو دماء المسيحيين، ولكن جريجوري أرسل أوغسطين مرة أخرى، فاستطاع الأخير بحكمته، ونباهته أن يغير المفاهيم فيها .

لقد كانت آراؤه الكلامية مهمة في تاريخ المسيحية من خلال محاضراته، ويعتقد أن الكتاب المقدس هو كلمات الله بكل ما لهذا التعبير من معان، وأنه في حد ذاته نظام كامل من الحكمة، والجمال، وعلى كل إنسان ألا يضيع وقته، ويفسد أخلاقه بقراءة الكتب الوثنية

اليونانية، والرومانية القديمة، وأن بعض آيات الكتاب المقدس في رأيه يكتنفها الغموض من خلال القصص والسير، فهي في حاجة الى عقول مدربة، وأن الكنيسة هي الأمينة على التقاليد المقدسة، وإذا ما حاول العقل أن يدرك ما هو فوق مداركنا خسر كل شيء حتى لن نستطيع فهمه، ولا يجهد نفسه في محاولة أن يثبت وجود الله، ولكنه يقول إن في وسعنا أن نشير الى وجوده بالتفكير في النفس البشرية أليست هي القوة الحية، وهادية الجسم، ويستدل جريجوري بقوله (كثيرا ما رأى عدد كبير من الناس في هذه الأيام أرواحا تفارق أجسامها) ومأساة الإنسان الكبرى هي أنه قد فسدت فطرته بتأثير الخطيئة الأولى، فمالت به الى الشر، ولقد كتب في عام ٦٠١ م وهو ملازم الفراش بسبب صحته المعتلة (لقد مضى زمان طويل لم أغادر فيه الفراش، وما أعظم اشتياقي الى الموت) وقد توفي في عام ٦٠٤م

وقد احتل مكانة رفيعة في الدين لا يعلو عليه أحد، إلا أثر النبي محمد صلى الله عليه وسلم، فلم يكن جريجوري من رجال العلم، أو متبحرا في الدين، ولكن بساطته هي التي جعلت له في عقول الناس أثرا أعظم من أوغسطين، فقد كان همّه منصرفا الى فساد الطبيعة البشرية، وغواية الشيطان الذي لا يخلو منها مكان في الأرض، حتى نهاية العالم، فكان يعيش في عالم مليء بالملائكة، والشياطين والسحرة، والأشباح، وكان يرى العلم مستحيل في هذا الكون، وأن للعالم نظاما قائما على العقل، ويعتبر جريجوري هو الذي وضع سلطة البابوية، وحررها من السلطة الزمنية حتى لقب (جريجوري العظيم)

فلسفة التصوف في الفكر الإسلامي

كلمة لا بد منها:

كثيرة هي الدراسات والبحوث التي تناول فيها الباحثون، والمستشرقون التصوف الإسلامي وأنه مستعار من التصوف البوذي، أو الهند ي، أو المانوي، أو الفارسي، ومما لاشك فيه أن البيئة العربية في العصور المظلمة كانت تسودها الديانات الوثنية وعبادة الأصنام إلى أن جاء الإسلام وحررها منها ووجهها نحو عباد الله عزوجل لأن تلك البيئة كانت خليطا ومزيجا من الديانات والعقائد الوثنية وعبدة النجوم والكواكب التي جاءت عن الشعوب التي غزت المنطقة كالفرس، والإغريق، والرومان، والكثير من العرب دّان بتلك الديانات.

وكانت هذه الدراسات توّصف التصوف الإسلامي بأشكال الرهبنة، والزهد، ونسك، وكهنة العقائد والأديان القديمة سواء الوضعية، أو السماوية، وأن هذا التصوف هو امتداد لهذا الفكر في حين هناك ما يدحض هذه المقولات من كتاب الله عز وجل والسنه الشريفة للنبي (ص).

وفريق آخر من الباحثين ينفي أن يكون مرد التصوف الإسلامي إلى الديانات القديمة، ولكنه يؤكد على أنه مزيج من الأفلاطونية الحديثة والمسيحية.

ويقول رينولد (لكن على يقين من أننا إذا نظرنا إلى الظروف التاريخية التي أحاطت نشأة التصوف بمعناه الدقيق، استحال علينا أن نرد أصله إلى عامل هندي، أو فارسي ولزم أن نعتبره وليد اتحاد الفكر اليوناني، والديانة الشرقية، وبعبارة أخرى، وليد الاتحاد بين الفلسفة الأفلاطونية الحديثة، والديانة المسيحية)[1]

1- المذاهب الصوفية ومدارسها – ص: ٢٠.

ومنهم من يرجع التصوف الإسلامي إلى تأثر هؤلاء المتصوفة بالديانة اليهودية، ويقول الباحث جولد تسيهر، وهو يهودي الأصل يعتقد أن الصوفية الإسلامية قد تأثرت إلى حد كبير باليهودية، ويستدل على ذلك بأن البعض من اليهود، قد دخلوا الإسلام، ووضعوا كثيرا من الأحاديث التي تسمى بالإسرائيليات، وإن نظريتي التشبيه، والتجسيم لدى اليهود تشابه نظرية الاتحاد الحلول لدى الفلسفة الإسلامية يقول الشهرستاني (وجدوا التوراة مملوءة بالمشابهات مثل الصور، والمشافهة، والتكلم جهرا، والنزول من طور سيناء انتقالا، والاستواء على العرش استواء)[1]

ولا شك أن هناك تمازجا بين تلك الثقافات، والحضارات، وتداخلا بين أديان هذه المنطقة، التي كان يشوبها التعدد، والتنوع في الآلهة، فكانت الأديان الشرقية تجوب المنطقة العربية، كما يجوب اليوم الإسلام الشرق، وبلاد العالم كافة.

كل هذه المقارنات لا تدل على أن جذورا للتصوف في الدين الإسلامي مستمدة من الأديان السابقة، لأنها تختلف في الوسيلة، والغاية التي نشأ فيها، وإن كان بعض المتصوفة يجهلون حقيقة التصوف، ولا يعرفون عنه شيئا، كما يقول ابن عربي لا يعرف حلاوة العسل، إلا من ذاقه.

وحول خطأ الصوفية في سلوكهم والشكل التعبدي الانعزالي والابتعاد عن مظاهر الحياة التي تمثل مظاهر تعبدية لديانات أخرى تذكر أنه (قد روى ابن الجوزي كثيرا من الأحاديث يستدل بها على خطأ الصوفية في أفعالهم التي تشبه الرهبنة المسيحية، والبرهمية مثل الترهب في الجبال والسياحة في الأرض، والخروج من المال، وهجر النساء، والامتناع عن أكل اللحوم ومس الطيب)[2]

إن الفلاسفة، أو المناطقة، وأصحاب علم الكلام يخفقون في الوصول إلى حالة العارف والمتصوف، لأنهم يعتمدون على العقل. وأدواته للبحث في الإلهيات، والبحث في تلك

1- المذاهب الصوفية ومدارسها – ص:٢٦.

2- التصوف الثورة الروحية – ص: ٦٦.

المسائل هي خارجة عن حدود العقل، وما نراه أن الخطاب الإلهي للبشر هو على قدر عقولهم . والآيات القرآنية تدل على ذلك (ليس كمثله شيء)[1] فالله عز وجل منزّه عن التشبيه، والتجسيم، والتوصيف، وما يدور في حلقة الفكر والفلسفة التي لا يستطيع أن يعرج إلى معرفة الألوهيات، إلا لماما، وفي الحدود الدنيا التي لا ترى أن هناك قوة خلف هذا العالم، وأن هنالك خالقا، أو مدبرا لهذا الكون.

إن الديانة الإسلامية هي آخر الديانات السماوية، وكانت أشملها، وجاء في القرآن الكريم كل قصص ومعجزات الأنبياء، ومضمون الرسالات في كل الديانات السماوية التي سبقت رسالة الإسلام زمنيا، فهو جامع شامل، وفي محكم التنزيل (وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه)[2].

إن شريعة الإسلام جاءت وسطية بين الديانتين السابقتين، فكانت الاعتدالية والوسطية هي سمتها الأساسية بالنسبة للأمور الدينية، والدنيوية، فاليهودية قد مالت إلى المادية المفرطة في اتخاذها للمبادئ التي حملها دعاتها، وحرّفوها لكي تتخذ الشكل الأخير بتطرفها بالصهيونية، وعداوتها للعالم، فكان معتنقوها في البداية هم من التجار المرابين، وجاءت المسيحية لتأخذ الشكل الروحي المفرط (الرهبنة) وأن المسيح هو ابن الله، أو أن الله قد تمثل بالناسوت ليخلّص البشرية من الآثام والخطايا، وجاء الإسلام ليوضح هذه المسائل بشكل صريح وواضح (عيسى ابن مريم)[3] وأن الله واحد أحد كما جاء في قوله تعالى (الله الصمد . لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد)[4]

إذا كان المستشرقون يقولون أن التصوف هو امتداد للتصوف والزهد في الأديان السابقة، ففي الأديان الوضعية يعتمد التصوف على أقوال وأراء أشخاص يماثلونهم في التفكير ومبادئ جمعوها لمفكريهم وعصارة عقولهم،أما التصوف في الأديان السماوية هي

1- سورة الشورى- آية: ١١.

2- سورة المائدة- آية: ٤٨.

3- سورة البقرة- آية: ٨٧.

4- سورة الإخلاص.

سلوك وفق الأوامر الإلهية التي تفوق قدرة البشر بل هي جوهر الوجود على الإطلاق وبهذا يكفي أن ندلي بتلك الحجة فالاختلاف كبير بين هذا وذاك، وإذا كان قصور العقل في إدراك الفصل بين الوضعي والسماوي فهو قصور أيضا في قدرة ذلك العقل عن معرفة حقيقة التصوف الإسلامي، وحتى المتصوفة أنفسهم ليسوا بمنأى عن هذا الافتراض.

- نجد مفارقة كيف يتأثر هؤلاء المتصوفة المسلمون بالتصوف البوذي، أو الزرداشتي ،أو الفارسي ،أو المانوي (ويبدوا أن ما سينون يربط بين التصوف الشيعي، والتصوف السني، بقصد أن يثبت نظرية متوهمة، فحواها أن التصوف الإسلامي متأثر بالمانوية، أو بمعنى آخر تأثر مدرسة التصوف في الكوفة بالثقافة الآرامية، التي كانت مؤسسة على نظرية الحب الإلهي، كما تأثر التصوف الإسلامي من ناحية أخرى بثقافة أخرى بثقافة البصرة المتأثرة بالثقافة الهندية)[1]

وأن التصوف الإسلامي يرتكز حول الإله الواحد المنزّه الواحد الأحد الصمد، بينما في الأديان الوضعية هي سلوك لبعض الأفكار، وعبادة آلهة كثيرين، ومجسدة أمامهم في تماثيل، وفي الأديان السماوية كاليهودية، وصفت الإله بأنه يحاور بني إسرائيل، وأنه يستشير البعض منهم، وأنه استجاب لرأي أحدهم، فالمتصوفة في اليهودية الذين جمعوا تلمود هم في بابل، وقسم آخر في فلسطين، المروي شفاها بعد فترة طويلة من الزمن، والمسيحية تذهب إلى عبادة المسيح، وبدعواهم هي عبادة الله عز وجل.

ومن يقول أن التصوف الإسلامي أنه متأثر بتصوف الأديان والمذاهب السابقة، والمتصوفون هؤلاء المعتنقين متأثرون بالتي هي أسبق منها، فكان من الأجدى أن يكونوا متصوفين بالديانة التي يعتنقونها، والدراسة التي نقوم بها إلا لتبين أشكال التصوف التي مرت بها هذه الأديان الوضعية منها والسماوية، ولكشف التفرد لكل ديانة سماوية لشكل التصوف ومتصوفيها.

1- التصوف والثورة الروحية — ص: ٢٩.

- كانت كلا الديانتين اليهودية والمسيحية تتحدث عن رسالة سماوية كاملة ستأتي لاحقا وهذا ما جاءت به الديانة الإسلامية لتتناول الديانتين السابقتين بشكل واضح وصريح وتضم سير الأنبياء والرسل . وطبيعة كل من هاتين الديانتين السابقتين.

يشترك أبناء كل العقائد ، والأديان في أنهم من بني البشر ، وبما يمتلكون من عقل، وما يتماثلون في الميول، والرغبات، والشهوات، وحبهم للفضول وبهذا نرى أن هناك ميلا لفضول ذلك الإنسان لمعرفة الحقيقة، التي يبحث عنها ، وجاءت الأديان لتوضح القوانين، والأدلة، والمعايير ، والطرق، والسنن، والنظم، والمعارف، وصارت قيما مكتملة بالديانة الإسلامية.

ألم يكن ذلك كافيا للرد على دعا ويهم، بأن هذا التصوف هو تقليد للتصوفات الأولى في الأديان السابقة، ولكن أيضا يجب أن نفهم أنه التصوف هو من جهة الصفاء ، للتقيد بالشريعة الإسلامية أو من مصطلح الأصفياء .

المقدمة للتصوف الإسلامي:

لقد عمل المتصوفة في الأديان السماوية على الأخذ بالمعنى المجازي متجاوزين المعنى الظاهري، والحرفي لنصوص الشرائع السماوية التي يأخذها أصحاب التكليف لأداء العبادات، وهذا ما يتطابق مع جوهر دعوة بعض المتصوفة هو الاتحاد بالمطلق، ففي الأديان الوضعية هو الاتحاد الكلي، من خلا ل فلسفاتهم، بأن الإله موجود في كل الأشياء المحيطة به، أما في الأديان السماوية هو الاتحاد بالله، لعدم الطمأنينة لظواهر الأمور في كل مراحل التصوف، وهذا القلق الذي يراود المتصوف هو التخلص من الآثام، والشهوات التي تلازمه خلال مراحل حياته، فالمجاهدة الدائمة للسيطرة على هذه الرغبات التي تميل إليها النفس، وتحتاجها وجزءا منها لضرورة الحياة، والبقاء ، وكذلك العواطف، والقضاء على اللذة الجسمانية، واستبدالها باللذة الروحية التي يتنعمون بها ، فقال أحد المتصوفة الإسلاميين " الجنيد " (لو علم الملوك باللذة التي نعيشها لجلدونا بالسيوف) وأن سلوك المتصوف حتى في حالات الصمت يجد نفسه أكثر سعادة، التي يسعى للوصول إليها إدراكا ، وإيمانا منه إنها هي

الدائمة، وهي أسلوب النجاح، أما الملذات الدنيوية، فهي عابرة، وليست دائمة، وهي تقود الإنسان لإشباع تلك النفس على حساب الروح، وما قاله الإمام الغزالي حول تجاذبات نفسه بشهوات الدنيا، وملذات الآخرة حتى تسنى له المعرفة بعد أن شغل نفسه بالعبادة، والقراءة، والمجاهدة، والكف عن الكلام، وشعر باكتشاف عجزه، ولكنه التجأ الى الله عز وجل.

لم تكن هذه الحركات الصوفية كلها ذات صبغة واحدة، فعلى النقيض من ذلك ظهر بعض الزنادقة، فظهر من يدعى الصوفية بأنه متشاغل في العبادة، والمخلوقات، والتفكير، وكلما تقدم في درجات الصوفية، فيجب أن تسقط عنه الفرائض التي جاءت بها الأديان السماوية، مثل الصلاة لاعتباره أنه تجاوز ذلك، وأيضا الصيام مدعيا استغناءه عنه، وكذلك الحج لأنه دائم الطواف في حياته، ومنهم من يستحل الخمرة لأنه يرى أنها حرمت على العامة الذين ليس لهم أعمال صالحة، وتباح لهم هذه الأفعال لأنهم أصحاب النفوس الزكية، وتظهر في المجتمع طرق، وفرق ليست بالمعنى الصوفي ذي العبادة الصرفة دائما هي مظاهر، وسلوكيات في الملابس، والأناشيد، ولبس العمائم، وشق الملابس في الموالد، والتجمعات الدينية، والزوايا، والتكايا، ولم يقتصر ذلك الأسلوب في ديانة دون سواها، وإنما هذه المظاهر ظهرت في كل الديانات الأخرى، ففي حلقات الحصيدية في الديانة اليهودية في مجالس الذكر التي يقيمونها يقومون ببعض الحركات، والجماعات الحروفية في التصوف اليهودي، والتحدث عن خوارق لهؤلاء، وبخاصة أن التجربة فردانية شخصانية، وكانت بيئة لنشوء الأساطير، والخرافات، والسحر، وأن حالة التأله هذه لإقامة الطقوس الجماعية، وممارسة الموبقات بذريعة أنهم بعيدون كل البعد عن اقتراف الذنوب. ومنزهون عن ارتكاب المعاصي (وأعبد ربك حتى يأتيك اليقين)[1]

لأن التصوف بحد ذاته من الصفاء، أي من تصفية النفوس، و القلوب، والأرواح، أن تكون كلها متوجهة الى الله تعالى. وبعبارة أدق، هو ملخص كلمتين، التحلية

1- سورة الحجر — آية:٩٩

والتخلية، والتحلية معناها: أن تتحلى بكل وصف كريم، والتخلية أن تتخلى عن كل وصف ذميم، أي لا يقره الله تبارك وتعالى، ولا يرضاه، والتحلية أن تتحلى بالأوامر الربانية، جملة وتفصيلا، ما ورد على لسان رسول الله في أحاديثه الشريفة، ومما ورد على قلبه من كتاب الله بوساطة الوحي جبريل عليه السلام . وهو في غار حراء يعبد الله على ملة سيدنا إبراهيم . وهي دين التوحيد فعمل على تصفية النفس، نفسه الكريمة، وقلبه الكريم، وروحه الكريمة حتى أنزل الله عليه جبريل، وقال له: اقرأ قال: ما أنا بقارئ إلى أن قال اقرأ ثم اقرأ إلى أن قال أقرأ باسم ربك الذي خلق. والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) والله يقول: (وإنك لعلى خلق عظيم)[1] والمتصوف عليه أن يكون مثالا كاملا كأنه قرآن يسير على الأرض وسنة تتمثل فيه.

وكان (ص) هو أول من دعا الى تهذيب النفوس وتهذيب الأخلاق، وتهذيب الأرواح وتصفيتها، فكيف يكون الإنسان سعيدا إذا لم تصف نفسه وقلبه، وتتعلق بمولاه.

ومنهم من يقول (إن التصوف جاء من الصفة التي اتصف بها العابد والورع بجملة من المحاسن واعتماد الأوصاف المحمودة . وترك الأوصاف المذمومة)، ويشير القشيري إلى كلمة التصوف بأنهم أهل الصفوة . إلا أن العديد ينكر ذلك بأن هذا اللفظ لم يشيع كثيرا، أو ربما اختلفت تسمياته من دين لآخر، أو من عقيدة لأخرى.

التصوف في اللغة:

بقي اشتقاقه مرهوناً بالمدلول الديني، وهو من الصفاء، وتعريف التصوف في الرسالة القشيرية (تصوف إذا ليس الصوف كما يقال تقمص إذا لبس القميص وقال أيضا اشتقاق التصوف من الصفاء بعيد عن اللغة وقول آخر بأنه مشتق من الصف)[2]

1- سورة القلم – آية: ٤.

2 - الرسالة القشيرية- ص:١٢٦.

ويشير القشيري أيضاً (أن اشتقاقها من الصفاء بعيد عن مقتضى اللغة)[1] ويقول القشيري (ليس يشهد لهذا الاسم – من حيث العربية – قياس ولا اشتقاق وإلا ظهر أنه كاللقب)[2].

ومن التعاريف التي ترامت من القواميس والمخزون المعرفي أن التصوف كما ورد في الرسالة القشيرية (التصوف ألا تملك شيئاً ولا يملكك شيء)[3]، وفي طبقات الصوفية قال النوري[4] (ليس التصوف برسوم، ولا علوم، ولكنها أخلاق).

وبهذا الجانب الأخلاقي تتوافق الديانات السماوية مما رسمته البوذية، والتاوية، والكونفوشيوسية، فالصوفية تجمع معاني ومبادئ الأخلاق وهي (ضبط حواسك ومراعاة أنفاسك) فالتصوف علم لدني، وفلسفة ليست ككل الفلسفات التي تقوم على المنطق، وهو موهبة ربانية، فالمتصوف شأنه شأن أي مدافع عن مذهبه.

وبهذا يمكن أن تندرج تحت لواء هذا العنوان تعاريف عديدة تبدأ من معرفة الخلق ووحدانيته وصولا إلى الفناء عن الذات والبقاء با لله.

يقول ابن الحسين النوري (ليس التصوف رسما ولا علما ولكنه خلق لأنه لو كان رسما لحصل بالتعليم ولكنه تخلق بأخلاق الله)[5]

1- الرسالة القشيرية – ص: ١٦٤.

2- الرسالة القشيرية – ص: ١٦٥.

3- سمنون المحب بن حمزة الخواص (ت ٢٩٨): إمام، ورع، متصف، عارف زاهد صوفي، بصري الأصل، سكن بغداد، وسئل عن المحبة، فقال: صفاء الود مع دوام الذكر.(طبقات الصوفية – ج: ١- ص:٦٣٢).

4- النوري أحمد بن محمد النوري (ت ٢٩٥): وهو من أقران الجنيد، صحب السرّي كان عجيب المنطق والبيان، ذا رياسة في الفنون، وسيادة في التصوف، وتفنن في علوم الحقائق، وكان الجنيد يعظمه جدا، وعندما كان يحتضر قيل له ما تشتهي، فرفع رأسه، وقد انكسر لسانه، وقال: أشتهي شهوة كبيرة قيل، وما هي ؟ فقال: رؤية الله ثم تنفس نفسا عاليا كالمتواجد، وفارق الدنيا. طبقات الصوفية – ج: ١- ص:٥٢٥

5- التصوف والتفلسف – ص: ١٥.

فالمواظب على العبادات هو العابد والمواظب على التفكير بالخالق ونورا لحق فهو العارف . والعارف هو المتصوف.

ويقول أبو يزيد البسطامي[١] : مخاطبا المتفقهين. وأصحاب العبارة (أخذتم علمكم ميتا عن ميت وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت) فالفقيه يؤكد على روايته فيقول حدثني فلان عن فلان عن فلان والصوفي يقول حدثني قلبي عن ربي فشتان بين القولين فالأول أخذ علمه عن من مات فأين فلان هذا الذي مات فالصوفي يقول أخذت علمي عن الحي الذي لا يموت.

وهذا ما يحذر منه المتصوف سري السقطي[٢] (التصوف اسم لثلاثة معان، وهو الذي لا يطفيء نور معرفته نور ورعه، ولا يتكلم بباطن في علم ينقضه عليه ظاهر الكتاب أو السنة، ولا تحمله الكرامات على هتك أستار محارم الله)[٣]

- يقول معروف الكرخي[٤] (التصوف الأخذ بالحقائق واليأس مما في أيدي الخلائق)[٥]

إلا أن كلمة (Mystic) في اللاتينية يقابلها في العربية (صوفي)

1- (يعد البسطامي من مؤسسي مدرسة الشطح في الإسلام كان جده زرداشتيا، واتفقت المصادر التي ترجمت له على هذا النسب، ويعد من دعاة إسقاط الفرائض طبقا للقراءة الأرثوذكسية كما أن وحدة الوجود من تأثيرات التراث الشرقي القديم، ومن الفلسفات والأديان القديمة كالهندوسية والفارسية.

2- سري السقطي: وهو أبو الحسن سري بن المغلس السقطي (ت٢٥٣) خال الجنيد وأستاذه، وتلميذ معروف الكرخي، وكان وحيد زمانه في الورع، وأحوال السنة وعلوم التوحيد، ويقول عنه الجنيد: ما رأيت أعبد من السري أتت عليه ثمان وتسعون سنة ما روي مضطجعا إلا في علة الموت. ويروي عن السري أنه قال المتصوف اسم لثلاث معان: هو الذي لا يطفئ نور معرفته، ودرعه، ولا يتكلم بباطن في علم يقضه عليه ظاهر الكتاب، أو السنة، ولا تحمله الكرامات على هتك أستار محارم الله

وقال السقطي: اشتهي أن أموت ببلد غير بغداد فقيل له: و لم ذلك ؟ فقال أخاف أن لا يقبلني قبري، فأ فتضح.(القشيرية — ص: ٧٩)

3- التصوف الإسلامي — الثورة الروحية —ص:٤١

4- معروف الكرخي: وهو أبو محفوظ — معروف بن فيروز الكرخي (ت ٢٠٠) من كبار المشايخ، ويقال أنه من أبوين نصرانيين، فسلموا معروفا إلى مؤدب، وهو صبي، وكان أستاذ سري السقطي. (الرسالة القشيرية — ص: ٢٨٥)

5- التصوف والتفلسف — ص:١٧

- وقال الجنيد[1] (التصوف أن تكون مع الله بلا علاقة ويقول أيضا: التصوف تصفية القلوب عن موافقة البرية ومفارقة الأخلاق الطبيعية وإخماد الصفات البشرية ومجانبة الدواعي النفسانية ومنازلة الصفات الربانية والتعليق بعلوم الحقيقة وإتباع الرسول في الشريعة)[2]

- يقول داود الطائي في وصية لرجل طلب منه أن يوصيه (صم عن الدنيا واجعل فطرك الموت، وفِرّ من الناس كفرارك من السبع)[3]

- يقول سهل بن عبد الله التستري (الصوفي الذي يرى دمه هدرا وملكه مباحا)
- (الصوفي كالأرض يطرح عليها كل قبيح ولا يخرج منها إلا كل مليح)[4]
- (ليس الصوفي برقعته وسجادا ته ولا برسومه وعاداته بل الصوفي من لا وجود له)[5]

- قال الله تعالى (وابتغ فيما أتاك الله الدّار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدّنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفسادَ في الأرض إنّ الله لا يُحبّ المفسدين)[6]

- وقال تعالى (ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم إصبعه في اليم، فلينظر بم يرجع)[7]

1- الجنيد بن محمد: هو أبو القاسم الجنيد بن محمد (ت ٢٩٧) سيد هذه الطائفة وإمامهم أصله من نهاوند، ولد ونشأ في العراق، كان أبوه يبيع الزجاج، ولذلك يقال له القواريري، وكان فقيها على مذهب أبي ثور، وكان يفتي في حلقته، وهو ابن عشرين سنة، صحب خاله السري، والحارث المحاسبي، ومحمد بن علي القصاب. (سئل الجنيد من العارف ؟ فقال: من نطق عن سرك وأنت ساكت).

(الرسالة القشيرية – ص: ٢٨٧)

2- التصوف والتفلسف – ص:.١٨.

3- الرسالة القشيرية–ص: ١٢.

4- الرسالة القشيرية–ص:١٢٧.

5- التصوف الإسلامي – الثورة الروحية –ص:٥٣.

6- سورة القصص – آية:٧٧.

7- حديث شريف–

- وقال السهر وردي[1]: (من صبّر نفسه عن الشهوات ملكها، ومن ملكها أمكنه أن يعتزل الناس، ومن اعتزلهم، قلت همومه، ومن قلت همومه، قلت فكرته، ومن قلت فكرته حَسُنت عبادتهُ، ومن حَسنت عبادته اتصلت نفسه بالروحانيات، ومن اتصلت نفسه بها، انصبغت بنور الحق، وإذا انصبغت به أقبلت جواهر النفوس الإنسانية على مراده كيف كان)[2]

إن كثيراً من الحريات التي ترد في القوانين الوضعية الغربية، وتتمثل في حرية الرأي مثلاً تتيح للمشركين بالله أن ينشروا دعاويهم على الناس، فيستجيب لهم بعض الجاهلين، فيزعمون أن الطبيعة خلقت نفسها بنفسها، ولا أثر للخالق.

فعلى النقيض من ذلك نجد الماديين يضمون تحت ألويتهم شريحة واسعة بلاوعي. ويحاكمون ذلك الفكر الملحد الذي يدعو أن الإله والكون مادة.

فالتصوف فلسفة الإسلام الدينية وأن محاولة الدخول في عالم الصوفية ليس بالشيء اليسير ولأن الدروب التي سلكوها شاقة . وقبل ظهور الإسلام لم يظهر هذا المصطلح ولم يظهر في صدر الإسلام، إنما ظهر في عهد الخلفاء الراشدين والتابعين ففي صدر الإسلام لم يكن الناس في حاجة إلى دراسة الورع والتقوى، بل كانوا كلهم مجاهدين، فلم يكن ثمة ما يدعوهم إلى تلقين علم يرشدهم إلى الاقتداء به، فهم قائمون به، فالصحابة لا يتسمّون باسم المتصوفين لأنهم كانوا يعيشون هذه الحالة.

وهناك فرق بين ما نراه من المتشددين في السنة وبين المتصوفة فالصوفي يظل يتلو الآية الواحدة أربع أو خمس ليال لا يتجاوزها (أن سليمان الداراني يتلو سورة " هود " في ستة أشهر أو القرآن في ثلاثين سنة)[3]

1- يحيى بن حبش الشهاب السهر وردي (ت ٥٨٦): عاش لمدة ستة وثلاثون سنة، فكان شافعي المذهب واتهم بانحلال العقيدة، وقال الآمدي: اجتمعت به، فرأيت علمه أكبر من عقله كان عارفا بالتصوف ماهرا في أصول الفقه، فصيحا متفوها، قدم إلى حلب، فناظر أهلها، واستهتر بهم، وشطح، وتمتك بكلمات الحكماء والصوفية، وجَهَر بذلك، فكادوا له، وهدر دمه، فقيل: أنه مُنِعَ من الطعام، أو سُلِخ، أو قتل وسميّ بالشهاب المقتول.

2- طبقات الصوفية – ج: ٢- ص:٣١١.

3- التصوف – الثورة الروحية – ص: ١٠٩

عندما دخل الإسلام من أمم شتى، وأجناس عديدة، واتسعت دائرة العلوم وتقسمت، وتوزعت بين أرباب الاختصاص قام كل فريق بتدوين الفن والعلم الذي يجيده دون غيره، فأصبح التأثير الروحي بعد هذا العصر يتضاءل شيئا فشيئا، فأخذ الناس يتناسون ضرورة الإقبال على العبادة مما دعا أرباب الرياضة والزهد إلى أن يعملوا على تدوين علم التصوف واثبات شرفه وجلاله، وفضله على سائر العلوم، ولم يكن ذلك احتجاجا على انصراف بعض الطوائف الأخرى إلى تدوين العلوم كما يزعم بعض المستشرقين. أما أول من أسس الطريقة، فلتعلم أن الطريقة أسسها الوحي السماوي في جملة ما أسس من الدين الإسلامي إذ هي بلا شك مقام الإحسان الذي هو أحد أركان الدين الثلاثة التي بيّنها النبي صلى الله عليه وسلم بقوله(هذا جبريل عليه السلام أتاكم يعلمكم دينكم) وعن علم التصوف قال فيه القشيري: اعلموا أن المسلمين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يتسم أفاضلهم في عصرهم بتسمية غير صحبة الرسول صلى الله عليه وسلم إذ لا أفضلية فوقها، فقيل لهم الصحابة، ثم اختلف الناس، وتباينت المراتب، فقيل لخواص الناس ممن لهم شدة عناية بأمر الدين كما يضيف القشيري في رسالته أنه يجب عدم التركيز على الاشتقاق اللغوي أنما سمي الصوفية صوفية وذلك لتميزهم عن غيرهم من أصحاب الحديث، واللغة، والتفسير، وعلم الكلام وغيرهم. يقول أبو يزيد البسطامي مخاطبا المتفقهين، وأصحاب العبارة (أخذتم علمكم ميتا عن ميت، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت) فالفقيه يؤكد على روايته فيقول حدثني فلان عن فلان عن فلان، والصوفي يقول حدثني قلبي عن ربي فشتان بين القولين، فالأول أخذ علمه عن من مات، فأين فلان هذا الذي مات فالصوفي يقول أخذت علمي عن الحي الذي لا يموت.

ويواجه عالمنا الإسلامي بعامة، والعربي خاصة واستخدام المصطلحات الغربية وهي أن يفعل الإنسان أي شيء في حدود القانون الوضعي المتغير لا في حدود شريعة الله الثابتة.

وهناك فريق كبير لا يستهان به من المجتمعات الغربية التي تسخر من بعض الشعائر الدينية الإسلامية ومنها مثلاً الحج والطواف حول الكعبة بأنها لا فائدة من تلك العملية ولكن ألا نسخر منهم عندما يطوفون حول ضريح لينين وتقبيل تمثاله ويطوفون حوله واليوم

يطالعنا الغرب المفرط في المادية والبعيد كل البعد عن الروح والأخلاق ليهاجم الرسول الكريم (ص) برسوم كارتونية مسيئة لشخصيته بشكل خاص، ومسيئة للإسلام بشكل عام وهذا الأمر ليس بجديد على الغرب بأن الإسلام هو العدو الوحيد واللدود للغرب في نظرتهم الخاطئة له، وهذا يدل دلالة واضحة عما يكنه الغرب للإسلام والمسلمين وليدرك العرب والمسلمون بأنهم لو كانوا أقوياء لما تجرأ عليهم هؤلاء وأن قوة العرب والمسلمين ليست لاستعباد الآخرين ولكن من أجل نشر الحق والعدالة والمساواة. وكذلك في الصيام. فالذين لا يؤمنون به يرون أنه عادة غير نافعة. ولكن أين هم من الصيام البوذي. فهذا هو الإسلام وتعاليمه ستظل قائمة ما دامت البشرية في حاجة إلى قوانين إنسانية ولن نجد في هذا العالم من قوانين إنسانية مثل ما جاء به الإسلام من قيم روحية وإنسانية للعالم أجمع.

فتعاليم الإسلام، هي الشريعة الكاملة والمرنة كل المرونة، وهي مصدر لكل القوانين والتشريعات، ومصدر لكل العلوم الدنيوية والأخروية.

وإذا كانت مهمة دعاة الإسلام المخلصين أن يعيدوا لهذا الدين روحه، وأن يفتحوا له مغاليق القلوب، فما قصد الصوفية في كل عصر وزمان، إلا العودة بالمسلمين إلى ظلال الأنس بالله، ونعيم مناجاته، وسعادة قربه بإرجاع روحانية الإسلام إليه وإذا كان خصوم الإسلام قد عملوا على تشويه معالمه، فوصموه بالجمود، والقصور، واتهموا أتباعه بالرجعية، والتأخر، ومن ثم صبوا عليه حملاتهم المغرضة بأساليبهم المدروسة المبتكرة، فتارة يشككون الناس في المذاهب الفقهية المعتمدة، وتارة أخرى يطعنون في بعض رواة الحديث من صحابة رسول الله (ص)

ويلفت الأنظار الطعن المقصود والهجوم العنيف على التصوف الإسلامي، وما ذلك إلا لأنه جوهر الإسلام وروحه النابضة وحيويته الفعالة، فلقد أراد المبطلون تشويه معالمه، وتصويره سبحاً فلسفياً خيالياً، وضعفاً، وزهداً، وانعزالاً ويعتبرونه ابتداعاً خرافياً.

ولكن الله أبطل دعواهم، وأذن لدينه بالحفظ والبقاء، فتحطمت أقلامهم، وذهبت الريح بدعواهم، وبقي التصوف منارة السالكين إلى الله تعالى، فبدأت الرسالة مع الرسول العربي الكريم بإقرأ، واقرأ لها دلالتها إذ هي من الله عز وجل عن طريق جبريل الأمين عليه السلام

ولم يكن الرسول (ص) بقارئ لكن جبريل عليه السلام قال له كما ورد عن عزمن قائل اقرأ باسم ربك الذي خلق الإنسان من علق اقرأ، وربك الأكرم، الذي علم بالقلم، بدأت الدعوة الإسلامية أذن بعلم وهبي وهبه الله تعالى للرسول صلى الله عليه وسلم بلا مكابدة، ولا معاناة، ولا تحصيل، ولا اكتساب إنما بوحي منه تعالى، فمن آمن بالله خالقا وبالرسول (ص) نبيا، ومبشرا، ونذيرا.

لقد أخذ الصوفية بالعلم اللدني، وفتح لهم بعض أسرار الله، وكشفت عنهم بعض الحجب، وعاينوا بعض النعم، والمعارف الإلهية يقظة، ومناما، وذلك اقتداء بشخصية الرسول(ص) لأنهم واكبوا سنته المباركة، وساروا على هديه وتطبعوا بطباعه، وجسدوه في سلوكياتهم، ومشوا على أثره، وهكذا كان التابعون بعد الصحابة على قدم رسول الله (ص) ولذلك نجح المسلمون في عصر الإسلام الزاهرة في قيادة العالم كله علميا، وأخلاقيا، وسلوكا عمليا لأنهم استنوا بسنة الرسول (ص) في تفكيره، وفي مأكله، ومشربه، وملبسه. ونظرته إلى الدنيا، وطلبه الآخرة، ولم يضعف المسلمون، ولم يهنوا، إلا عندما تركوا شريعة الله، ونسوا الاقتداء برسول الله، فأصبحوا الآن من المستذلين في الأرض، والمستضعفين، وتكالب المسلمون اليوم على المال والرياش، وتركوا قدوتهم الممثلة في شخصية الرسول (ص) التي ترى في المال، والرياش، وزخرف الحياة الدنيا وسائل، وليست غايات ويمكن الزهد فيها لتحقيق شرع الله ومنهاجه في الأرض ومن أجل العيش الحقيقي ليس عيش الدنيا الفانية وإنما عيش الآخرة الباقية وفي هذا المعنى يحدثنا الرسول (ص) يقول أتاني جبريل (عليه السلام) بمفاتيح خزائن الأرض فو الذي نفسي بيده ما بسطت إليها يدي. لو علم المشرع أن المال يمكن أن يكون غاية للإنسان لبسط يده إلى مفاتيح الخزائن ولو علم فيها خيرا له ولامته ما تركها أبدا ولبسط يده إليها فأخذها ونعم بها نفسه وصحابته وأمته جميعا لكنه (ص) زهدت نفسه في الدنيا ونعيمها بعد أن أطلعه الله سبحانه وتعالى على حقيقتها وتصف لنا عائشة رضي الله عنها معيشتها في بيت رسول الله(ص) فتقول (كان يأتي علينا أربعون ليله وما يوقد في بيت رسول الله مصباح ولا غيره)وعندما سئلت عائشة (رضي الله عنها) فيم كنتم تعيشون ترد على السائل قائلة (بالأسودين) التمر والماء.

لقد نشأ التصوف في الإسلام في القرن الثاني الهجري بعد أن انصرف الناس إلى الجانب المادي، والابتعاد عن الجانب الروحي، والاقتتال على السلطة، وهناك من يرون ذلك انحرافا كبيرا في اتباعهم للمال، والإعراض عن العبادة مستندين في ذلك إلى قوله عز وجل (وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور)[1] وهذا ما قادهم إلى ترك الملذات في الدنيا ومحاربة النفس وشهواتها، ومع تواتر الأيام والسنون وقعوا في الانحرافات التي هي خارج العقيدة الإسلامية، وخارج عما بدؤوا به.

وقد كان لهم في الرسول قدوة حسنة، لكنهم أول من خالفه مع أن ما جاء به القرآن الكريم حول الزهد، والنسك، والعبادة ليس انقطاعا كاملا عن الدنيا، وقد دعا إلى الموازنة، والتوفيق فيما بينهما، وهؤلاء المتصوفة ليسوا أفضل مكانة من رسول الله (ص).

لقد بلغت الصوفية شأوا كبيرا في القرن السابع والثامن وتجاوزت أقصى درجات الانحراف، والخطورة، فكثرت الفرق، والمذاهب الصوفية تضم الكثير من الدراويش، والمجاذيب، وظهرت ظاهرة بناء القباب على القبور، وتزامن ذلك مع عصر الدولة الفاطمية في مصر، واستغلت هذه الفرق لتعطيل مفهوم الدين، وإرادة الأمة الإسلامية، وإبعادها عن خطها القويم في تنمية الوعي مما سبب في اندحار هذه الأمة أمام الغزوات الصليبية على الوطن العربي، وهذه الفرق عطلت جيشا عرمرما من الذين تقاعسوا عن حمل لواء هذه الأمة نحو العلياء، فقد خارت قواهم، وابتعدوا عن جوهر الدين، الذين يعتبرون أن تقربهم هذا في الزهد والتصوف أقرب إلى الله عزوجل. وأسقط البعض منهم بعض الفرائض، ونسوا أن العمل عبادة، والعلم عبادة وأن الإسلام هو دين الوسطية، والاعتدال.

وما أكده القرآن الكريم في قوله عز وجل حول الرهبنة، وهي التخلي عن أشغال الدنيا، وترك ملاذها، والعزلة عن أهلها. قال تعالى (ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله)[2]

1- سورة آل عمران – آية:١٨٥.

2- سورة الحديد – آية: ٢٧

جاء في الأحاديث لكل نبي رهبانية، ورهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل الله عز وجل.

وقد ذمّ الإسلام الرهبنة، ونهى عنها كما ورد في قوله تعالى (فما رعوها حق رعايتها، فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم، وكثير منهم فاسقون)[1]

وهذا لا يمنع من الخلوة كما يشير القشيري يقول القشيري[2]: (الخلوة صفة أهل الصفوة، والعزلة من إمارات الوصل، ولا بد للمريد في ابتداء حاله من العزلة عن أبناء جنسه ثم في نهايته من الخلوة لتحققه).

وأول من لقب بالصوفية هو أبو هاشم الكوفي (ت ١٥٠ هجري)[3] الذي بنى خانقاه للصوفية في الرملة في بلاد الشام كان يؤمن بالحلول، والاتحاد، وكان باطنيا، ودهريا، ويقال أيضا أن أول المتصوفين هو جابر بن حيان

القدوة الحسنة الرسول محمد (ص):

ولد محمد بن عبد الله بن المطلب في مكة في شهر ربيع الأول في عام الفيل

وبعد وفاة أبيه وأمه قام برعايته جده عبد المطلب، وفي سن الثامنة مات جده عبد المطلب الذي أوصى عمه أبي طالب برعايته وكفالته

(وأمر الله تعالى شأنه اسرافيل عليه السلام أن يقوم بملازمته، فكان قرينه إلى أن تم له إحدى عشرة سنة، ثم أمر جبريل عليه السلام بملازمته بطريقة المرافقة والمقارنة والحفظ لكن لم يظهر له، ولم يكلمه)[4]

وسافر مع عمه إلى الشام حتى وصل إلى بصرى و بها راهب يقال له بحيرى في صومعة له وكان إليه علم النصرانية[5]، فكثيرا ما يمرون به، ولا يكلمهم، ولا يعرض لهم حتى ذلك

1- سورة الحديد – آية: ٢٧

2- الرسالة القشيرية –ص: ٥٤-٥٥.

3- التصوف والتفلسف – ص: ١١٦.

4- طبقات الصوفية – الكواكب الدرية – ج: ١ _ ص:٢٢.

5- النصارى: في الاصطلاح هم الفرقة التي أقرت رسولية بولس، وقبلت ألوهية المسيح بدعوى أنه مولود مريم العذراء، ويصفهم الربانيون بأنهم هراطقة اليهود، وكانوا يقرأون النسخة العبرية لانجيل متى، ولكنهم حافظوا على ناموس موسى، وشريعته وإن لم يلزموا بها المسيحيين من غير اليهود، وكانت فرقة المندائية يقولون إنهم نصارى (فلاسفة ومتصوفة اليهودية – ص: ٢٣٦)

العام، فلما نزلوا قريبا من صومعته صنع لهم طعاما كثيرا فرأى منه علامة النبوة، فقال لعمه ارجع به لئلا تقتله اليهود .

وبعد ذلك كان رجلا أمينا في تجارته مع خديجة، فتزوجها وهي تكبُره في العمر ولما قربت أيام الوحي آثر العزلة والانفراد، فكان يذهب إلى غار حراء، وبينما هو في عزلته ظهر له شخص، فقال: ابشر يا محمد أنا جبريل، وأنت رسول الله لهذه الأمة، وقال له: اقرأ، قال: ما أنا بقارئ، فظمه حتى بلغ منه الجهد ثم قال: اقرأ، فقال: ما أنا بقارئ، فغطه ثلاثا ثم قال (اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لا يعلم)[1] (ونزل معه إلى الأرض وعليه ثوبان أخضران ثم ضرب برجله الأرض، فنبعت عين ماء توضأ جبريل، وأَمَرَهُ أن يفعل كفعله ثم أخذ كفاً من ماءٍ فرش به وجه الرسول، ثم صلى به ركعتين، وقال الصلاة هكذا، وغاب)[2]

وبدأت الرسالة تتوالى، واستمرت ٢٢ عاما، وعندما رجع إلى بيته قص لزوجته وأهله بما جرى له، فقد آمن به ورقة بن نوفل، وعلي، وأبو بكر، وآخرون، وقسم آخر من قومه أنكروا عليه ذلك، ولكن محمد (ص) تابع في نشر دعوته جهرًا، وقد زينه الله بالخلق الكريم، وقال في محكم تنزيله (وإنك لعلى خلق عظيم)[3] كان أصدق الناس لهجة، وأشدهم تواضعا، وألينهم عريكة، ويجالس الفقير، ويأكل مع المساكين.

لقد واجه صعوبات من المشركين وآذوه لكي يتراجع عن رسالته التي جاء مبشرا بها فقال لو وضعوا الشمس في يميني . والقمر في يساري على أن أترك هذا الدين ما تركته

وقاد معارك بين كر وفر مع أصحابه ومن تبعه ضد المشركين لنشر رسالة الإسلام وهداية الناس لعبادة الله الواحد الأحد عند ما كانت الجزيرة العربية تضج بالأصنام وعبادة الأوثان ولا يخاف في الله لومة لائم تكلؤه العناية الإلهية ومؤيد بجنود لم يروها

ودخل الناس في دين الله أفواجا .

1- سورة العلق – آية: ١- ٥.

2- طبقات الصوفية – الكواكب الدرية – ج: ١ _ ص:٢٤.

3- سورة القلم – آية:٤.

أقوال، وأحاديث كثيرة، نختار منها في الزهد:

- سأل النبي عليه الصلاة والسلام ربه (اللّهم اجعل في قلبي نورا . وفي سمعي نورا . وفي بصري نورا)[1] .
- (والذينَ جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين)[2]
- (وأمّا من خاف مقام ربّه ونهى النفس عن الهوى ❖ فان الجنة هي المأوى)[3]
- (من كان يرجوا لقاء الله فإن أجل الله لآت وهو السميع العليم)[4]
- احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت، فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك لم ينفعونك إلا شيء كتبه الله لك، ولو اجتمعت على أن يضروك لم يضرك إلا بشيء كتبه الله عليك، رفعت الأقلام، وجفت الصحاف.

من معجزاته[5]:

- معجزاته كثيرة منها أنه انشق له القمر، ونبع الماء من بين أصابعه، فشرب العسكر كلهم، و توضؤوا من قدح صغير ضاق عن بسط يده فيه.
- وقال في عثمان " تصيبه بلوى عظيمة " فكان ما كان.
- دعا لعلي بذهاب الحر والبرد ، فلم يحس بهما بعد ، ولابن عباس بالفقه بالدين وعلم التأويل فصارا بحرا.
- ودعا على عتيبة بن أبي لهب فقال " اللهم سلط عليه كلبا من كلابك " فأكله الأسد.
- جاءه الحكم بن أبي العاص (يحكيه في مشيته، ومستهزئا به، فقال " كذلك فكن" فلم يزل يرتعش حتى مات.

---

1 ـــ صحيح البخاري ـــ كتاب الدعوات ص: ٦٧٩.

2- سورة العنكبوت –آية:٦٩

3- سورة النازعات –آية:٤٠-٤١

4- سورة العنكبوت –آية:٥

5- طبقات الصوفية – الكواكب الدرية – ج: ١ ـــ ص:٤٠-٤١.

من أدعيته أيضا:

- " اللهم أنت ربي . لا إله إلا أنت . خلقتني . وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت . أعوذ بك من شر ما صنعت . أبوء لك من النهار علي وأبوء لك بذنبي فأغفر لي . فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت"[1].

- "اللهم أغفر لي خطيئتي وجهلي . واسرافي في أمري . وما أنت أعلم به مني . اللهم اغفر لي هزلي وجدي وخطاياي وعمدي وكل ذلك عندي"[2].

- ربنا آتنا في الدنيا حسنة. وفي الآخرة حسنة. وقنا عذاب النار"[3]

وإذا جاءت نبوءة ابراهيم عليه السلام من أجل قبيلة، ورسالة النبي موسى لشعب ورسالة النبي عيسى لقوم، فان رسالة النبي محمدا (ص) جاءت للعالمين، وهو خاتم الأنبياء والمرسلين الذي اصطفاه عزوجل من خلقه وفضّله على العالمين وأرسله رحمة لعباده (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) ورسالة الإسلام هي خاتمة الرسالات السماوية، وما جاءت به من تعاليم في كافة شؤون الحياة وشريعة لكل زمان ومكان وللإنسان الذي استخلفه الله في هذه الأرض فأي مكانة أجّل من هذه عندما يتمسك ذلك الإنسان بتلك المبادئ وأخلاق النبي (ص) وقال عنه عزوجل (وإنك لعلى خلق عظيم)[4].

فكان القدوة والمثال في سلوكه وحياته وعبادته لله عزوجل والمتصف بصفات سامية وخلق رفيع فكان زاهداً، وتاركاً ملذت الدنيا التي أنعم الله بها على عباده، فكان الإسلام تشريعاً اجتماعياً، واقتصادياً، ودروساً، وعبر ضمن منهجية، وأسس وصيغ معاصرة تتوافق مع حركة المجتمع وتطوره في كل زمان ومكان فلم تأت مثلها شريعة عبر العصور ولم يأت بعد أكمل منها شرعة ومنهاجا.

1- صحيح البخاري – كتاب الدعوات – ص: ٦٧٧- ٦٨١.

2- المصدر السابق.

3- المصدر السابق.

4- سورة القلم – آية: ٤.

الخلفاء الراشدون:

بعد أن توفي النبي (ص) حزن أصحابه عليه وتواصلت قيادة راية الإسلام ممن يحملون لواءها بعده من المخلصين للدين الإسلامي وللرسول الكريم، فكانوا قدوّة صالحة في متابعة بناء الدولة الإسلامية ونشر تعاليمها في كافة أنحاء المعمورة، وهم يعتبرون ذلك مهمة واجبة في متابعة تلك الرسالة وهم خير من أجمعت عليهم الأمة في الخُلق والأخلاق ولا يأبهون بمظاهر الحياة وزخرفها واختاروا الابتعاد عن الملذات وفضلوا ترك الانغماس في الشهوات الدنيوية وإنما كانوا يعملون في دنياهم من أجل آخرتهم ففازوا في الدنيا وفي الآخرة:

أبو بكر الصديق:

وهو أبو بكر بن أبي قحافة رضي الله عنه واسمه (عتيق) أيضا لعتقه من النار وكان رجلا محبوبا في قومه، أجمعوا على تسميته بالصّديق لمبادرته لتصديق الرسول (ص) وهو عظيم النسب في قريش وأعلم أهلها، يأتيه الرجال ويستشيرونه ويألفونه في أمور كثيرة وذلك لحسن مجالسته وغزير علمه فضلا عن سمعته الطيبة في تجارته لقد كانت أخلاقه الدمثة وشخصيته المحببة السهلة عاملا مساعدا دعوته الناس إلى الله والى الدخول في الإسلام وممن وثق به من قومه ممن يصادقه ويجلس إليه.

وصف الرسول (ص) إسلام أبي بكر فيقول[1]:

(ما دعوت أحدا إلى الإسلام إلا كانت عنده كبوة "تأخر " ونظر وتردد، إلا ما كان من أبي بكر ما صّد عنه حين ذكرته، وما تردد فيه).

وأصاب أبا بكر الأذى من الكفار ورأى من عداوة قريش للرسول (ص) وأصحابه ما رأى، عند ذلك قرر الهجرة، وأستأذن الرسول فأذن له.

(وخرج أبو بكر مهاجرا حتى ابتعد عن مكة مسيرهم يوم، أو يومين التقى بسيد الأحابيش ويدعى ابن الدغنة، فبادره قائلا: إلى أين؟ يا أبا بكر، فأجابه أبو بكر: أخرجني قومي وآذوني وضيقوا علي، فقال سيد الأحابيش: ولِمَ؟ فوا الله انك لتزيّن العشيرة وتعين على النوائب، وتفعل المعروف، وتكسب مما هو معدوم.

1- أصول التصوف الإسلامي – ص: ٢٥.

ثم استطرد قائلا لأبي بكر: أرجع يا أبا بكر، فأنت في جواري، ورجع معه أبو بكر إلى مكة حتى إذا دخلاها وقف ابن الدغنة في قومه، وقال: يا معشر قريش أنّي قد أجرت أبا بكر بن أبي قحافة، فلا يتعرض له أحد إلا بخير، وتوقف أذى الكفار لأبي بكر إلى حين وكفوا عن مضايقته و كان لأبي بكر مسجد بجوار داره يقرأ فيه القرآن ويصلي فيه وكان من المعروف عن أبي بكر رقة المشاعر فعندما يقرأ آيات الله يبكي خشوعا وورعا فيراه الصبية والنساء الذين يقفون ببابه على هذا الحال فيعجبون لما يرون ويتكرر هذا المشهد كل يوم والصبية والنساء يتجمعون ليروا ذلك الشيخ الوقور يبكي وهو يقرأ القرآن ويُوشيَ بعض الرجال إلى سيد الأحابيش ابن الدغنة ويقولون له يابن الدغنه انك تجير هذا الرجل " أبو بكر " ليؤذينا؟

كيف:

أنه رجل إذا صلى وقرأ ما جاء به محمد يرق، ويبكي ثم تصبح له هيئة ونحن نتخوف على صبياننا ونسائنا إن يفتنهم.

وماذا تريدون مني؟

- أن تأمره وقد أجرته أن يدخل بيته. وليصنع فيه ما يشاء
- سأفعل

وقابل ابن الدغنة الصديق رضي الله عنه فقال له يا أبا بكر أني لم أجرك لتؤذي قومك

- كيف
- لقد كره قومك مكانك "مسجدك" الذي أنت فيه وتأذوا بذلك منك فهل لك أن تدخل بيتك فتصنع فيه ما أحببت وأجاب أبو بكر في حزم
- لو رددت عليك جوارك " أجارتك لي " وأرضى بجوار الله فهل يرضيك هذا فقال ابن الدغنه
- اردد علّي جواري وافعل ما تشاء
- فأجاب أبو بكر على الفور – لقد رددت عليك جوارك،
- فقام ابن الدغنة من فوره، وطلع على قومه فقال لهم يا معشر قريش لقد رد أبو بكر بن قحافة علي جواري "إجارتي له " فأنتم من الآن أحرار ففعلوا به ما شئتم)[1]

1- السيرة النبوية – ابن هشام – ج:٢-

جلس أبو بكر يوما بجوار الكعبة المشرفة فرآه سفيه من سفهاء قريش فقذف بحفنة من تراب على رأس أبي بكر الصديق وتصادف أن مر العاص بن وائل فقال له الصديق ألا ترى ما يصنع ذلك السفيه فرد العاص ساخرا أنت الذي فعلت ذلك بنفسك فقال أبو بكر، أي رب ما أحلمك أي رب ما أحلمك أي رب ما أحلمك.

وأما خصاله فهي أربع [١]:

١- خص الله تعالى أبا بكر بالصديقية، ولم يخص أحدا غيره بها، ولم يَسِم بها غيره من صحابة رسول الله.

٢- كان أبو بكر الصديق صاحب الغار مع رسول الله (ص) ونزل فيه قوله عز وجل (ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا)[٢]

٣- ولقد كان أبو بكر رفيق رسول الله في الهجرة وقد أمره (ص) بالصلاة إماما والمسلمون شهود على ذلك.

٤- كما أن أبا جعفر يقول عن أبي بكر الصديق رضي الله عنهما ((كان أبو بكر من النبي(ص) مكان الوزير، يشاوره في جميع أمره، ثاني اثنين في الإسلام وفي الغار.

لقد كان أحزم الناس رأيا، وأعلمهم بتعبير الرؤيا، وأكمل الصحابة عقلا، وأكثرهم صوابا قولا وفعلا، وكفاه شرفا وفضلا قول (ص): "إن الله يكره في سمائه أن يُخطِئ أبو بكر"[٣]

ومن أقواله في التصوف[٤]:

- تطليق الدنيا بتاتا، والإعراض عن منالها ثباتا.
- استنقاد الطوق في معاناة الشوق، وتزجية الأمور على تصفية القلوب.
- وجدنا الكرم في التقوى، والغنى في اليقين، والشرف في التواضع.

1- أصول التصوف الإسلامي – ص:٣٠.

2- سورة التوبة – آية: ٤٠.

3- طبقات الصوفية – ج: ١- ص:٧٤.

4- طبقات الصوفية – ج: ١- ص:٧٤-٧٥

- من ذاق من خالص المعرفة شيئا شغله ذلك عما سوى الله واستوحش من جميع البشر.
- من مقت نفسه في ذات الله آمنه الله من مقته.
- إياكم والفخر وما فخر من خلق من تراب ثم إليه يعود ثم يأكله الدود.

الفاروق عمر:

سماه الرسول الفاروق لأنه فرق الله به بين الحق والباطل، وذلك عندما قرر أن ينشر دعوة الله جهارا وكانت سرا إذ قال للرسول (ص): (ففيم الاختفاء والذي بعثك بالحق لتخرجن فأخرج الرسول (ص) في صفين حمزة في أحدهما، وهو في الآخر، فنظرت إليهم قريش، فأصابتهم كآبة لم تصبهم مثلها، فسماه الرسول يومئذ بالفاروق)[1]

ومن كلماته في الزهد والورع[2]:

- ما أصابني الله بمصيبة، إلا رأيت أن لله تعالى عليّ فيها ثلاث نِعَم، الواحدة: حيث لم تكن في ديني، والثانية: حيث لم تكن أكبر منها. والثالثة: ما وعد الله من الثواب عليها.

وجدنا خير عيشا في الصبر

- خطب يوما فقال: تعلمون أن الطمع فقر وان اليأس غنى وأن الرجل إذا يئس من شيء استغنى عنه.
- والله لقد لان قلبي في الله حتى لهو ألين من الزبد ولقد اشتد قلبي (من قبل) في الله حتى لهو أشد من الحجر
- جالسوا التوابين فانهم أرق الناس أفئدة
- كونوا أوعية الكتاب وينابيع العلم وسلوا الله رزق يوم بيوم
- كان في وجه عمر بن الخطاب خطان أسودان من البكاء
- الشتاء غنيمة العابدين
- (اللهم أني غليظ فليني ..... شحيح فسخني....... ضعيف فقوني)

1- أصول التصوف الإسلامي – ص: ٣٢.

2- طبقات الصوفية – ج:١– ص:٨١.

❖ (مر يوما على مزبلة فتوقف عندها لحظة وكان أصحابه قد تأذوا من الرائحة المنبعثة عنها فقال لهم عمر هذه دنياكم التي تحرصون عليها خاطب معدته يوما وهي تقرقر من الجوع (تقر قرين انه ليس لك عندنا غير الزيت حتى يحيى الناس)[1]

خصال عمر بن الخطاب[2]:

١- أشار على الرسول (ص) بأن يتخذ من مقام إبراهيم مصلى فكان كذلك موافقا للمشيئة الإلهية

٢- أشار على الرسول أن يتخذ على نسائه حجابا لأنه يدخل عليهن البر والفاجر فنزل قول عز وجل به (وإذا سألتموهن متاعا فسألوهن من وراء حجاب)[3]

٣- وقوله عن عبد الله بن سلول عندما مات وطلب ابنه أن يصلي عليه الرسول فقال عمر: أنه منافق وقد نهاك الله أن تصلي على أحد منهم فقال الرسول (صلى الله عليه وسلم) وقد تبسم: آخيّرت يا عمر.. أما أني خيّرت فاخترت لو أعلم أني زدت على السبعين استغفاراً يغفر الله لزدت عليه وهو يعني قول عز وجل.

(استغفر لهم. أو لا تستغفر لهم. إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم)[4] ثم انصرف عمر بن الخطاب، ولم يلبث يسيراً حتى نزل على الرسول (ص) قول الله عز وجل (ولاتصل على أحد مّنهم مّات أبداً، و لا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون)[5]

٤- لقد استشار الرسول (ص) عمر رضي الله عنه في أمر عائشة حين دسّ لها أهل الإفك ما قالوا ....

فقال عمر قولته المشهورة: من زوجكما يا رسول الله؟

1- أصول التصوف الإسلامي – ص:٣٢.

2- أصول التصوف الإسلامي – ص: ٣٤.

3- سورة الأحزاب – آية: ٥٣.

4- سورة التوبة – آية: ٨٠.

5- سورة التوبة – آية: ٨٤.

فقال الرسول(ص) : الله تعالى .

فقال عمر : أفتظن يا رسول الله أن ربك دسَّ عليك فيها .

فنزل قوله عزوجل موافقاً لقول عمر لقد كان الفاروق صادقا مع نفسه لم يكذب عليها أبدا ، ولم يوافقها في رغباتها الدنيوية إنما كان يربيها ويؤدبها ، لكي تسير مع الحق في طريق الاستقامة.

عثمان بن عفان :

الإمام عثمان بن عفان الملقب بذي النورين كان زاهدا في الدنيا ، وقانتا لله ساجدا آناء الليل قائما يخاف الآخرة ويرجو رحمة الله كان حاله الكرم والحياء والخوف والرجاء حظه من النهار العطاء والصيام و حظه من الليل السجود والقيام

ويصف الرسول (ص) سمات عثمان بن عفان الطيب فيقول : (عثمان أحيى " من الحياء" أمتي وأكرمها) .

لقد كان أمير المؤمنين عثمان بن عفان شديد الحياء حتى أنه ليكون في بيته والباب مغلق عليه فما يخلع ثوبه ليضع عليه الماء إذ يمنعه الحياء أن يصبح عريانا .

وأن امرأة عثمان بن عفان قالت : عندما أحاطوا به يريدون قتله[1] : (أن تقتلوه أو تتركوه فأنه كان يحييّ الليل كله في ركعة واحدة ، يجمع فيها القرآن الكريم) .

قال مسروق للأشتر قتلتم عثمان .

فقال الأشتر : نعم .

فقال مسروق : أما والله لقد قتلتم صواما قواما .

لقد أنعم الله على عثمان بن عفان بإيمان وفير ، فتوسل به إلى رضاء الله ، وبذله بسخاء لعبادة الله ، وكان حظه فيه من القليل أقلا ، وفي لباسه وطعامه مقلا ، خطب الرسول (ص) على المنبر وحث المسلمين على الجهاد بالمال لجيش العسرة فقال عثمان : عليٍّ مائة بعير

1- أصول التصوف الإسلامي – ص: ٦١.

بعدتها وعتادها، ثم حث الرسول المسلمين مرة أخرى فقال عثمان: عليٌّ مائة أخرى فقال الرسول (ص) ما على عثمان ما عمل بعد هذا.

- أختصم عثمان بن عفان هو وأبو عبيده بن الجراح:

فقال أبو عبيده تحرّج علي (أي تتطاول) في الكلام علي، وأنا أفضل منك بثلاث خصال وقال عثمان: ما هي؟ قال: أبو عبيده

الأولى: أني كنت يوم البيعة حاضرا وكنت غائبا.

الثانية: شهدت بدرا ولم تشهدها.

الثالثة: كنت ممن ثبت يوم أحد ولم تثبت أنت.

فقال عثمان: صدقت أما يوم البيعة، فقد بعثني رسول الله (ص) في حاجة، ومد يده الشريفة، وكانت يده الشريفة خيرا من يدي، وأما يوم بدر فقد استخلفني رسول الله (ص) على المدينة، ولم أستطع مخالفة أمر رسول الله، وكانت ابنته رقية مريضة، فاشتغلت بخدمتها حتى توفيت ودفنتها، وأما الثالثة وهي انهزامي يوم أحد، فان الله تعالى عفا عني وأضاف فعلي إلى الشيطان ولقد غلب عثمان بن عفان خصمه أبا عبيده لمناقبه المشهورة فقد فتح في خلافته أفريقيا وسواحل الأردن وسواحل الروم وفارس و طبرستان وسيجستان وغيرها من البلدان التي منّ الله عليها بنعمة الإسلام.

ومن أقواله في الزهد والورع[1]:

- يزغ الله بالسلطان أكثر مما يزغ في القرآن.
- لو طهرت قلوبنا لما شبعت من كلام الناس.
- إن لكل شيء آفة، وإن لكل نعمة عاهة، وإن آفة هذا الدين وعاهة هذه النعمة عيابون طعانون، يبدون لكم ما تحبون ويسرون ما تكرهون، طغام مثل النعام، يتبعون أول ناعق.

1- طبقات الصوفية – ج:١- ص: ٩٣.

على بن أبي طالب:

الإمام علي بن أبي طالب باب مدينة العلوم والمواهب كان مزينا بالزهد والورع كشف له الغطاء، وفضت عنه الأستار، وفتحت له كنوز العلم. فنهل منها ما شاء بدون حساب، قدوة المتقين، وقطب العارفين يقول رسول الله (ص) يا علي لك سبع خصال لا يحاجك (لا يخاصمك) فيهم أحد من قريش:

أنت أولهم أيمانا بالله، وأوفاهم بعهد الله، وأقومهم بأمر الله، و أقسمهم بالسوية، وأعدلهم في الرعية، وأبصرهم بالقضية، وأعظمهم عند الله مزّية.

كان علي عظيم الشمائل عديد الفضائل زاهداً في الدنيا يقول لها وهو أمير المؤمنين يا دنيا غري غيري.

- دخل عليه أحدهم وهو يرتعد في ملابس خفيفة فقال له: يا أمير المؤمنين أن الله قد جعل لك ولأهل بيتك في هذا المال حقاً.. وأنت تصنع بنفسك ما تصنع

فقال: والله ما آخذ من مالكم شيئاً، وأن ملابسي هذه هي التي خرجت بها من منزلي.

- قدم له مرة فالوذج "طعام لذيذ " فلم يأكله.

يقول: يا دنيا غري غيري فعمرك قصير، ومجلسك صغير، وخطرك يسير، آه من قلّة الزاد، وبُعدُ السفر، ووحشة الطريق.

- أما الصبر فله أربع شعب[1]:

الشوق، والشفقة، والزهد، والترقب، فمن اشتاق إلى الجنة ابتعد عن الشهوات ومن أشفق من النار رجع عن الحرمات، ومن زهد في الدنيا تهاون بالمصيبات " أي هانت عليه المصائب " ومن ارتقب الموت سارع في الخيرات.

- أما اليقين فله أربع شعب. تبصره الفطن وتأول الحكمة ومعرفة العبرة واتباع السنة ومن تأول الحكمة عرف العبرة ومن عرف العبرة اتبع السنة ومن اتبع السنة فكأنما كان في الأولين.

1- أصول التصوف الإسلامي – ص: ٥٢.

ـ أما الجهاد فله أربع شعب

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصدق في المواطن وشنآن الفاسقين (عداوة) فمن أمر بالمعروف شد ظهر المؤمن ومن نهى عن المنكر أرغم أنف المنافق ومن صدق في المواطن قضى الذي أحرز (ظفر) بدينه ومن شنأ(عادى) الفاسقين فقد غضب لله ومن غضب لله يغضب الله له.

ـ وأما العدل فله أربع شعب. غوص الفهم وزهرة العلم وشرائع الحكم وروضة الحكم فمن غاص للفهم فسر جمل العلم (أي كان مجتهد في العلم) ومن رعى زهرة العلم عرف شرائع الحكم ومن ورد روضة الحلم لم يفرط في أمره وعاش في الناس وهو في راحة.

ومن أقواله في الزهد والتصوف[1]:

- ليس الخير أن يكثر مالك وولدك، بل أن يكثر علمك. ويعظم حلمك.
- الدنيا جيفة فمن أرادها فليصبر على مخالطة الكلاب.
- من عظّم صغار المصائب ابتلاه الله بكبارها.
- ما لابن آدم والفخر؟ أوله نطفة وآخره جيفة، لا يرزق نفسه ولا يدفع حتفه.
- العجب ممن يهلك ومعه النجاة. قيل: ما هي؟ قال: الاستغفار.

الزهد والتصوف في الإسلام:

إن الزهد هو التوحيد من خلال العبادة لأنه إيمان بالدرجة الأولى، ثم هو التفكر في آيات الإله الواحد ونعمهِ في هذا العالم بما وهب الإنسان من عقل وعلقته بالكائنات الحيوانية والنباتية والجمادات والطبيعة كلها جزء بسيط من الظواهر التي تلتمس فيها القدرة الإلهية غير المحدودة هذا المبدأ حكم جميع التجارب الصوفية، فهو في أبسط التجارب وأعقدها على السواء لكن طرق التعبير عنه من حيث هو عقيدة اختلفت باختلاف المتصوفة.

1- طبقات الصوفية – ج:١- ص:١٠١.

معنى الزهد : هو الإعراض عند الشيء ، أو عدم الإقبال عليه، والنظر إلى الدنيا بشيء من الاستخفاف، والاحتقار، وعدم التكالب على جمع المال، والابتعاد عن ملذات الحياة التي سوف تجنح بالإنسان إلى الرذيلة، فالزهد يبحث عن الفضيلة.

ولم تلحظ كلمة الزهد في القرآن، إلا مرة واحدة في سورة يوسف عليه السلام فقال عز وجل (وشَرَوهُ بثمن بخس، دراهم معدودةٍ، وكانوا فيه من الزّاهدين)[1]

ويقول عز وجل (بل تؤثرون الحياة الدنيا ❖ والآخرة خيرٌ وأبقى)[2]

ويقول ابن جلال الصوفي (الزهد هو النظر في الدنيا بعين الزوال، فتصغر في عينيك، فيسهل الإعراض عنها)[3]

ويقول ابن حفص (الزهد في الحلال، وترك الحرام فريضة)

والزهد في قوله تعالى (لكيلا تأسوا على ما فاتكم ❖ ولا تفرحوا بما آتاكم)[4]

إن الدين الإسلامي الذي جاء خاتم الأديان، وامتاز بالمرونة والرحمة للعالمين أجمعين، وجاءت أحكامه في كافة ميادين الحياة، يعتبر من أعظم، وأكبر الأديان على وجه الأرض، وأن القرآن الكريم الذي أنزله الله على نبينا محمد (ص) وقد حدد نواظم كثيرة، وقواعد العبادة وشروطها ، والمناسك، والموازنة بين المادية والروحية فمن تبع المادية خسر الروحية، فخسر الدنيا والآخرة، ومن تبع الروحية بإفراط دون العمل، والأخذ بأسباب المادية، والابتعاد عن الملذات التي أنعم الله بها على عبادة، ولكن بدون إسراف، كما قال عز وجل (كلوا من طيبات ما رزقناكم)[5] والوسطية، والاعتدالية فيها كان هو مسار ذلك الدين، ولكن يبقى التصوف والزهد هو في القلب والنفس والابتعاد عن الملذات والانغماس فيها ، فقال عز وجل (اعلموا إنما الحياة الدنيا لعب، ولهو ، وزينة، وتفاخر بينكم، وتكاثر في

1- سورة يوسف – آية: ٢٠

2- سورة الأعلى- آية:١٦-١٧.

3- المذاهب الصوفية ومدارسها- ص: ٤٦

4- سورة الحديد – آية: ٢٣.

5- سورة البقرة- آية:٥٧.

الأموال، والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج، فتراه مصفرا ثم يكون حطاما، وفي الآخرة عذاب شديد)[1] وأن زخرفة الدنيا تأخذ بالمؤمنين في الضلال، وتحرفهم عن مسارهم الحقيقي الذي رسمه الله لهم.

وإن التعاليم الإسلامية تؤكد على أن المال هو وسيلة، وليس غاية، خشية أن يفتتن المسلمون بالمال، ويتقاتلون عليه، والدنيا هي وسيلة كذلك، وأن الغاية هي الآخرة، وأن الدنيا هي مزرعة الآخرة.

- دعا النبي (ص): (اللّهم اجعل في قلبي نورا، وفي سمعي نورا، وفي بصري نورا)[2]
- وفي المجاهدة، قال تعالى (والذين جاهدوا فينا لنهديهم سبلنا وان الله مع المحسنين)[3]
- وكذلك قهر الشهوات التي تدعو إليها النفس الأمارة بالسوء والخوف من تلك العاقبة، في قوله تعالى (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هي المأوى)[4]
- (من كان يرجو لقاء الله فان أجل الله لآت)[5]
- (إن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك)[6]

والدنيا مهما طالت، فهي منتهية كما قال سيدنا نوح الذي عاش ٩٥٠ سنة (ما وجدت الدنيا، إلا دارا ذات بابين دخلت من باب، وخرجت من آخر) وقال رسول الله صلى الله علية وسلم (لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء)[7]

1- سورة الحديد –آية: ٢٠
2- حديث شريف – أخرجه البخاري.
3- سورة العنكبوت –آية:٦٩
4- سورة النازعات –آية:٤٠-٤١
5- سورة العنكبوت –آية:٥
6- صحيح البخاري-
7- رواه الترمذي

- ويقول أبو العباس " احمد بن احمد رزوق " (من غلب عليه طلب العبادة كان عابدا ومن غلب عليه ترك الفضول كان زاهدا)[١]

- أما ابن خلدون فيقول (التصوف ليس له صلة بالا سلام والزهد إسلامي في مبانيه وأصوله وان المصادر الإسلامية قد ميزت بجلاء بين الزهد والتصوف إذن لا يلزم من كون الصوفي زاهدا إن يكون التصوف هو الزهد)[٢]

- الأمام أحمد بن حنبل[٣] قال: سألت ربي أن يفتح علي بابا من الخوف، ففتح فخفت على عقلي، فقلت يا رب على قدر ما أطيق، ففعل ذلك فسكنت.

إن المجاهدة أمام هذه الملذات الدنيوية التي تحاول أن تضع الإنسان ذا الإيمان الضعيف في شباكها، والناس العابدون الزاهدون في تلك الملذات، إلا ما سد رمقهم . يتقربون بذلك إلى الله عز وجل، ويرى العابد في الدنيا أنها سجن صغير، ولا يخرج منه إلا بانتقاله إلى عالم الآخرة، وكان الصحابة لا يركنون إلى الدنيا، وملذاتها، والصوفي لا تسوّل له نفسه بطول البقاء فيها، ولا تخدعه هذه المظاهر، فقد عرض على النبي صلى الله عليه وسلم المال، والرياش، فأبى، وقال قولته المشهورة (والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري حتى أترك هذا الأمر، أو أهلك دونه ما تركته)[٤]

لقد كانت لنا في رسول (ص) قدوة حسنة في تعاليمه، وسلوكه، وأخلاقه يرتقي بالإنسان، وبالنفس الإنسانية، وهو يخاف على أمته من فتنة المال، ويقول (إن لكل أمة فتنة وفتنة أمتي المال)[٥]

1- التصوف والتفلسف — ص:١٦

2- التصوف والتفلسف — ص:١٦

3-الإمام أحمد بن حنبل (١٦٤-٢٤١ هجري): إمام مبجل علم الزهاد، وقلم النقاد، أمتحن فكان في المحنة صبورا، واجتبى فكان للنعمة شكورا، عرضت عليه الدنيا فأباها، والبدع فنفاها، وتفقه على الشافعي، ومن كراماته ما أخرجه الطبراني: أنه كان لرجل أم مقعدة نحو عشرين سنة، فقالت له: اذهب إلى أحمد، وسله يدعو لي، فأتاه فدق الباب، فلم يفتح له، وقال من هذا ؟ فقال: أمي مقعدة، وتسألك الدعاء، فقال نحن أحوج أن تدعو لنا، فرجع فورا إلى البيت، فخرجت له أمه على رجليها تمشي من ساعتها. (طبقات الصوفية — ج: ١- ص:٥٢٠)

4- رواه البخاري

5- رواه الترمذي.

فماذا ينفع ابن آدم بما لبس، أو تغذى سوى أن يسّد رمقه، فماذا سينفعه ذلك المال في الآخرة، ولكن ما ينفعه هو عمله الذي يحمله إلى الآخرة، يقول عليه الصلاة والسلام (ما أنا في الدنيا، إلا كراكب استظل تحت الشجرة ثم راح، وتركها)[١] لم يحض الرسول الكريم (ص) على العزلة، وكذلك الصحابة إلا إذا كانت في سبيل اتقاء مجالس السوء، وأشرار الناس، والبعد عن اللهو، والفسق، ولا يجوز العزلة عن إعلاء كلمة الله، والسعي من أجل الرزق.

ويقسم الإمام أحمد ابن حنبل[٢] مقامات الزهد إلى ثلاثة أقسام هي[٣]:

١- زهد العوام: ترك الحرام

٢- زهد الخواص: ترك الفضول من الحلال

٣- زهد العارفين: ترك ما يشغل العبد عن الله تعالى

يقول بعض العارفين في دعائه

(اللهم اجعل الدنيا في أيدينا ولا تجعلها في قلوبنا)[٤]

فالذين انقسموا في ملذات الحياة ونسوا ربهم عز وجل:

(ولا تكونوا كالذين نسوا الله، فأنساهم أنفسهم)[٥]

1- رواه الترمذي.

2- الأمام أحمد بن حنبل (١٦٤-٢٤١ هجري): إمام مبجل علم الزهاد، وقلم النقاد، أمتحن فكان في المحنة صبورا، واجتبى فكان للنعمة شكورا، عرضت عليه الدنيا فأباها، والبدع فنفاها، وتفقه على الشافعي وقال: سألت ربي أن يفتح علي بابا من الخوف، ففتح فخفت على عقلي، فقلت يا رب على قدر ما أطيق، ففعل ذلك فسكنت، ومن كراماته ما أخرجه الطبراني: أنه كان لرجل أم مقعدة نحو عشرين سنة، فقالت له: اذهب إلى أحمد، وسله يدعو لي، فأتاه فدق الباب، فلم يفتح له، وقال من هذا ؟ فقال: أمي مقعدة، وتسألك الدعاء، فقال نحن أحوج أن تدعو لنا، فرجع فورا إلى الباب، فخرجت له أمه على رجليها تمشي من ساعتها.

(طبقات الصوفية – ج: ١- ص:٥٢٠).

3- المذاهب الصوفية ومدارسها – ص:٥٤.

4- المذاهب الصوفية ومدارسها – ص:٥٤.

5- سورة الحشر – آية: ١٩.

ويرسم لنا إبراهيم بن أدهم طريق المجاهدة، فيقول (لن ينال العبد درجة الصالحين حتى يجتاز عقبات ستا[١]:

١ – يغلق باب النعمة، ويفتح باب الشدة (أي التزهد في المال)

٢ – يغلق باب العز، ويفتح باب الذل (أي بالتزهد في السلطان)

٣ – يغلق باب الراحة، ويفتح باب الجهد (أي بكثرة العبادة، من سجود، وركوع)

٤ – يغلق باب النوم، ويفتح باب السهر (أي قيام الليل)

٥ – يغلق باب الغنى، ويفتح باب (الفقر لله، والحاجة له تعالى)

٦ – يغلق باب الأمل، ويفتح الاستعداد للموت (أي الخمول في طلب حظوظ الدنيا)

إن مجاهدة النفس تكون بتربيتها على الفضائل، والأعمال الصالحة التي يقوم الإنسان سلوكه بها، ولا يساوره الرياء الذي يجتاح مساحة من قلبه، وعليه أن يراقب سلوكه، وأفعاله لكي لا تجنح به نفسه، أو تميل نحو شهواتها، وملذاتها، وإن الله يعلم مالا نعلم، وقال عز وجل (إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض، ولا في السماء)[٢] وقال أيضا (يعلم خائنة الأعين، وما تخفي الصدور)[٣]

وفي فصل العروج إلى مقام الزهد هو أول سلوك طريق المفاوز (وأعلم رحمك الله أن العروج إلى مقام الزهد هو أول سلوك طريق المفاوز، وان كان الزهد مطلوبا لغيره لا لنفسه، لأن الزاهد ليس له فائدة تستفاد، إلا قطع الشواغل، والعوائق التي تشين السالك في سرعة سيره، وتبطئ به عن لحوق الواصلين)[٤]

إن الزهد هو أسبق من التصوف فكان الزهد هو تطبيق شريعة الله والابتعاد عن المحرمات والموبقات والزهد في الدنيا ومحاربة النفس والعاصي وضرورة تجنبها فيقول أبو الحسن البصري " إنما الفقيه الزاهد في الدنيا البصير بأمر دينه المداوم على عبادة ربه عز وجل"[٥]

1- الغنية –ج: ٢ – ص: ١٨٢.

2- آل عمران – آية: ٤.

3- غافر- آية: ١٩.

4- قطب العارفين في العقائد والتصوف – ص: ٨٧.

5- التصوف – الثورة الروحية في الإسلام- ص: ٣٦.

ويقول داود الطائي في وصية رجل أراد أن يوصيه "صم عن الدنيا واجعل فطرك الموت، وفرّ من الناس كفرارك من السبع"[1]

ويقول أبو القاسم عبد الله في باب الزهد " فان معرفة الطريق قبل السفر بالوصف والدليل أيسر على السالك من خروجه على الطريق المجهول الصعب على مطية غير رائضة وهي العلة التي تبطئ غير رائضة ومرّ بطريق سفره، ولا يبعد انقلابه على عقبيه، وعلى الجملة من ركب مطية غير رائضة، ومرّ بطريق مجهول، ولا يتأتى منه وصول المنزل أصلا، ولاسيما إذا كان السالك متشبها بالسالكين دون حقيقة، بلا نعل، ولا زاد مبلغ. وقد يتعذر وصول المنزل على ذي حزم، واجتهاد، وزاهد في الكونين، فان الزهد في الكونين بداية الغيبة عن الخلق، وأول المعراج إلى رياض المشاهدة، وهي مقام الواصلين، فكيف يصل، من أهمل نفسه، وحمل دنياه على عاتقه"[2]

قيل (إن فلانا يمشي على الماء ومن مكنه الله تعالى من مخالفة هواه، هو أعظم من المشي في الهواء)[3]

- وتعتبر الخلوة صفة أهل الصفوة، والعزلة من إمارات الوصلة، ولا بد للمريد في ابتداء حاله من العزلة عن أبناء جنسه ثم في نهايته من الخلوة لتحققه بأنسه، ومن حق العبد، إذا آثر العزلة أن يعتقد باعتزاله عن الخلق سلامة الناس من شره، ولا يقصد سلامته من شر الخلق، فإن الأول من القسمين: نتيجة استصغار نفسه والثاني: شهود مزيته على الخلق، ومن استصغر نفسه، فهو متواضع، ومن رأى لنفسه مزية على أحد، فهو متكبر)[4]

- وقال ذو النون المصري (إنما دخل الفساد على الخلق من ستة أشياء. الأول: النية بعمل الآخرة، والثاني: صارت أبدانهم رهينة لشهواتهم، والثالث: غلبهم طول الأمل مع قرب الأجل، والرابع: آثروا رضا المخلوق على رضا الخالق، والخامس: اتبعوا أهواءهم، وتركوا سنة

1- الرسالة القشيرية — ص: ١٢

2- قطب العارفين في العقائد والتصوف — ص: ٩٤.

3- الرسالة القشيرية — ص: ٢٨٨.

4- الرسالة القشيرية — ص: ٥٧.

نبيهم (ص) وراء ظهورهم، والسادس: جعلوا زلات اللسان حجة لأنفسهم، ودفنوا كثيرا من مناقبهم)[1]

وقسم أئمة الصوفية الزهد إلى درجات ثلاث هي[2]:

١ـ الحد الأقصى للزهد.

أصطلح الزهاد على أن الزاهد الذي لا يدخر مالاً أو طعاماً من غذائه لعشائه هو في الدرجة العليا من الزهد أو بالحد الأقصى من الزهد.

٢ـ الحد الأوسط للزهد.

وهو الذي يدخر طعاماً أو مالاً ليوم فهو في الدرجة الدنيا وإذا كان ممن لا يدخر طعاماً أو مالاً لمدة لا تزيد عن سنة ويعتبر من أصحاب الدرجة الدنيا من الزهد ويسمى الزهاد هذا النوع من الناس (بضعاف الزهاد) أما الذي يدخر مالاً أو طعاماً حسب هذا التقسيم أكثر من سنة فليس هو من طبقة الزهاد.

مدارس الصوفية:

- في بداية الدعوة الإسلامية كانت الجهود لكل معتنقي هذا الدين مصروفة نحو نشر الدين، والجهاد في سبيل الله في كافة أرجاء المعمورة، فكان الزهد يتسم بالجهاد في سبيل الله، ولم ينصرفوا إلى الزهد والتصوف، فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم (لكل نبي رهبانية، ورهبانية هذه الأمة الجهاد) وبهذا كان الزهد الحقيقي في الإسلام من يبذل روحه في سبيل إعلاء كلمة الله عز وجل في الأرض، وبعد الفتوحات الإسلامية كان الزهد قد أخذ مسارا آخر، وهو التقشف، وتحقير الملذات والشهوات، وأصبحت لذلك الزهد مدارس، وطرق، وجماعات، ودعاة، وأصبح ظاهرة جماعية في أزمنة مختلفة.

1- الرسالة القشيرية – ص: ٥٦- ٥٧.

2- أصول التصوف الإسلامي – ص: ٣١٩.

اتسمت هذه الحركة للزهد من قبل معتنقيها بأداء العبادات، والنوافل، والتخلق بالأخلاق الإيمانية، وهجر الملذات، والشهوات، وبالاشتغال للآخرة، وليس للدنيا معتمدين على كتاب الله عز وجل، وهو القرآن الكريم، وسنة نبيه الكريم.

ولقد قسم الباحثون المتصوفة والزاهدين الى مدارس التي انتشرت في العالم الإسلامي خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين منها :

مدرسة البصرة:

هذه المدرسة تعتمد على تعذيب البدن بالصوم، والعبادة، لتطهير النفس، وكبح الملذات، وبإقامة التصوف على أساس ديني عقلي بالاعتماد على القرآن والسنة الشريفة، وسيّرة الخلفاء والصحابة، وأبرز شخصية كانت في هذه المدرسة هو الحسن البصري (ت ١١٠هجريه)[١] وابتعد أصحاب هذه المدرسة عن الاشتغال بالسياسة.

لقد قامت هذه المدرسة بدور هام في الحياة الدينية والاجتماعية وكثر روادها وتلامذتها وتخرج منها العديد من العلماء في التصوف وعلم الحديث والفقه.

وركزت على منهجية شيخها البصري والاهتمام بموضوع الجنة والنار ويقال أن سبب اهتمامه بهما خوفه الشديد من عقاب الله عزوجل وأطلق عليهم طائفة الخائفين وكانت خشية البصري على أهل البصرة مما أصابهم من تفرقة ودسائس وفتن كما أصاب المجتمع الإسلامي ككل.

كما أطلقت عليهم تسمية البكائين لكثرة البكاء معتقدة بأنه لا يمكن غسل الذنوب إلا بالدموع.

ومن أقوال البصري في هذه الخشية والبكاء في حياته:

"والله يا بن آدم لئن قرأت القرآن وآمنت به ليطولن في الدنيا حزنك وليشتد خوفك وليكثر بكاؤك"[٢]

1- الحسن البصري (ت ١١٠): أبوه من ميسان في البصرة فسبي وهو مولى للأنصار من رؤوس العباد والأخيار، قيل عنه: أنه حليف الخوف والحزن أليف الهمّ والشجن عديم النوم والوسن، وقال: التصوف التنقية من الدّرن، والتوقية من الدخن، والتوفية من البدن للتبقية في العدن، وقيل: ما سبب لبسك للصوف ؟ فسكت، فقيل له: أفلا تجيب ؟ قال: إن كنت زهدا زكيت نفسي، أو فقرا وضيقا شكوت ربي. (طبقات الصوفية – الكواكب الدرية – ج:١ – ص: ٢٦١)

2- المذاهب الصوفية ومدارسها – ص: ١٦٤.

مدرسة الكوفة :

كان يعتمد أصحاب هذه المدرسة على السياسة، وهذه المدرسة متأثرة بالثقافة الآرامية، وهي امتداد للفكر الشرقي. ومزيج من العقائد، والفلسفات الأخرى اليونانية، والشرقية.

كما كانت متأثرة بالمذهب المانوي، وجذوره الشرقية، ومن أشهر رواد هذه المدرسة طاووس بن كيسان[1] من أهل اليمن (ت ١٠٥) وكان أول من سميّ بالصوفي هو جابر بن حيان (أبو هاشم الكوفي) وبعد ذلك انتشرت المدارس، والمذاهب الصوفية، وترافقت مع ظهور علم الحديث، والفقه، واللغة،وكان منهم سفيان الثوري[2] لعلوم الحديث وتدرج التصوف من زهد بسيط بدون قواعد، وعلوم، وأصول إلى علم شامل، وقواعد، وعلوم، وأصول إلى علم شامل، وقواعد يرتكز على الأوصاف الدينية مستندا إلى قواعد العبادة، وعلوم الشريعة الإسلامية تسودها أساليب الرياضة، والمجاهدة، وتنوعت الاتجاهات الصوفية.

وعندما ظهرت الفتن والحروب في الإسلام، قامت هذه المدرسة بدورها في الحياة العقلية والروحية، وتطورت من حركة الزهد إلى حركة التصوف، واعتمدت على التراث الإسلامي، والحفاظ عليه وهذا ما يؤكد عدم تأثر هذه المدرسة بالتصوفات الشرقية الأخرى، ومن الشخصيات اللامعة في التصوف في هذه المدرسة[3]:

1- طاووس بن كيسان (٣٠- ١٠٦ هجري): هو عبد الرحمن الحميَري اليّماني التابعي الكبير، فقيه متعبد أدرك خمسين صحابيا، أصله من الفرس، وأمه حمّيرية، يسكن في مدينة الجند، ويتردد إلى صنعاء، وقال في عبادته، وروعه، وهو يعظ الناس (لا تنزل حاجتك بمن يغلق دونك بابه، ويجعل دونها حجابه، بل أنزلها بمن بابه لك مفتوح، وفضله لك ممنوح، وأمرك أن تدعوه، ووعدك بالإجابة، وبالفتوح) طبقات الصوفية – ج: ١- ص:٣٣٦.

2- سفيان بن سعيد الثوري: سيد الحفّاظ، أمير في الحديث عالم الأمة في القدم والحديث والورع الزاهد، والعفة عريفةُ والفقر تشريفةُ من كلامه (قال: إذا فسد العلماء، فمن يصلحهم) وقال:العالم طبيب الدين، والدّرهم دّاءُ الدين، فإذا جرهُ الطبيب إليه، فكيف يداوّي غيَرهُ. (طبقات الصوفية – الكواكب الدرية – ج:١- ص: ٣٠٣)

3- المذاهب الصوفية ومدارسها – ص: ١٦١

- سلمان الفارسي.
- حذيفة بن اليمان.
- مسروق بن عبد الرحمن الكوفي - ويلقب براهب الكوفة.
- الأسود بن يزيد.
- سفيان الثوري.
- داود الكائي.

مدرسة رابعة العدوية:

تتفرد هذه المدرسة بأن مؤسستها هي سيدة أطلقت تسمية عليها سيدة الحب الإلهي " رابعة العدوية " فأختلف الباحثون والمستشرقون حول نسبها إلى أصول فارسية، أو مسيحية، وهذا دليل آخر على من يريد تشويه التصوف الإسلامي، وتأثره بالتصوفات والرهبنة للديانات الأخرى، كالتصوف الهندي والفارسي.

ولكن ترجح المصادر العربية بأنها عربية من قبيلة قيس.

ولما أصاب البصرة في تلك الفترة القحط . فقد انتشرت اللصوصية وتجار الرقيق ولم يكن لرابعة العدوية إلا أخوات فوقعت في أيديهم وقد بيعت بستة دراهم وازداد عذابها من قبل سيدها . وكانت مؤمنة وصابرة . ومغرقة في صلاتها وتقول "الهي أنت تعلم أن قلبي يتمنى طاعتك ونور عيني في خدمتك ولو أن الأمر بيدي ما انقطعت لحظة عن مناجاتك ولكنك تركتني تحت رحمة هذا المخلوق القاسي"[١]

ومن أبياتها المشهورة تقول:

أحبك حبين حب الهوى	*وحبا ، لأنك أهل لذاكا*
فأما الذي هو حب الهوى	*فكشفك لي الحجب، حتى أراكا*
وأمّا الذي أنت أهل له	*فلست أرى الكون، حتى أراكا*

1- المذاهب الصوفية ومدارسها – ص: ١٦٦

وتعتبر رابعة العدوية أستاذه علم النفس الصوفي بلا منازع، إذ عرفت النفس البشرية، وطبيعتها، وعوامل اعتلالها، وعوامل شقائها إذا مرضت.

ومن خلال تلك المدارس التي مر ذكرها ظهرت شخصيات صوفية لامعة في الفكر الإسلامي الروحي[1]:

- عامر بن عبد قيس صاحب الثورة الروحية.
- الأحنف بن قيس: منهجه العلمي مبني على محاسبة النفس.
- فرقد بن يعقوب السنجي: الزاهد الأرمني المسلم.
- حبيب العجمي: الصوفي الفارسي.
- مالك بن دينار[2] ومحمد بن واسع وثابت بن مسلم البناني. وأيوب السختياني، وهم من الوعاظ العباد في مدينة البصرة.
- عبد الواحد بن زيد: أول محب عفيف وهو من الزهاد.
- عينة الغلام: المحب الشهيد.

مدرسة بغداد:

ظهرت في القرن الثالث الهجري، وقد أسّسها أبو عبد الله الحارث المحاسبي (ت٢٤٣) ومن أتباع هذه المدرسة أبو القاسم الجنيد (ت ٢٩٨) وأبو حمزة البغدادي (ت ٢٨٩) وأبي الحسن السقطي (ت ٢٥٣) ومن سمات هذه المدرسة

١ – التوحيد، ومسائل المعرفة، والمحبة الإلهية.

٢ – حالات الشوق، والوجد، والقرب ورؤية الله تعالى في الدنيا والآخرة، وتقوم هذه المدرسة على أسلوب التحليل لأسس العبادة حيث يقول (أساس العبادة الورع، وأساس

1- المذاهب الصوفية ومدارسها – ص: ١٧٢.

2-- مالك بن دينار(ت ١٣١ هجري): وهو عالم ليس له نظير، قدوة في معرفة التصوف، كان لشهوات الدنيا تاركا، وللنفس عند غلبتها مالكا، فيقول: من غلب شهوته، فذاك الذي يفرّ الشيطان من ظله، وقيل له: ماذا قدمت به على الله، قال: قدمت بذنوب كثيرة محاها حسن الظن بالله تعالى. طبقات الصوفية – ج: ١- ص: ٤١٨.

الورع التقوى، وأساس التقوى محاسبة النفس، وأساس المحاسبة الخوف والرجاء، والخوف والرجاء يرجعان إلى العلم بالوعد والوعيد، يرجع إلى تذكر الجزاء، وتذكر الجزاء يرجع إلى الفكر والاعتبار)[١]

واتخذ المحاسبي طريقة خاصة سمي "المحاسبي"[٢] وهي إخضاع الأعمال، والأفكار ومدى صدقها، ومراعاتها لحقوق الله، والإيمان بالله أساسا لكل هذه الاتجاهات، ولا يستند على العقل بتفسيره للخير والشر وأنه غير كاف، ولكن يحصل بالمجاهدة، والفوائد الروحية.

وظهر أعلام من هذه المدرسة، وألمع هذه الشخصيات الصوفية[٣]:

- أبو هاشم الزاهد: وهو أول من لقب بالصوفي ولباسه الصوف.
- منصور بن عمار: اهتم بالأخلاق والكرامات.
- معروف الكرخي[٤]: منهجه الحب ممتزجا بالولاية.
- بشر بن الحارث الحافي[٥]: ومنهجه التصوف والزهد مع العمل.
- الحارث المحاسبي: الاعتماد في منهجه على الكتاب والسنة.
- سري السقطي: منهجه الحب وعلاماته الانقطاع لله.

1- التصوف الثورة الروحية – ص: ٨٩.

2- الحارث بن أسد المحاسبي البصري (ت ٢٤٣): سميّ بالمحاسبي لكثرة محاسبة نفسه، وربما كان له حَصَى كان يَعدُها، ويحسبها حال الذكر، أو لغير ذلك، وقال عن التصوف: الأخذ بالأصول، وترك الفضول، واختيار ما اختاره الرسول كان عالماً وأستاذ السائرين في أوانه عالم سار نبأ فضله، وصوفي طار نبل نبله، وكان إمام المسلمين في الفقه، والتصوف، والحديث، والكلام، وقال أيضا: عن التصوف تفاوت الناس في الزهد على قدر صحة عقولهم، وطهارة قلوبهم، فأفضلهم أعقلهم، وأفهمهم عند الله.(طبقات الصوفية – ج: ١– ص:٥٨٨).

3- المذاهب الصوفية ومدارسها- ١٧٣

4- سبق التعريف به.

5- بشر بن الحارث (ت ٢٢٧ هجري): عاش في بغداد كان عذب الكلام، طلق العبارة عديم النظير زاهداً، ورعاً، وصالحا.قال: الفقراء ثلاثة فقير لا يسأل، وإن أعطي لا يأخذ، فذاك من الروحانيين، وفقير لا يسأل، وإن أعطى قبل، فذاك من أوسط القوم، وفقير اعتقد الصبر ومُدافعةَ الوقت، فإذا طرقته الحاجة خرج لإخوانه، وقلبه إلى الله بالسؤال، فكفارة مسألته صدقُهُ في السؤال.

وأخذت جماعة أخرى من العلماء من العقائد الفلسفية والأفكار الفارسية والبوذية وإدخالها بالصيغة الإسلامية وأطلقوا على أفكارهم هذه الشطحات وقد تعرضوا من وراء ذلك إلى التعذيب والقتل مثل (أبو يزيد البسطامي والحلاج). وهذا ما جعل الهجوم على الفكر الصوفي يشتد منذ ذلك التاريخ عندما استعاروا هذه الأفكار مع أن التصوف يعتمد على القرآن والسنة.

◆ **الحسين بن منصور الحلاج (قتل في عام ٣٠٩)[1]:**

أصله من بيضاء، فارسي، نشأ في واسط، صحب الجنيد والنوري، صوفي أضاء في أفق المشرق بدره ثم اشتهر في أقطار المغرب ذكره، وله خوارق سيوفها مجردة وعجائب أسنتها محددة، وسبب تسميته بالحلاج أنه قعد على باب دكان حلاج و بها مخزن من قطن غير محلوج فذهب صاحب الدكان لحاجة ثم رجع فوجد القطن كله محلوجا، فأشتهر بذلك وكان من أهل الشطح وسبب قتله أنه وجد كتاب بخط يده عنوانه (من الرحمن الرحيم إلى فلان بن فلان) فوجه إلى بغداد فأحضر وعرض عليه فقال: خطي، فقالوا: أتدعي الربوبية؟ قال: لا ،ولكن هكذا عين الجمع ما الفاعل إلا الله وأنا، فاليد آلة. أما ابن خلكان فيقول: لم يثبت عنه ما يوجب القتل أبدا وإنما، عندما وضع في المحنة، وقام معه غالب العامة، خاف المعتضد، فجعل الأمر للوزير، فعقدوا مجلسا، واتفقوا على قتله بغير ثبوت، فقطعوا يدية ورجليه، ثم جُزّ رأسه.

مدرسة نيسابور:

- ظهرت فيها فرقة (الملامتية) وهذه المدرسة التي انتقلت من " بلخ " في خراسان وكانت تسّم متصوفتها، بأنهم قد تأثروا بالديانة الزرداشتية، وإن دعاتها ومتصوفتها هم من المجوس مثل الو اسطي، وهي لا تدعو إلى إبراز الفضائل وإنما إلى تهذيب النفس اللوّامة، وجهاد النفس، والتضحية، والعبودية. واعتمدت أيضا على الجانب الآخر (الفتوة) التي تندرج أيضا بين الفضائل كالكرم، والسخاء، والشجاعة، والتضحية، والإيثار، ومن أشهر دعاة مدرسة نيسابور (أبو حفص الحداد – حمدون القصار)

1- طبقات الصوفية – ج:٢ – ص: ٦٨- ٦٩.

مدرسة مصر والشام:

وشيخ هذه المدرسة هو ذو النون المصري، ويعتبر المؤسس الحقيقي للتصوف الإسلامي في بلاد الشام، فهو أول من تكلم في الأحوال والمقامات على أساس علمي، واعتبر المعرفة بالله هي غاية المعرفة، والغاية القصوى في طريق التصوف.

وذو النون المصري: هو أبو الفيض - ذو النون ثوبان بن إبراهيم المصري (ت ٢٤٥) وكان أبوه نوبيا، فائق الشأن، وأوحد زمانه علما وورعا وحالا وأدبا سعوا به إلى المتوكل، فاستحضره من مصر، فلما دخل عليه وعظه، فبكى المتوكل ورده إلى مصر مكرما، وكان المتوكل إذا ذكر بين يديه أهل الورع يبكي، ويقول (إذا ذكر أهل فحيهلا بذي النون، وكان ذو النون رجلا نحيفا تعلوه حمرة، وليس بأبيض اللحية، وسئل عن السفلة فقال: "من لا يعرفون الطريق إلى الله، ولا يتعرفونه".

(إنه بمقدار ما يعرف العبد من ربه يكون إنكاره لنفسه، وتمام المعرفة بالله تمام إنكار الذات)[1]

ويعتبر ذو النون المصري متأثرا بالفلسفة الافلوطنية المحدثة في مصر

ويقول ذو النون المصري في التوحيد (هو أن تعلم أن قدرة الله في الأشياء، بلا مزاج وصنعه للأشياء، بلا علاج، وعلّه كل شيء صنعه، ولا علة لصنعه، وليس في السموات ولا في الأرضين السفلى مدبر غير الله، وكل ما تصور في وهمك، فالله بخلاف ذلك)[2]

يقول ذو النون المصري في الحب الإلهي[3]:

أموت وما ماتت إليك صبابتي	*ولا قضيت من صدق حبك أوطاري*
مناي المنى كل المنى أنت لي منّ	*وأنت الغنى كل الغنى عند إقتاري*
وأنت مدى سؤالي وغاية رغبتي	*وموضع آمالي، ومكنون إضماري*
تحمل قلبي فيك مالا أبثه	*وإن طال سقمي فيك أو طال أضراري*
وبين ضلوعي منك ما لو قد بدا	*فقد هدّ مني الركن وانبث أسراري*

1- التصوف الثورة الروحية – ص: ٩٢.

2- التصوف الثورة الروحية – ص: ٩٤.

3- التصوف الثورة الروحية – ص: ٢١١.

ويقول ذو النون المصري (ت ٢٤٥) بأن التصوف أحوال، ومعاملة، وكلام الصوفي في حقيقتة الواضحة، وأن علاقاته الدنيوية من متاع، وزخرف، ومتعة منقطعة تماما وأن أحواله، ومعاملاته، وكلامه يدل على ما في داخله قوله :(الصوفي هو إذا نطق كان كلامه عن حاله، فهو لا ينطق بشيء، إلا إن كان هو ذلك الشيء)[1]

وإن تجوال المصري في شمال سورية جعل له أتباعا، ومريدين، وتلامذة. فيقال عنه أنه مدّرسة متجوّلة، وجماعته سرية باطنية من أشهر أتباعه (يوسف بن حسين الرازي (ت ٣٠٤) وبهذا لم يكن هناك تأثر بالنسبة لفرع هذه المدرسة في بلاد الشام بالقرب من دمشق (داريا) بالثقافات والفلسفات الأخرى. فكانت صوفية صرفة، ومؤسس هذه المدرسة. أو فرع من مدرسة ذي النون هو سليمان الداراني[2]، وتمتاز هذه المدرسة بدقة التحليل النفسي للزهاد في لحظات قربها عن الله عز وجل.

وأخذ علومه على يد أستاذه سفيان الثوري في مدرسة الكوفة وعلى يد معروف الكرخي في مدرسة البصرة وكان من أشهر علماء هذه المدرسة بعد الداراني هو قاسم بن عثمان الجوعي وكان يمزج المقامات فمزج الجوع بالمحبة فيقول[3]:

أنت سؤالي وبغيتي وسروري — قد أبى القلب أن يحب سواكا

يا حبيب القلب من لي سواكا — أرحم اليوم مذنبا قد أتاكا

يا مناي وسيّدي واعتمادي — طال شوقي متى يكون لقاكا

ليس سؤالي من الجنان نعيما — غير أني أريدها لأراك

1- المذاهب الصوفية ومدارسها — ص: ١٥.

2- عبد الرحمن بن عطية بن سليمان الداراني (ت ٢٢٥): من قرية داريا، إحدى قرى دمشق، ومن أقواله لكل شيء صدأ، وصدأ نور القلب شبع البطن، وقال: كل ما شغلك عن الله تعالى من أهل، أو مال، أو ولد، هو عليك مشؤوم، وهو إمام كبير الشأن في علوم الحقائق، ومعاني بديع البيان، ارتفع قدره، وعلا ذكره، وأصبحت تشد إليه الرحال، ومن أصحاب الكرامات الظاهرة، والأحوال الباهرة، ويقول: من عرف الدنيا عرف الآخرة، ومن لم يعرفها لم يعرف الآخرة.(طبقات الصوفية — ج: ١- ص:٦٦٩).

3- المذاهب الصوفية ومدارسها — ص:١٨٢

المدرسة الرفاعية:

رائدها ومؤسسها الإمام أحمد الرفاعي ابن صالح ولد في عام (٥١٢ هـ) قرب البصرة وينسب إلى جده رفاعة الذي سافر إلى المغرب وعاد إلى مكة ومن ثم إلى البصرة الذي أنجب نجله أحمد في تلك الفترة في العراق.

عمل في جميع الحرف ليضمن لنفسه لقمة العيش حتى لا يعتمد على أحد من الناس وليتمكن من اللحاق بمجالس العلم في أي بلد وكل مكان وجد فيه علماء كان يقتدي بالرسول (ص) في أخلاقه وسلوكه فلم ير قط وهو يأكل أمام الناس ولا ينام أمامهم بل ولم يعرف أحد مكان نومه ولم يخرج قط ولم يتكلم قط من غير سبب ولا يستطيع أحد أن يكلمه من غير سبب ولم يكن يفرح فرح شديدا ولا يحزن حزنا شديدا[١].

فالرفاعي لم يكن بدعا في عدم الادخار اقتداء بالرسول والصحابة والتابعين إلا أن الصوفية بعامة والرفاعي بخاصة يرون أن الادخار يشغل المرء عن عبادة الله إذ يصبح المال حجابا بين العبد وربه. فعدم الادخار إنما هو نوع من إسقاط التدبير مع الله كما يبين ذلك ابن عطاء الله السكندري.

وكان الشيخ أحمد الرفاعي ينفذ قواعده الثلاث يوميا إذ كان يحمل الحطب والماء إلى بيت الأرامل والعجزة والمساكين ويقدم لهم ما يحتاجونه وكان مريدوه وأتباعه يتسابقون في أعمال البر وخدمه المحتاجين. وإن الأمام الشعراني يقول لقد جعل أحمد الرفاعي من أم عبيده مكانا لا يحس الفقير فيه بأزمته فيما يحتاج إليه ولقد انتشر هذا الأمر من أم عبيده إلى القرى والمدن التي تجمع فيها أتباع الرفاعي.

ليس في الطريقة الرفاعية تبطل. أو انعزال. أو سلبية إنما خدمة الناس. والمريد الصادق هو العامل المجاهد. وعلى الرغم من السيد الرفاعي ضيق وقت في التعليم ونشر الطريقة وارشاد مريديه وضرورة أن يتفرغ لمسئولياته الثقافية ولم يرض أن يقوم غيره بالعمل عنه.

1- أصول التصوف الإسلامي – ص: ٣١١.

ولقد كان أحمد الرفاعي يأخذ بأيدي العميان ويساعدهم وإذا رأى شيخاً كبيراً ذهب إلى جيرانه وأوصاهم به خيراً وإذا سمع عن مريض في قرية ركب إليه ليعوده وربما كان يمشي إليه ويرجع في يوم أو يومين(١).

لقد كانت كلماته النورانية تدخل إلى القلوب بغير حجاب لأن قلبه العامر بالإيمان كان صافياً من كدورات الدنيا وغواية الشيطان وكان ينصح مريدية ويقول لهم.

وله في الطريق كلام عال، فمنه(٢):

- الزاهد أول قدم القاصدين إلى الله فمن لم يحكم أساسه فيه لم يصح له شيء مما بعده من مقامات.
- لا يصح الأنس بالله إلا لمن كملت طهارته، واستوحش من كل ما يشغله عن الله.
- بلغت إلى مقام إن عصيت قلبي فيه عصيت الله.
- من كان سروره بغير الحق فسروره يورث الهموم ومن لم يكن في خدمة ربه فهو من أنسه في وحشة.
- لا يحصل لعبد صفاء الصدر حتى لا يبقى فيه شيء من الخبث. لا لعدو أو لصديق.

وهذه المرتبة التي يتكلم عنها الإمام الرفاعي ليست إلا المرتبة الدنيا في الولاية إذا أن الولي الصادق لا يحمل في قلبه حسداً. ولا حقداً. ولا عداوة لأحد إذ أن قلبه سليم من كل العداوات ولذلك فإن ظاهرة كباطنه وباطنه كظاهرة.

أما العامة من الناس فيكون ظاهرهم أفضل من باطنهم فإذا أخلص العبد وأصدق النية وتجنب الرياء والكذب فإنه يرتفع إلى مرتبة الولاية الصغرى فيكون قلبه وعقله ونفسه جميعاً في توافق واتساق فإذا اشتد إخلاصه كان باطنه أفضل من ظاهره.

ولم يكن ذلك الطريق الذي انتهجه الرفاعي شاذاً عن السنة الشريفة فإن الرسول ((ص) يقول :(إن في الجسد لمضغة (القلب) إذ صلحت صلح الجسد كله) رحم الله الرفاعي فقد كان قطباً من أقطاب الإسلام ومثلاً يحتذى به في الفكر والسلوك والأخلاق.

1- أصول التصوف الإسلامي – ص: ٣١٤.

2- طبقات الصوفية – ج: ٢- ص: ٢٢٠.

ويقول أيضا[1]: الرجاء ارتياح القلب لرؤية كرم المرجو، والزهد سلو القلب عن الأسباب، ونفض الأيدي من الآمال، وحقيقته التبرئ من الدنيا، ووجود الراحة في الخروج منها، والقناعة الاكتفاء بالبلغة، وحقيقتها ترك التشوق إلى المفقود والاستغناء بالموجود.

وأعتمد على القرآن والسنة وكان شعاره في المدرسة " طريقي دين بلا بدعة وهمة بلا كسل وعمل بلا رياء وقلب بلا شغل ونفس بلا شهوة"[2]

وقد قسم تلامذته إلى (مريدين – شيوخ – خلفاء) ولكل من هؤلاء شروط للوصول إلى تلك المراتب.

مات رضي الله عنه ببلده سنة ثمان وسبعين وخمس مئة للهجرة.

المدرسة البدوية[3]:

مؤسسها أحمد البدوي في مدينة طنطا وقد ولد في مدينة فاس (٥٩٦ هـ) ويرجع نسبه إلى الإمام علي بن أبي طالب (ر) "واشتهر بالعطاب لأنه كان يعطب من يؤذيه وكان لا يكشف اللثام عن وجهه فقال له أحدهم: أرني وجهك فقال له: كل نظرة برجل. فقال: أرنيه ولو مت. فكشفه فمات الرجل حالا"[4]

– تعلم البدوي الفقه على مذهب الإمام الشافعي و تعلم في المغرب على المالكية وتردد بين مكة والمدينة وعزف عن الزواج وكانت حياته كلها تعبد ا . وأراد أن يكون متعلما وليس معلما.

وقد رحلت أسرة البدوي إلى مكة وهو ما يزال صبياً لم يجاوز السابعة من العمر ولكن يبدو أن هذه الرحلة تركت أثراً كبيراً في تكوين شخصية البدوي لان أهله قد مروا بمصر ومكثوا بها أكثر من خمس سنوات ويبدو أن البدوي خلال إقامته بمصر قد أحب أهلها بدليل رجوعه إليها والإقامة بها بعد ذلك فتلقاه الظاهر بيبرس بعسكره، وأكرمه وعظمه

1- طبقات الصوفية – ج ٢- ص: ٣١٥.

2- المذاهب الصوفية ومدارسها – ص: ١٨٦.

3- المذاهب الصوفية ومدارسها – ص: ١٨٩.

4- طبقات الصوفية – ج:٤ – ص: ٣٨٨.

ودخلها سنة أربع وثلاثين، وفي مكة أشتهر السيد البدوي وعرف أهلها ثم حدث له حال وتغيرت أحواله واعتزل الناس ولزم الصمت وكان لا يتكلم إلا بالإشارة وفيما يروى عنه أنه أمر في منامه أن يرحل إلى طنطا وبشر بحال سيكون له فيها شأن عظيم

والسيد البدوي كان من أصحاب الفراسات. وله أسماء كثيرة ونذكر منها أنه سمي بالسيّد وهو أجلُّ القوم شُهرة لانتمائه إلى النبي (ص) ولزعامته. ورياسته كما سمي بالقطب النبوي. كما سمي بالزاهد لزهده إذ مات ولم يترك شيئاً.

وللسيد أحمد البدوي سمات وصفات عديدة منها أنه كان ملازماً للصيام وكان يطوي أربعين يوماً لا يذوق فيها طعاماً ولا شرابا واشتهر عنه قوله (ركعتان بالليل خير من ألف ركعة بالنهار).

وكان البدوي من العباد الذين اختارهم الله لإجراء الخير على أيديهم من تيسير مصلحة المسلمين أو خلاف ذلك ويبدو أن هذا ناتج عن أخلاقه العربية إذ كان من عرب البادية الذين يعتزون بشخصيتهم وكرامتهم وإذا كان الأنبياء الله معجزات فإن لأوليائه سبحانه وتعالى كرامات ومن كرامات البدوي أنه مر برجل يحمل قربه لبن فأومأ إليه بإصبعه فانكسرت القربة وانسكب منها وخرجت منها حية وقد انتفخت وهذا دلالة على أنه كان من أهل البصيرة النافذة.

وهناك كرامات لـ " أحمد البدوي " لا تحصى، ولا تعد موجودة بالمراجع وكتب الصوفية إذ مثل شفاء المرض وتفريج الكروب ونصرة المظلوم، وقضاء الحاجات إلى غير ذلك، وتعد الجامعة التي أنشأها السيد البدوي التي يمكن أن ندعوها الجامعة من أكبر أعماله على الإطلاق فقد خرجت ومازالت تخرج حتى الآن الكثير من علماء الفقه والدين الذين أناروا طريق المعرفة والحق والدين

وهكذا نجد أن مدرسة البدوي خرجت منها مدارس جديدة افتتحت لها فروعاً كثيرة في أنحاء المعمورة تهدي الناس إلى الرسالة المحمدية وتدعو إلى الدين الحنيف والفضيلة والحق والأخلاق.

إبراهيم الدسوقي:

هو إبراهيم الدسوقي القرشي الهاشمي توفي عام ٦٧٦ هـ عن (٤٣) سنة وهو شيخ الطريقة البرهانية، صاحب المحاضرات القدسية والعلوم الدينية وهو أحد الأئمة الذين أظهر الله لهم المغيبات وخرق العادات والولاية الراسخة، ولقد عاش الدسوقي حياة غريبة في نوعها فلم يكن ممن يؤثرون الاحتراف والعمل فحسب بل كان ذا ميل شديد إلى المعرفة باحثاً عن الحقيقة مجاهداً في طريق الحق،" انتهت إليه رئاسة الكلام على خواطر الأنام، وكان يتكلم بجميع اللغات: عجمي، سرياني، وغيرها، ويعرف لغات الوحش والطير"[1].

لقد حفظ القرآن وتفقه فيه وتعمق في الفقه ويروى أنه حفظ أحاديث الرسول(ص) ولم يكن قد تجاوز الثانية عشر من عمره يقول الدسوقي عن نفسه: قد وليت القطبانية، فرأيت المشرقين والمغربين وما تحت النجوم وصافحت جبريل عليه السلام.

وهكذا نجد أن العصر الذي عاش فيه كان عصراً زاخراً بالعلم والمعرفة إذا اجتمع فيه أقطاب كثيرون . وعلى رأسهم البدوي والدسوقي، وهذا أن دل على شيء ، فإنما يدل على أن الدعوة الإسلامية واحدة، وأن الطريق الصوفي واحد ، وأن أسلوب العمل واحد ، وأنهما كانا يدعوان إلى توحيد صفوف المسلمين وإنهما سارا على نهج واحد مهتدين بكتاب الله مقتدين بالأسوة الحسنة رسول الله (ص).

وللدسوقي كرامات عديدة منها:

- أنه أرسل ذات يوم أحد مريديه إلى الإسكندرية لشراء بعض الاحتياجات فتشاجر هناك مع أحد الباعة وحضر الشرطي وقاده إلى القاضي وكان جباراً يكره الصوفية فحبسه ولما علم الدسوقي أرسل إلى القاضي أبياتاً من الشعر فجمع القاضي أصحابه وسب الدسوقي، وقال لأصحابه انظروا ما كتب إلى مدعي الولاية وقرأ عليهم القصيدة، وهو يسخر، ويضحك حتى تلى تلك الأبيات[2]:

1- طبقات الصوفية – ج: ٢- ص: ٣٢٠.

2- أصول التصوف الإسلامي – ص:٣٢٥.

سهام الليل صائبة مرامي إذا وقرت بأوتار الخشوع
يقومها إلى المرمى رجال يطيلون السجود مع الركوع
بألسنة تهمهم في دعاء بأجفان تفيض من الدموع
إذا وترن ثم رمين سهماً فما نعني التحصّن بالدروع

وعندما وصل في القراءة إلى (إذا وترن ثم رمين سهماً) خرجت من الورقة سهم إلى قلب القاضي ومات في الحال.

والواقع أن شهرة الدسوقي رضي الله عنه تزداد مع الزمن انتشاراً يهرع إليه في الوقت الحاضر كثير من الزائرين ومن المتوسلين بشفاعته في سيل لا ينقطع صباحاً ومساءً ونجد مسجده الذي يتوسطه ضريحه يزداد مع الزمن اتساعاً وعمارة.

- ومن كراماته أنه " خطف تمساح صبيا فأتته أمه مذعورة فأرسل نقيبه، فنادى[1] بشاطئ البحر : معشر التماسيح من ابتلع صبيا فليطلع به، فطلع، ومشى معه إلى الشيخ فأمره أن يلفظه، فلفظه حيا، وقال للتمسساح : مت بإذن الله، فمات"

ومن أقوله في التصوف[2]:

- ما كل من خدم يعرف آداب الخدمة، وحفظ الحرمة، ولذلك كثر المرتدون عن الطريق.

- ما أعز الطريق، وما أعز طلابها، وما أعز من يصدق في طلبها، وما أعز الدال عليها.

- الإنكار يورث الوحشة، وهي تورث الانقطاع عن طريق الله.

- احذر أن تدعي معاملة خالصة مع الله، فإن صمت فهو صومك، وإن قمت فهو أقامك، وليس لك في الوسط شيء، بل الشأن أن ترى أنك عبد عاص، ليس له حسنة واحدة، وأنىّ لك حسنة، وهو الذي أحسن إليك، وإن شاء ردّ عليك..

1- طبقات الصوفية — ج: ٢- ص: ٣٣٠.
2- طبقات الصوفية — ج:٢- ص: ٣٢٢- ٣٢٤.

- ولد القلب خير من ولد الصلب، فإن ولد الصلب يرث الظاهر، وولد القلب إرثه السرائر.
- إذا أحبك ربك أحبك أهل السماء والأرض، وأطاعك الجن والإنس والماء والهواء.

❖ كان الدسوقي عظيم الشطح في أشعاره وأقواله التي جمعها في كتاب " الجوهرة" نذكر من هذه الأبيات:

سقاني محبوبي بكأس المحبــــة   *فتهت على العشاق سكرا بخلوتي*
ولاح لي نور الجـلالة لو أضـــا   *لصمّ الجبال الراسيـــات لدُكتِ*
وكنت أنا الساقي لمن كان حاضرا   *أطوف عليهم كرّة بعــد كــرّةِ*

المدرسة الشاذلية:

أسسها أبو الحسن علي الحسن الشاذلي الحسيني ولد في قرية عمارة في المغرب (ت:٦٥٦ هـ) وهو أمام. وقطب الطريقة الشاذلية. وعميدها. ومؤسسها بدأ حياته باحثاً عن المعرفة حافظاً للكتاب والسنة ملازماً لمجالس العلم حتى بهر الناس بعلمه الغزير وأصبح يناظر الناس في السنة والعلوم الشرعية وصار يناظر عليها مع أنه كان ضريرا ثم سلك منهاج التصوف والتقى بابن مشيش. وكان له أثر كبير عليه وقال له مرة (حدد في قلبك الإيمان تجد الله في كل شيء)[1] وعند كل شيء ومحيطاً بكل شيء وتوقع كل شيء، وقريباً من كل شيء وتبين معالم مدرسته بلسان أستاذه عندما دخل عليه أحد مريديه فقال له (وظف لي وظائف وأوراد)

فغضب الشيخ منه وقال له (رسول أنا أوجب الواجبات) الفرائض معلومة والمعاصي مشهورة. فكن للفرائض حافظا. وللمعاصي رافضاً، أحفظ قلبك من إرادة الدنيا. وحب النساء. وحب الجاه. وإيثار الشهوات. واقنع من ذلك كله بما قسمه الله لك إذا خرج لك مخرج الرضى. فكن لله فيه شاكراً. وإذا خرج لك مخرج السخط. فكن عنه صابرا، وعلى هذا المنهج سار أبو الحسن الشاذلي. وكان ينصح مريديه دائماً بالاعتدال. والقاعدة العامة عنده (اعرف الله. وكن كيف شئت).

1- أصول التصوف الإسلامي – ص: ٣٢٩

لأن من عَرَفَ ربَّهُ تعلق قلبه به . وامتلأ بحبه فلا يتأتى منه إلا الفضيلة . لذلك نرى أبا الحسن الشاذلي في الجانب المادي البشري غير متزمت في المأكل والمشرب، يحب الخيل ويقتنيها . ويركبها فارساً . ويركبها في المواسم الدينية كثرت صور كفاح أبي الحسن الشاذلي في الخدمة العامة . وفي الخدمات للمظلومين والشفاعة عند الحكام مدافعاً . ومحامياً حتى قال ابن دقيق العيد في ذلك (جهل ولاة الأمور بقدر الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه لكثرة تردده في الشفاعات)

ونلاحظ أقواله تدل على اعتداله في الزهد[1]:

- أربع لا ينفع معهن علم: حب الدنيا، ونسيان الآخرة، وخوف الفقر، وخوف الناس.
- لا كبيرة عندنا أكبر من الدنيا وإيثارها على الآخرة والمقام على الجهل بأحكام الدين.
- لا تسرف بترك الدنيا فتغشاك ظلمتها وتحن أعضاؤك إليها فترجع لمعانقتها بعد الخروج عنها إما بالهمة أو الفكر أو الإرادة.
- من النفاق التظاهر بالشيء والله يعلم من سريرتك غيره ومن الشرك الخفي اتخاذ الشفعاء دونه تعالى ولن تخلص من ذلك إلا بجعل الوسائط طريقا إلى الله من غير وقوف معها

ويعد أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه صاحب مدرسة في التصوف الإسلامي، وقد علم تلامذته الذين انتشروا في مشارق الأرض ومغاربها أن الأساس الأول للوصول إلى القرب من الله، وهذا المنهج الذي اتبعته المدرسة الشاذلية، قد ملأ الأفاق علما وأيمانا غزيرا بالله الأمر الذي نشر الدعوة لعبادة الله في أنحاء المعمورة فدخلت طوائف عديدة في الإسلام عن طريق المدرسة الشاذلية التي دعت إلى الحب والرحمة والإيثار، وهي منابع أصلية في شريعة الإسلام.

المدرسة الجيلانية:

أسسها الشيخ عبد القادر الجيلاني ويعتبر أحد شيوخ الصوفية الكبار والأربعة العظام (الرفاعي – الجيلاني – البدوي – الدسوقي) وقد قامت هذه المدرسة في المغرب العربي وامتدت جذور هذه المدرسة الى العراق وتركيا واليمن ومصر لنشر الدعوة الإسلامية.

1- طبقات الصوفية – ج:٢- ص: ٤٨٠- ٤٨١.

ولد الشيخ عبد القادر الجيلاني عام ٤٧٠ أو ٤٧١ هجري على ما رواه بعض المؤرخين بجيلان أو كيلان أو جيل وهي قرية بشاطئ دجلة على بعد ٢٠- ٢٥ ميل من بغداد .

قالت أمه لما كان رضيعاً كان يرفض الارتضاع في نهار شهر رمضان الكريم وكان سنه في ذلك الوقت أقل من عام وقد نشأ نشأة صالحة في العلم والخير

كان على صغر سنه يحضر مجالس العلماء والفقهاء وكان بعضهم يجله إجلالاً عظيماً ويقول لمن حضر بالمجلس قوموا لولي الله وربما كان يمشي إليه بعض العلماء ويتلقاه بالترحاب، ولا ينطق إلا حقاً وصدقاً يروي أنه ذهب مرة مع ابن السقا وكان من أصحاب النظارة كما كان معهم عالم آخر يدعى عبد الله لزيارة بعض الأولياء المشهود لهم بالصلاح ببغداد وفي الطريق قال ابن السقا : اسأله سؤالاً لا يدري له جواباً وقال عبد الله أسأله عن مسألة فأنظر ما يقول، أما سيدي عبد القادر فقال معاذ الله أن أسأله شيئاً وإنما أذهب للتبرك به فلما دخلوا جميعاً إلى مجلس الولي الصالح قال الولي لابن السقا : ويلك يا أبا السقا أتريد أن تسألني عن مسألة لا أعرف لها جواباً ... هي كذا وجوابها كذا .. أني لأرى نار الكفر تلتهب فيك وأنت يا عبد لله تريد أن تسألني وتنظر ما أنا مجيب .. هي كذا .. لتحزن عليك الدنيا إلى شحمه أذنيك بإساءة أدبك .

أما أنت يا شيخ عبد القادر لقد أرضيت الله ورسوله بأدبك وسيكون لك شأن عظيم وفعلاً ظهرت للشيخ عبد القادر إمارات المقرب من الله وأقر العلماء بفضله وعلمه وأجمع عليه العام والخاص من الناس أما ابن السقا فبرع في العلوم الشرعية وفاق فيها أهل زمانه وبعث إلى ملك الروم رسولاً ففتن بابنته وأبى الملك أن يزوجها له إلا إذا تنصر فمنتصر وزوجه إياها وصدقت فيه بنوءة الشيخ أما عبد الله فأكره على نظارة الأوقاف وأقبل بعدها على الدنيا إقبالا شديداً وصدق فيه قول الولي الصالح تكلم الشيخ الجيلاني على الناس ناصحاً وواعظاً عاماً من سنه ٥٢١ هـ الى ٥٦١ هـ وكانت مدرسته يؤمها خلق كثير . ويحضر مجلسه العلماء والمشايخ وغيرهم ويقرأ بمجلسه القرآن بلا ألحان وكان يدون ما يقول أربعمائة عالم ويروى أنه كان يخطو على رؤوس الناس خطوات وهو بالمجلس ثم يرجع إلى كرسيه مرة أخرى .

ومن أقواله في التصوف[1]:

- من عرف من أين جاء عرف إلى أين يصير وهنا أسرار لا تفشى.
- الهمة أن يتعرى العبد بنفسه عن حب الدنيا وبروحه عن التعلق بالآخرة وبقلبه عن إرادته غير مراد ربه وبسره عن لمح الكون، أو خطوره بباله.
- ما دمت تراعي الخلق لن تهتدي لعيب نفسك، وما دمت تراعي نفسك فأنت محجوب عن ربك.
- الاغترار بصفاء الأوقات في طيه آفات.

ويرى الشيخ عبد القادر الجيلاني أن يسلك المريد الطريق بأمور أهمها:

١ـ أنه يتوجب على المريد أن يعرض عن الدنيا ويقبل على الآخرة.

٢ـ ثم عليه بعد ذلك أن يعرض عن الآخرة ويقبل على الحق تعالى فإذا بحثت عنك الدنيا فلا تجدك، وإذا سألت عنك الآخرة، فلا تجدك فيسأل عنك والى أين ذهبت فيقال (ذهب إلى باب الملك) فتجد الدنيا والآخرة في طلبك وتسرعان خلفك وتصلان إليك وأنت عند باب الملك فتشكو الدنيا حالها إلى الملك وتشكو كيف تركت ودائعك وحظك منها.. وهنا تأتي الشفاعة إليك في حقها، وتأتيك الوصية من الملك بالأخذ من الدنيا والنظر إلى الآخرة، فترجع أيها المريد في صحبة الملائكة وأرواح النبيين، فتجلس بعد ذلك على كرسي بين الجنة والنار بين الدنيا والآخرة بين الخلق والخالق بين الظاهر والباطن بين ما يعقل وما لا يعقل وبين ما يدرك مرة وما لا يدرك.

ويرى الجيلاني أنه في هذه الحالة يصير للمريد أربعة وجوه:

١ـ وجه ينظر به إلى الدنيا.

٢ـ ووجه ينظر به إلى الآخرة.

٣ـ ووجه ينظر به إلى الخلق.

٤ـ ووجه ينظر به إلى الخالق.

1- طبقات الصوفية – ج: ٢ – ص: ٢٥٨- ٢٥٩.

فالذي يزهد في الدنيا يكون غريباً فيها ويسمى زاهداً أما العارف فهو غريب عنها أي يزهد في الدنيا والآخرة فلا تشغله الدنيا ولا الآخرة عن ربه عز وجل. ولا يسكن الى شيء سواه . فلا جرم أن يكون غريباً عن الخلق في الدنيا مشغولاً بالحق عن الآخرة فلا تشغله الدنيا والآخرة وهذا معناه أن الله تعالى غطى الدنيا عن نفسه وغطى الآخرة عن قلبه بل غطى وجهه عما سوى الله تعالى فكشف له الأشياء جميعها الظاهرة والباطنة حتى عرضها وفتح له باب قربته تعالى فرأى جلاله وجماله ورأي قضاءه وقدره وملكه وسلطانه.

الكرامات:

تعريف الكرامة: الكرامة ظهور أمر خارق للعادة على يد الولي مقرون بالطاعة والعرفان بلا دعوى نبوة وتكون للدلالة على صدقه وفضله أو لقوة صاحبها أو غيره وهي جائزة عند أهل السنة[1].

وجاء في القرآن الكريم ذكر لهذه الكرامات التي حصلت للأولياء وهم ليسوا أنبياء منها قصة أهل الكهف.

وقصة مريم العذراء حين حملت بلا ذكر وتساقط عليها الرطب من شجرة يابسة، وقبل ذلك عندما كانت تتعبد يأتيها الرزق إلى جانبها فيسألها زكريا أنىّ لك هذا فتقول: هذا من عند الله.

وفي السنة الشريفة ما حدث لجريج الراهب الذي كلمه الطفل الرضيع عندما قال له: يا غلام من أبوك؟.

ويقول سهل ابن عبد الله (أكبر الكرامات أن تبدل خلقا مذموما من أخلاق نفسك بخلق محمود)[2]

ويقول البسطامي في الكرامات (مثل ما حصل للأنبياء عليهم السلام كمثل زق فيه عسل، ترشح منه قطرة، فتلك القطرة مثل ما لجميع الأولياء، وما في الظرف مثل ما لنبينا محمد "ص"[3]

1- طبقات الصوفية — الكواكب الدرية — ج:١- ص: ٥.

2- الصوفية في الإسلام — نيكلسون — ص: ١٢٥.

3- الرسالة القشيرية — ص: ٢٣٧.

إن ظهور الكرامات جائز على الأولياء، وهي علامات صدق، ومن لم يكن صادقا، فظهور مثلها عليه لا يجوز.

ويقول القشيري: من الفروق بين المعجزات، والكرامات أن الأنبياء عليهم السلام مأمورون بإظهارها، والولي يجب عليه سترها وإخفاؤها، والنبي (ص) يدعى ذلك، ويقطع القول به، والولي لا يدعيها، ولا يقطع بكرامته لجواز أن يكون ذلك مكرا، فالكرامات تكون للأولياء، وللأنبياء، وفيما المعجزات للأنبياء، وليس للأولياء، ومن شرط المعجزة اقترانها بالنبوة.

فالكرامة هي تخصيص المرء، وتفضيله، وقد تحصل بدعائه، واختياره، وقد لا تحصل، ومن العلماء ما يجيز إشهار هذه الكرامة، وفريق آخر لا يريد إشهارها، لأن البعض يرى في البوح فيها ذهاب الخوف منه، وحصوله على الأمن، فالنبوة واجبه بالإفصاح، وتأدية الرسالة، وما تأتي بمعجزات وكرامات، أما الولي ليس بواجب عليه الإفصاح عن ذلك من كرامات، فالناس في حاجة إلى النبي، ولكن ليسوا في حاجة إلى الولي بما يخص الدعوة ونستدل على جواز الإفصاح عن تلك الكرامات بنص القرآن الكريم في قصة صاحب سليمان عليه السلام حيث قال (أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك)[1] ولم يكن صاحب سليمان نبيا، ولكنه وليّ.

❖ للأولياء مراتب (حكومة باطن) يرون أن عليها يتوقف نظام العالم رأس هذه الحكومة الأعلى يسمى القطب، وهو أرفع صوفية عصره، وإليه رئاسة الاجتماعات التي يعقدها في انتظام مجلس شوراه الموقر، وأعضاء هذا المجلس، لا يعوقهم عن الحضور حواجز المكان والزمان، وإنما يأتون من أرجاء الأرض في لمحة طرف يعبرون البحار والجبال، والصحارى في يسر بالغ كما يسير أعوام البشر في السبيل الممهد، ودون القطب تقوم طبقات، ودرجات مختلفة من الأولياء، وقد عدّها الهويجري في ترتيب تصاعدي كما يلي:

1- سورة النمل – آية: ٤٠.

" الأخيار الثلاثمائة' فالأبدال الأربعين، فالأبرار السبعة، فالأوتاد الأربعة، فالنقباء الثلاثة، وهؤلاء جميعا يعرف الواحد منهم الآخر، ولا يعمل الواحد منهم، إلا برضى الباقين، وعمل الأوتاد الطواف حول الأرض جميعا كل ليلة، فإن كان هناك مكان لم تقع أعينهم عليه بدت فيه في اليوم الثاني شائبة نقص، فيخبرون القطب حتى يجعل همّه إلى ذلك المكان المشوب، فيبرأ مما أصاب بفضل القطب"[١]

وقال البسطامي: " لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتى يرتقى في الهواء ، فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي، وحفظ الحدود ، وأداء الشريعة"[٢].

وتأتي الرؤيا أيضا نوعا من الكرامات للأولياء . فعن عبد الله بن سعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (الرؤيا من الله، والحلم من الشيطان)[٣] وقال (ص) من رآني في المنام، فقد رآني، فإن الشيطان لا يتمثل في صورتي) وفي الخبر(أصدقكم رؤيا أصدقكم حديثا).

وتحصل الرؤيا بالقلب بورودها خواطر، وأحوال تتصور في الخيال، فيتوهم الإنسان عند اليقظة أنه كان رؤيته حقيقة.

وأعلم أن النوم على أقسام نوم غفلة، ونوم عادة غير محمود، بل هو معلول لأنه أخو الموت، وفي بعض الأخبار المروية النوم أخو الموت)[٤].

وقال عز وجل (وهو الذي يتوفاكم بالليل، ويعلم ما جرحتم بالنهار)[٥].

وكذلك رؤيا إبراهيم عليه السلام كما جاء في القرآن الكريم (يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك)[٦]

1- الصوفية في الإسلام – نيكلسون – ص: ١١٩.

2- الرسالة القشيرية – ص: ٢٦٤.

3- رواه البخاري.

4- الرسالة القشيرية – ص: ٢٤٤.

5- سورة الأنعام – آية: ٦٠.

6- سورة الصافات – آية: ١٠٢.

(والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا، وإن الله لمع المحسنين)[١]

قال (ص): (لا يزال الله تعالى في حاجة العبد، ما دام العبد في حاجة أخيه المسلم)[٢]

يقول الجنيد في الفتوة (الفتوة بالشام، واللسان في العراق، والصدق في خراسان)[٣]

(الفتوة ألا ترى لنفسك، فضلا على غيرك)[٤]

قيل لبعضهم: ما الفتوة؟ فقال: أن لا يميز بين أن يأكل عنده، ولي، أو كافر[٥].

والصوفية لا يفتأون يعلنون عن اعتقادهم في أنفسهم أنهم أمة الله المختارة، وقد أشار القرآن في مواضع عدة منه إلى من هم عند الله (وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار)[٦]

(وإن هذا الاختيار بالنسبة للأنبياء منهم مختارون لعصمتهم، وإلهامهم، ورسالتهم، والأخيار بالنسبة لجماعة خاصة من المسلمين، وهم الأولياء، فهم مختارون لتقواهم وتمسكهم الشديد بالحقائق الربانية، وبهذا فإن الصوفية هم المختارون من جماعة المسلمين، فإن الأولياء هم المختارون من جماعة الصوفية)[٧].

ويقول الله تعالى (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون)[٨]

من الأمور البارزة في أوصاف الصوفية صدور الكرامات عنهم وفي ذلك يقول الكلاباذي: إن المتصوفة (أجمعوا على إثبات كرامات الأولياء) ولكنهم فرقوا بعد إثبات

1- سورة العنكبوت — آية: ٦٩.

2- الرسالة القشيرية — ص:١٤٥.

3- الرسالة القشيرية — ص:١٤٥.

4- الرسالة القشيرية — ص: ١٤٥.

5- يقول بعض العلماء: استضاف مجوسي إبراهيم الخليل عليه السلام فقال بشرط أن تسلم فذهب المجوسي فأوحى الله تعالى إلى إبراهيم الخليل: منذ خمسين سنة نطعمه على كفرة فلو ناولته لقمة من غير أن تطالبه بتغير دينه فمضى إبراهيم عليه السلام على أثره حتى أدركه واعتذر إليه فسأله عن السبب فذكر له فأسلم المجوسي. (الرسالة القشيرية — ص: ١٤٥)

6- سورة ص — آية: ٤٧.

7- الصوفية في الإسلام — نيكلسون — ص: ١١٨.

8- سورة يونس — آية: ٦٢.

المعجزات للأنبياء بين الكرامة والمعجزة فقال بعضهم (أن كرامات الأولياء تجري عليهم من حيث لا يعلمون والأنبياء تكون لهم المعجزات، وهم بها عالمون وبإثباتها ناطقون لأن الأولياء قد يخشى عليهم الفتنة) ولا يحدد الكلاباذي مدى الكرامة أو نوعها بل يقول (أجمعوا على إثبات كرامات الأولياء وان كانت تدخل في باب المعجزات كالمشي على الماء وكلام البهائم وطي الأرض وظهور الشيء في غير موضعه ووقته) وقد أسند الكلاباذي كل ذلك بالأخبار والروايات وآيتين من القرآن هما (أنا إتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك)[1] التي تدور حول نقل عرش بلقيس في طرفة عين.

وقد تنبه ابن خلدون إلى دخول الكرامة في المعجزة والتفت إلى أن الأسفراييني قد منع وقوع الخوارق والكرامة فرارا من الالتباس بالنبوة

ظاهرة الشطح عند متصوفة الأديان:

لقد تحدثنا بإسهاب عن طبيعة الأديان الوضعية، والسماوية، وكانت هناك عناصر مشتركة فيما بينها من حيث الجوهر، والغاية، وربما تختلف في مفردات كثيرة من حيث الزمان والمكان الذي جاءت به، والعوامل التي ساهمت الى حد كبير في إبراز تلك السمات التي ظهرت عند المتصوفة على اختلاف أديانهم ومنها ظاهرة الشطح التي أخذت بالمتصوفة إلى التفوّه بما لا ينطبق مع الواقع، ولا يتسق مع الدين وأساسياته التي جاء بها .

وعندما جاءت الشريعة كان العقل الذي تقبلها ، والذي به عَرَفَ، وتعّرفَ على الرغم أن هناك قصورا للعقل وقصورا في ادراكات الإنسان ، فهل كانت ظاهرة الشطح هذه آفة من الآفات التي دخلت على منهجية التصوف، وآلياته، ومدارسه، وهل كانت لازمة لكي يكتمل التصوف، و بدونه لا يمكن أن يعد تصوفا .

إننا قد رأينا من خلال هذه الدراسة أن التصوف هو مجاهدة النفس، والسمو بها ، والتخلص من الآثام التي يمكن أن تعتري النفس الإنسانية في مسيرة حياتها ، فلماذا لا يكون

1- سورة النمل- آية: ٤٠.

التصوف بمعايير كثيرة هو التزام الصمت، والاقتصار على العمل، وإتقانه، وهذا جوهر العبادة وغايتها، والتصوف، وان حالات الإفلات بالكلام لا يمكن أن تتساوق مع مبدأ التصوف الذي هو طريق إلى حضرة الربوبية، ولا يمكن أن يتبادلا المواقع كما نراه عند بعض المتصوفة المسلمين مثل البسطامي الذي يعبر عن تجليات يعايشها المتصوف ويستجمعها في إشارات يبوح بها في لغة نعجز عن فهمها بموجب مفردات اللغة التي نتداولها فيما بيننا (يصدر الشطح عن الصوفي بفعل حركات تثير أعماقه المحّضة وعندما يزداد عنف الشطح باجتياح أنوار التجلي لهذه الأسرار سيدخل المشطوح، وعيا (ما فوق شخصي) يتمظهر على شكل تصريحات، وكشوفات في الوقت الذي يتخلل عقله في أنوار الإلهام الذي أقامه ليشتعل بنيران الرغبة الجامحة في المحبوب السرمدي على الرغم من وصوله إلى رؤية الحجاب الموضوع على عتبة الجلال كما اصطلحت الصوفية)[1].

فالمدلول اللغوي لكلمة الشطح يرد الى معنى الحركة، فالشطح في لغة العرب هي الحركة، يقال شطح يشطح :إذا تحرك، فالشطح لغة مأخوذة من الحركة لأنها حركة أسرارا لواجدين، ومن هنا نرى أن هناك نوعين من الوجد . الوجد الساكن، والوجد المتحرك، ويفضل الوجد الساكن على المتحرك الذي يحدث إزعاجا وهذا ينطوي تحت لدار العقل الذي ينجم الانفعال، والشطح خارج حدود العقل، ولما كانت عملية الشوق والوجد في أقوى درجاتها هي الشوق مع الله، والاتحاد ، فيصبح المحب، والمحبوب شيئا واحدا في الجوهر، والفعل، وفي الطبيعة، والمشيئة، وأن درجات الشطح تلك تتناسب طرديا مع درجات الاتحاد والحلول، وأن ظاهرة الاتحاد ، والحلول نلاحظها عند معتنقي الأديان سماوية كانت أم غير سماوية، وبنسب متفاوتة، وفيما يتعلق في الجانب الصوفي، ولأن هذه الأديان تشترك في السعي نحو حقائق يبحث عنها ذلك الإنسان ولم يحصل عليها في صيغة الواقع ولو حصل عليها لأصبحت علما قائما بحاله ولكنه لا يحصل ذلك إلا للأتقياء وأصحاب الكرامات التي يتحدث عنها القرآن الكريم.

1- أبو يزيد البسطامي – ص: ٢٦.

ففي الدين الإسلامي تطرق بعض المتكلمين في الفلسفة الإسلامية (الغزالي) الى ظاهرة الشطح، ونظر في دعا ويهم، فقال إن هذه الدعوات انتهت عند بعض الصوفية الى دعوى الاتحاد فيقول: لقد وجد بعض الأدعياء لهذا الشطح مدعاة للتبطل عن طلب الرزق، وتلقف بعض الأغنياء كلمات، وخطبا مزخرفة، ويذكر الغزالي أن ذلك ضرر كبير على العوام الى حد تكفير أصحابها، واستباحة دمهم، فلا فائدة من كلام يشوش القلوب، وهذا ما جاء في الحديث الشريف (ما حدث أحدكم قوما بحديث لا يفقهونه إلا كان فتنة عليهم) [1]

إلا أنه من الملاحظ أيضا أن المتصوفة هم الأتباع، وليسوا من الرسل، وإن درجات الرسل أعلى من درجات الأتباع، والصحابة، فإذا خلصنا الى أن الاتحاد، والحلول كما بينها بعض المتصوفة تحدث لهؤلاء، وهذا مخالف للشريعة، والقدوة الحسنة التي يتسم بها الأنبياء، فلماذا لم تمنح لهم هذه الحالة واتحدوا بالله وإنما كانوا يؤدون الرسالة على أتم وجه، وأكمل صورة، والقاعدة لهم بأنهم من ذوي الخلق الحسن، والخصال الحميدة حتى اصطفاهم عز وجل، وبنفس الملاحظة تلك نلاحظ الأديان القديمة الوضعية بأن دعاة هذه الأديان لم يغالوا في معتقداتهم بقدر مغالاة أتباعهم، ومن لحق بهم، فهل هذا قصور في العقل البشري لكي يستعيض هذا المتصوف عن ما خفي عليه من حقائق، أم أن ذلك يأتي من فيض الهي ينير قلبه، ولكن المعروف إن هذه الاستنارة هي للهداية، والعمل، والسلوك القويم ليس للخنوع والتكاسل عن العمل الذي ربما تدفعه جوارحه لذلك لكي لا يعمل، فهم يؤدون بعض الحركات المجهدة، وأصوات غير مفهومة في حين لا يقومون بصرف هذه القدرات في عمل عضلي، أو فكري تستطيع الأمة، أو الجماعة أن تستفيد منه في حياتها، وحياة أجيالها إلا أن هناك أمرا آخر، فهل كانت ظواهر الشطح في التصوف، وظواهر التصوف بحد ذاتها ربما تعزى إلى أن هذه الطوائف والجماعات هي تريد أن تبعد عن العقل، والمنطق، والفلاسفة الذي يعتمدون على العقل بينما المتصوفة يعتمدون المغالاة في الشريعة، وإذا كان ذلك مسلكهم، فقد وقعوا في المحظور لأن الشريعة جاءت على حاكم العقل، وهنا لا بد أن نشير

1- حديث شريف.

أن قضية التصوف بالنسبة للظاهر في السلوك في عملية الحركة كالشطح تختلف عن عملية التصوف الساكن، وهذا سمو في النفس . والبحث عن الحقائق بالمجاهدات، وهذا ما تدعو إليه الأديان السماوية، فلم يأت المتصوفة بشيء جديد سوى أنهم يطبقون المبادئ التي جاءت بها الأديان وعندما يشطحون عن هذه المبادئ، وإن ابتعدوا عن ذلك لم تكن لتصوفهم، أو شطحهم أية قيمة، وهنا نرى الغزالي كأحد الفلاسفة، والمتكلمين قد شبه العقل بالعين المبصرة كما شبّه الشرع بالشمس التي يغمر نورها الأشياء ، فالعقل للشرع نور على نور ، وكيف يستغنى عن العقل، وبه يعرف الشرع . وإن ظاهرة الشطح في سماتها العامة هي التقرب من الله . ويجب أن نرى الفروق بين الديانات في ظاهرة الشطح والتصوف، ففي الدين المسيحي هذا التقرب محقق فيه، لأنه من اعتقادهم أن الله تجسد في المسيح . اتحاد اللاهوت بالنا سوت، ولم يكن هناك مجاهدة للاتحاد ،وأن اتحاده بالإلوهية بشكل دائم عن طريق السيد المسيح، وهذا ما أثار حفيظة اللاهوتيين الشرقيين لأن ذلك يحد من قدرة الله المطلقة (وحصل الانشقاق الكبير عام ١٠٥٤م عندما بادر البطريرك الى تكفير البابا، ومنذ ذلك الحين انشقت الكنيسة الجامعة "الكاثوليكية " الى كنيستين شرقية وغربية)[1]

وأن أغلب المتصوفة الإسلاميين لديهم الشطح، فالبسطامي يتحدث عن الشطح" إن صدور الشطح عن الصوفي بفعل حركات تثير أعماقه المحضة وعندما يزداد عنف الشطح باجتياح أنوار التجلي لهذه الأسرار سيدخل المشطوح، وعيا (ما فوق شخصي) وقد قتل البسطامي عندما قال " أنا الحق ".

وللحلاج شطحات في رسالته التي لم ينكرها على نفسه التي أدت إلى قتله يقول فيها (من الرحمن الرحيم إلى فلا ن بن فلا ن)

ونجد الشطحات الصوفية في اليهودية عند سيمون فيل (١٩٠٩ – ١٩٤٣)[٢]: وهي فرنسية هجرت تدريس الفلسفة إلى التصوف، وعاشت بين العمال حتى قيل أنها ماتت من

1- الأديان الحية –ص:١٦١

2- موسوعة متصوفة وفلاسفة اليهودية- ص: ١٦٤)

الجوع، ولها شطحات كإدعائها مشاهدة المسيح، وحلوله فيها، ولكنها لم تتحوّل إلى المسيحية، ولم تبق على يهوديتها بحجة أن اليهود أقسى شعوب الأرض، وأنها تعرف ذلك من التوراة والتلمود، وهما كتابان ينضحان بالعنصرية وكراهية اليهود لغيرهم، وحقدهم عليهم، وتفاسير الأخبار معظمها نفاق، وأساسها التعالي عن الإحساس بالنقص الشديد، والدونية، وهي التفاسير نفسها التي ألبت عليهم العالم المسيحي بالذات " محاكم التفتيش وغيرها "

مقتطفات من الشعر الصوفي:

يقال أن الشعر ديوان العرب، وبهذا جمع بين أبياته وسطوره كل ألوان حالات العشق والوجد والمشاعر الإنسانية اللطيفة، فالشعر كان سائدا بين القبائل العربية يحفظون فيه أنسابهم وتاريخهم، وقوتهم، وتفاخرهم فيما بينهم، وأصبحت هناك مهرجانات للشعر كسوق عكاظ ظهرت فيه النفائس الشعرية في الجزيرة العربية قبل الإسلام، وبعد نزول الديانة الإسلامية، ومعجزتها القرآن الذي كان إعجازا للعرب وحدهم، وامتحانا لهم بلغتهم الجميلة، فالقرآن الكريم من عوامل حفظ اللغة العربية، رغم المتغيرات والظروف التي مرت بها الأمة العربية عبر عصور من الانحدار الفكري والتخلف والتشرد والتشتت في الإمكانات، بالإضافة إلى مظاهر الحياة الإسلامية التي تدعوا إلى التسامح وعبادة الله عز وجل. فازداد وَلَهُ المتبحرين باللغة. وإعجابهم بلغة القرآن الكريم، وظهرت نفائس شعرية ولغوية عند المتصوفة الذين جمعوا بين جمالية الشعر العربي، وحالات التصوف والعرفان التي كابدوها في حياتهم، فكانت من أجمل ما قيل في الشعر العربي، فأغلب المتصوفة الإسلاميين لهم قصائد في ذلك، وما سنستعرضه من خلال مقتطفات من أشعار المتصوفة، التي تجول بك بأبعاد النفس الإنسانية وتصورها، ويتجسد الحب الإلهي الغامر فيها، ليمتزجا بين محبة الله للإنسان بأنه خليفة الله في الأرض، ومحبة الإنسان لله مما يعبر عنه المتصوفة، فكانت كالدرة المتلألئة في سماء الشعر العربي.

قال ابن سمنون المحب[1]:

ولا أعـيشُ إلا مـع رجالٍ قـلوبُهم ... تَحِنُّ إلى التقـوى وترتـاحُ إلى الذكـر
أُديـرَتْ رؤوسٌ للمنـايا عليـهِمُ ... فأغفوا عن الدنيا كإغفاءِ ذي سُـكر
همـومُهُم جُـوَّالة بمعسـكَر ... بـه أهـلُ ودِّ الله كالأنجـم الزهـر
فأجسـادهم في الأرض قتلـى بحُبـهِ ... وأرواحُهُم في الحُجُب نحو العَلى تـسري
فما عرَّسـوا إلا بقربِ حبيـبهم ... وما عَـرَّجوا عن مَسّ بؤسٍ ولا ضـرِّ

ذو النون المصري[2]:

لم تُبـادر بتوبـةٍ منـكَ حتى ... نَفِـدَ العُـمرُ والذنـوبُ كمـا هـي
لم تُبـادر بتوبـةٍ منـكَ حتى ... في كتـابٍ وأنـتَ عـن ذاكَ لاهـي
لم تُبـادر بتوبـةٍ منـكَ حتى ... صِرتَ شـيَخاً فحَبلكَ اليوم وَاهـي
فاجـتهِدْ في فِكاكِ نفسِـك واحذر ... يوم تبـدو السِّماتُ فوق الجبـاهِ

ويقول السهر وردي [3]:

أبـدًا تحـنّ إليـكمُ الأرواحُ ... ووصـالكم ريحـانها والـرّاحُ
وقـلوبُ أهـل ودادِكمْ تـشتـاقكمُ ... وإلى لذيـذ وصَالـكِمُ ترتـاحُ
وارّحـمْنا للعـاشقينَ تكلفـوا ... سـترَ المحبّـةِ والـهوى فـضّاحُ

1- طبقات الصوفية – ج: ١- ص: ٦٣٤.
2- طبقات الصوفية – ج: ١- ص: ٦٠٩
3- طبقات الصوفية – ج: ٢- ص: ٣١٢

ابن الفارض[1]:

أرجُ النسيم سَرَى مِنَ الزَّوْراءِ ... سَحَرا فأحيَا مَيِّتَ الأحيَاءِ
أهدَى لنا أرواحَ نَجدٍ عَرْفُهُ ... فالجوُّ منهُ مُعَنبرُ الأرجَاء
وَرَوى أحَاديثَ الأحِبَّة مُسنِدا ... عَن إذخِرٍ بأذاخِرٍ وَسَخَاء
فسَكرتُ من رَيَّا حَوَاشي بُردهِ ... وَسَرتْ حُمَيَّا البُرءِ في أدْوَائي
يا راكب الوجناء بُلِّغتَ المُنى ... عُجْ بالحمى إن جُزتَ بالجرعاء
متيمما تلعات وادي ضارج ... متيامنا عن قاعة الوعساء
وإذا وصلت أثيل سلع فالنقا ... فالرقمتين فلعلع فشظاء
وكذا عن العلمين من شرقية ... مل عادلا للحلة الفيحاء
واقر السَّلام عريب ذيَّاك اللوى ... من مغرم دنف كئيب ناء
صب متى الحجيج تصاعدت ... زفراته بتنفس الصعداء

قصيدة لابن الفارض[2]:

وأبعدني عن أربعي بعد أربع ... شبابي وعقلي وارتياحي وصحتي
فلي بعد أوطاني سكون إلى الفلا ... وبالوحش أنسي إذ من الأنس وحشتي
وزهد في وصلي الغواني إذ بدا ... تبلج صبح الشيب في جنح لمتي
فرحن بحزن جازعات بعيد ما ... فرحن بحزن الجزع بي لشبيبتي
جهلن كلوامي الهوى لا علمنه ... وخابوا وإني منه مكتهل فتى
وفي قطعي اللاحي عليك ولات ... حين فيك جدال كان وجهك حجتي
فأصبح لي من بعد ما كان عاذلا ... به عاذرا بل صار من أهل نجدتي

1- من ديوان ابن الفارض – ٢١.

2- من ديوان ابن الفارض – ٢٩.

وحجي عمري هاديا ظل مهديا ... ظلال ملامي مثل حجي وعمرتي
رأى رجباً سمعي الأبي ولومي ... المحرم عن لؤم وغش النصيحة
وكم رام سلواني هواك ميمماً ... سواك وأني عنك تبديل نيتي
وقد تلافى ما بقى منك قلت ما ... أراني إلا للتلاف تلفتي
إبائي أبى إلا خلافي ناصحاً ... يحاول مني شيمة غير شيمتي

ابن الفارض [1]:

ما بين ضَالِ المنحنى وظلالهِ ... ضَلَّ المُتيمُ واهتدى بَضلالهِ
وبذلك الشِّعْبِ اليَمَاني مُنيةٌ ... للصَّب قد بَعُدت على آمالهِ
يَا صاحبي هذا العقيقُ فقف بهِ ... متوالهًا إنْ كنتَ لستَ بوالهِ
وَانظرهُ عنِّي إن طرفي عَاقني ... إرسالُ دمعي فيه عن إرسَالهِ
واسأل غزال كناسهِ هل عِندهُ ... عِلمٌ بقلبي في هَواهُ وَحَالهِ
وَأظنهُ لم يَدر ذلَّ صَبابتي ... إذ ظلَّ مُلتهيا بعزِّ جَمَالهِ
أترى درى أني أحنُّ لهجْرهِ ... إذ كنت مشتاقا لهُ كوصَالهِ
وأبيتُ سهرانا أُمثل طيفهُ ... للطرفِ كي ألقى خيالَ خيالهِ
لا ذقت يوما راحة من عاذل ... إن كنت ملتُ لقيله وَلقاله
فوَحقِّ طيبِ رضَى الحَبيبِ وَوَصلِهِ ... ما مَلَّ قلبي حُبَّه لملالهِ
وَاهاً إلى ماءِ العُذيْبِ وكيفَ لي ... بحشاي لو يُطفى ببرْدِ زُلالهِ
وَلقدْ يجلُّ عن اشتياقي ماؤه ... شرفاً فواظمئي لِلامع آلهِ

1- ديوان ابن الفارض – ص: ١٣٣.

قال السهر وردي[1]:

لا نسب للعشّاق إذا نسب الهوى ... كتمانهم فنما الغرام فباحوا
سمحوا بأنفسهم وما بخلوا بها ... لما دروا أن السماح رباح
ودعاهمو داعي الحقائق دعوة ... فغدوا بها مستأنسين وراحوا
ركبوا على سفن الوفاء ودموعهم ... بحر وشدة شوقهم ماح
والله ما طلبوا الوقوف ببابه ... حتى دعوا وأتاهموا المفتاح
لا يطربون لغير ذكر حبيبهم ... أبدا فكل زمانهم أفراح
حضروا وقد غابت شواهد ذاتهم ... فتهتكوا لما رأوه وصاحوا
أفناهمو عنهم كشفت لهم ... حجب البقا فتلاشت الأرواح
فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم ... إن التشبّه بالكرام فلاح
أيامنا بلقائكم أفراح ... وجميع أيام الملاح ملاح
قل للمحب إذا تهتك بالهوى ... إن التهتك في الغرام مباح
أهل المحبة إذا طاب شرابهم ... باعوا نفوسهم لحبهم وارتاحوا
شربوا كؤوس الحب في حان الصفا ... فتمايلت سكراً بها الأرواح
بالانكسار تحملوا في حبه ... فبدا عليهم من رضاه سماح

قال الإمام الغزالي[2]:

بنور تجلى وجه قدسك دهشتي ... وفيك على أن لا خفا بك حيرتي
فيا أقرب الأشياء من كل نظرة ... لا بعد شيء أنت عن كل رؤية

1- أحلى قصائد الصوفية – ص:٢١.

2- ديوان حجة الإسلام الإمام الغزالي- ص:٤٤- ٤٥.

ظهرت فلمَّا أن بهرت تجلياً | بطنت بطونا كاد يقضي بردتي
فأوقعت بين العقل والحس عندما | خفيت خلافا لا يزول بصلحة
إذا ما ادعى عقل وجودك منكرا | على الحس ما ينفيه قال له اثبت
وذلك أن الحس ينفيك صُرة | يراها ويرضى العقل فيك بحجة
فمن ها هنا منشأ الخلاف ويصعب | الوفاق بخلف في اقتضاء الجبلة
فإن قلت لم أبصرك في كل صورة | أراها أحالت ذاك العين بصيرتي

سأله بعضهم عن كيفية استواء الله على عرشه فقال[1]:

قل لمن يفهم عني ما أقول | قصر القول فذا شرح يطول
ثمَّ سرٌّ غامضٌ من دونه | قصرت والله أعناق الفحول
أنت لا تعرف إيَّاك ولا | تدري من أنت ولا كيف الوصول
لا ولا تدري صفات ركبت | فيك حارت في خفاياها العقول
أنت أكل الخبز لا تعرفه | كيف يجري منك أم كيف تبول
أين منك الروح في جوهرها | هل تراها فترى كيف تجول؟
أين منك العقل والفهم إذا | غلب النوم فقل لي يا جهول
فإذا كانت طواياك التي | بين جنبيك كذا فيها ضَلُولُ
كيف تدري من على العرش استوى | لا تقل كيف استوى كيف النُّزُولُ
فهو لا أين ولا كيف له | وهو من كل النواحي لا يزول
جَلَّ ذاتاً وصفاتٍ وسما | وتعالى ربُّنا عما نقول

1- ديوان حجة الإسلام الإمام الغزالي – ص: ١٤٩.

عبد القادر الجيلاني[1]:

وحكمني جمع الدّنــــان بما حـــوى ... وكـل ملـوك العــالمين رَعِّيــــتي

وفي حـــاننا فأدخل الكـأس دائـــرًا ... ومـا شـرب العشـــاق إلا بقيِّـــتي

رفعت على من يـدعي الحبَّ في الورى ... فقـربني المـولى وفـــزتُ بنظـــرة

وجالـت خيـــولي في الأراضـي جميعها ... وزُفـتْ لـي الكاسـاتُ من كل جـــهةِ

ودقـت لـي الريـات في الأرض والسما ... وأهـل السما والأرض تعلم سطـــوتي

وشـــاءوا ملكـي سـار شرقا ومغربا ... فـصرت لأهـل الكـرب غوثـا ورحمــة

فمــن كـان مثلي يدّعي فيكم الهوى ... يطـاولني إن كـان يقـوى لـسطـــوتي

❖ ❖ ❖

أنـــا كنــت في العُليَّــا بنـور محمـدٍ ... وفي قـــاب قوسين اجتمـاع الأحبـةِ

شـــربت بكاسـات الغـرام ســلافة ... بها انتعشت روحي وجسمي ومهجتي

وصـرت أنـا الـساقي لمن كـان حاضـرا ... أديـــر عليهم كـــرةً بعـد كـــرةِ

وقفـــت بباب الله وحـدي موحـــدا ... ونوديـت يـا جيلانـي أدخـل لحضرتي

ونوديـت يـا جيلانـي أدخـل ولا تقـف ... عُطيتُ اللـــوا من قبل أهل الحقيـقة

❖ ❖ ❖

ذراعـــي مـن فـوق الـسمـاوات كلـها ... ومن تحت بطن الحوت أمددتُ راحتي

وأعـــلم نبـت الأرض كـم هـو نبتـةٌ ... وأعـــلم رمـل الأرض عَـدًا لرمـــلة

وأعـــلم علـم الله أحـــصي حروفـه ... وأعلم موج البحـــر عَدًا لمـــوجةِ

ومـا قـــلت هـذا القـول فخـــرًا وإنما ... أتي الإذنُ حتى تعرفـــوا مِنْ حقيقتي

ومـا قلتُ حتـى قيـل لـي قـُلْ ولا تخف ... فأنـتَ وليـيٌّ في مقـــام الولايـــــةِ

1- من كتاب أحلى قصائد الصوفية – ص:٢٥.

جلال الدين الرومي[1]:

وبكت عيني غداة الدمع دمعًا — وأخرى بالبكا بخلت علينا
فعاتبتُ التي بخلت علينا — بأن غمضتها يوم التقينا
فديتك يا ذا الوحي آياته تترى — تفسرها سرا وتكني بها جهرا
وأنشرت أمواتا وأحييتهم بها — فديتك ما أدراك بالأمر وما أدرى!
فعادوا سكارى - في صفاتك - كلهم — وما طعموا إثما ولا شربوا خمرا
ولكن بريق القرب أفنى عقولهم — فسبحان من أرسى وسبحان من أسرى
سلامٌ على قوم تنادي قلوبهم — بألسنةِ الأسرار شكرا له شكرا
فطوبى لمن أدنى من الجلدِ دَلْوَه — وفي الدلو حُسْنُ يوسفَ – قال: يا بشرا
يطالع في شعشاع وجنة يوسف — حقائق أسرار يحيط بها خبرا
تجلى عليه الغيب وأندك عقلهُ — كما أندك ذاكَ الطور استهدمَ الصخرا
فظلَّ غريقُ العشقِ روحاً مُجسّما — ونورا عظيما لم يدر دونه سترا

من قصيدة الحلاج[2]:

لي حبيب أزور في الخلوات — حاضر غائب عن اللحظات
ما تراني أصغي إليه بسري — كي أعّي ما يقول من كلماتو
كلمات من غير شكل ولا نقط — ولا مثل نغمة الأصواتو
فكأني مُخاطبٌ كنتَ إيّاهُ — على خاطري، بذاتي لذاتي
حاضر غائب قريب بعيد — وهو لم تحْوِهِ رسُم الصفاتو
هو أدنى من الضمير إلى الوهم — وأخفى من لائح الخطراتو

1- من كتاب أحلى قصائد الصوفية – ص:٣٨.

2- من كتاب أحلى قصائد الصوفية – ص:٥٩.

من قصيدة البردة للبوصيري[1]:

أمن تذكر جيران بذي سَلم ... مَزَجت دمعًا جرى من مقلةٍ بدم

أم هبت الريحُ من تلقاء كاظمةٍ ... وأومض البرق في الظلماء من إضَم

فما لعينيكَ إن قلت أكففا هَمَتا ... وما لقلبكَ إن قلتَ استفق يَهم

أيحسبُ الصَّبُّ أن الحبَّ منكتم ... ما بين منسجم منه ومُضطرم

لولا الهوى لم ترق دمَعاً على طللٍ ... ولا أرقتَ لذكر البان والعَلم

فكيفَ تنكرُ حبا بعدما شهدت ... به عليك عُدُولُ الدمع والسقم

وأثبتَ الوجدُ خَطيّ عبرةٍ وضَنىً ... مثل البهَار على خديكَ والعنَم

نعم سرى طيفُ من أهوى فأرقني ... والحب يعترض اللذات بالألم

يا لائمي في الهوى العذري معذرةً ... مني إليك ولو أنصفتَ لم تَلم

عَدتكَ حالي لا سرّي بمستتر ... عن الوشاة ولا دائي بمُنحسِم

مَحَضتني النُّصحَ لكن لستُ أسمَعُهُ ... إن المحبَّ عن العُذالِ في صَمَم

إني اتهمتُ نصيحَ الشَّيب في عَذلي ... والشيبُ أبعدُ في النصح عن التّهم

1- من كتاب أحلى قصائد الصوفية – ص: ١٠٨.

الخاتمة

كلمة المقدسات تترادف في غالبية الأحيان مع تعاليم الأديان ومبادئها، وبهذا ندرك أن الأغلبية العظمى من المجتمعات والشعوب يجب ألا تخالف تلك المبادئ التي صاغتها تلك الشعوب أو ما جاءت به الأديان السماوية منها والوضعية، ولا أعتقد جازما ما تسترعي تلك المصطلحات من انتباه بقدر ما تأخذ مسألة الأديان من جدل في الأوساط المعرفية، والأفكار في مسيرة تلك الشعوب، وتحتل مكانة المقدس ولا أحد يستطيع أن يجرؤ على تنفيذه أو إهماله، وإن أي أمر يخالف ذلك يصبح كالنار في الهشيم.

بعد أن تطرقنا إلى كل تلك العقائد والديانات التي كانت تبحث في صور شتى عن الحقائق، وقد أضفي شيئا أخر عليها بأنها لن تصل إلى الحقيقة المطلقة التي تتوق إليها باعتبار أن تلك الأديان كانت سماوية، أو وضعية هي منظومة أخلاقية، وتربية، اجتماعية، وثقافية، تداخلت معطياتها، وأشكالها، واختلفت من حيث مضامينها في كثير من القضايا مع مرور الزمن، فلم يكن العقل، إلا حاملا موضوعيا لتلك التصورات، وبشكل واضح في الديانات الوضعية الذي استطاع أن يفرض عقائد وديانات تصورها ذات يوم وفق طاقته المعرفية المحضة، وتستجلي تلك الحقائق التي كانت تراود العقل البشري من خلال الديانات السماوية، وإن هذه الإضافة بحد ذاتها هي أن العقل قاصر على الإمساك، والاكتشاف للحقائق التي كان تواقا إليها، وإذا كانت الديانات السماوية التي جاءت متتالية زمنيا تعتمد على العقل، ولكن الخطاب الإلهي كان أكبر مما هو موجود في تلك الرسالات، وما جاء فيها هو على قدرة العقل التي كانت تهدف إلى رسم معايير واضحة في حياة الإنسان، وعلاقاته مع الموجودات، وإن فعل ذلك الإنسان سيثاب، أو يعاقب عليه بصورة الترغيب، والترهيب، وهذا التلمس قد رأيناه من خلال القراءات

التي بين أيدينا لتلك الشعوب والأمم، التي شابها نوع من التداخل من الديانات التي تلتها زمانيا، ومعرفيا، ويمكن أن نقول في بعض المواضع قد نسختها واستبدلتها في المعرفة، وطرقها، وقوانين الحياة، ومعتقداتها، وفي ذات المسار إن تلك الديانات القديمة أخذت بالتقلص، ولن يساورنا الشك، بأن ما وصل إلينا مؤخرا، ما هو إلا بعض تحريف لتلك المعتقدات التي كانت سائدة لتتوافق مع الديانات الأخرى اللاحقة بها، ولتحقق قصب السبق في تلك المعارف وتضرب جذورها في التاريخ، وهذا لا يمنعنا من الاعتراف لما لهذه الأمم من تاريخ، وحضارة إنسانية، كانت صورا شاهدة عليها في كافة مفردات الحياة الإنسانية التي شارك فيها العقل البشري على مر العصور السالفة.

وإن تجسيد هذه الحقائق بشكلها الحقيقي، والصارم من قبل أبنائها ودعاتها يتوجب علينا أطلاق كلمة زهد، أو نسك، أو عبادة، أو كهنة، أو تصوف، وهذا ما يجب أن يكون، فكثير من العلوم، والنظريات، والأفكار يحملها أبناء تلك الأمم بصورتها الحقيقية شكلا ومضمونا التي وجدت من أجلها، و إلا ضاعت تلك الأفكار، والعقائد، والفلسفات عبر التاريخ، فهل من الواجب أن يقوم بعض أبناء تلك الأمم بالحفاظ على المكنونات، والدرر، للأفكار والعقائد لأسلافهم؟ وهذا فرض كفاية، وعندما يتعلق بكل فرد أيا كان مذهبه لتطبيق النظم الأخلاقية، والتربوية، والتعليمية، فهل يصبح فرض عين.

من المستحيل أن يصبح التصّوف كليا بالصورة التي نرسمها، أو نستطيع أن نضع لها بعض المعايير، وربما نجد قصورا آخر لدينا في العقل البشري بأنه وضع المعايير، بشكل إما أن تكون، أو لا تكون وفق نمطية الخير والشر في المكان والزمان، وقد يكون الخير شرا، والشر خيرا في مواضع متبادلة لهما، ولكن تأخذ حيزها الطبيعي، والعقلي عندما يتعلق ذلك بالإنسان بشكل مباشر، أو غير مباشر بالإضافة إلى أن أي خلل في تطبيق وظيفي لتلك المنظومة العقائدية سيؤدي إلى خلل في تنفيذ بنيتها مما يسبب خللا أكبر، وهذا ما تعانيه البشرية اليوم إذ يسود الشر بشكل كبير ويستصغر الخير في مواضع كبيرة لأن المجتمع ابتعد كثيرا عن القيم والمعايير التي صاغتها الحضارات، والأمم، والديانات، والعقائد، وهي رسم دقيق لكل مقومات الحياة.

والعالم اليوم نراه يتخبط في سياساته، وفي صراعاته، ولن تكون النتيجة إلا على الشاكلة من الفوضوية، والخراب، وبالمقابل هل أجزلت العطاء تلك المبادئ الصوفية التي دعت الى نبذ كل ما هو مادي، أو ما يوصل الى رغبة، أو شهوة، وهذه ليست عقيدة متفردة دون أخرى من الديانات أو المبادئ الوضعية كالهندوسية، أو الزرداشتية، أو البوذية، فحسب بل عند كل الأديان.

وإذا ما استعرضنا كل الزهاد، وكل الفلسفات، وكل المتصوفة نراهم وقفوا على النقيض من حافة المادية وعاشوا في عالمهم الروحي وابتعدوا عن كل ملذات النفس والشهوات، أما من تفرد بالقيم المادية المفرطة . وعاش بملذات نفسه وشهواته واضمحلت عنده القيم الروحية تاركا خلفه القيم الأخلاقية فهؤلاء أصبح تصوفهم المادة . في حين تفرد بها البعض تاركين كل القيم المادية، وأصبح تصوفهم الجانب الروحي، فهذا هو الصوفي العابد والناسك والراهب والكاهن ضمن منظومة من الأعراف والأخلاق النبيلة وسعادة النفس وعلى حساب المادة.

ألم يكن باستطاعته ذلك الإنسان أن يحمل هذه المتناقضات لكي يكتمل عمله، ألم يكن باستطاعته أيضا القيام بذلك باعتدالية بين المادة والروح، وهذه هي الوسطية بعد تجارب المجتمعات والشعوب والأمم وما أنتجته عبر تاريخها الطويل من فلسفات وحضارات، فكانت الوسطية، والاعتدال فيما بينها لكي تستقر مسيرة الحياة والحضارة وتترسخ قيم الإنسانية............ولن نستمر الحياة إلا بمتناقضاتها .

وخلاصة ذلك ما قاله الإمام الشافعي :

فقيهاً وصوفيًا فكن ليسَ واحدا	*فإني وحقّ الله إيَّاك أنصحُ*
فذلك قاسٍ لم يَذقْ قلبُه تقىً	*وهذا جهولٌ كيف ذو الجَهل يُصلَحُ*

المراجع والمصادر

١- الطبقات الصوفية – تأليف: زين الدين محمد عبد الرءوف المناوي – تحقيق وإعداد محمد أديب الجادر – دار صادر بيروت ١٩٩٩

٢- رسائل أخوان الصفا وخلان الوفاء – دار صادر ١٩٩٩

٣- الروح – تأليف :ابن قيم الجوزية – تحقيق :عصام الدين الصبا بطي – دار الحديث – القاهرة – الطبعة الثانية ١٩٩٨

٤- مختصر صحيح البخاري – ضبطه :الدكتور مصطفى ديب البغا – دار العلوم الإنسانية الطبعة الثالثة – دمشق ١٩٨٨

٥- مختصر صحيح مسلم – حققه: الدكتور مصطفى ديب البغا – دار العلوم الإنسانية – ١٩٨٨

٦- أبو يزيد البسطامي – المجموعة الصوفية الكاملة – تحقيق :قاسم محمد عباس – دار المدى ٢٠٠٤

٧- حكايا الصوفية – محمد أبو اليسر عابدين – دار البشائر – الطبعة السابعة – دمشق ٢٠٠١

٨- حكم وأمثال مثنوي جلال الدين الرومي – جمع ودراسة: د. مراد مولوي – د .خلدون صبح ٢٠٠٣

٩- في الإلهام والاختبار الصوفي – د. رؤوف عبيد – دار الفكر العربي مصر ١٩٨٦

١٠- الملل المعاصرة في الدين اليهودي – محاضرات: د. إسماعيل راجي الفاروقي – معهد البحوث والدراسات العربية –جامعة الدول العربية – ١٩٨٦

١١- التصوف الثورة الروحية في الإسلام – د : أبو العلا عفيفي – دار الشعب – بيروت.
١٢- الفكر الشرقي القديم – تأليف : جون كولر – ترجمة : كامل يوسف حسين – مراجعة : د .إمام عبد الفتاح إمام – عالم المعرفة ١٩٩٥ .
١٣- الأديان الحية : نشوؤها وتطورها – أديب صعب –دار النهار –بيروت ١٩٩٢ .
١٤- حكمة الأديان الحية – تأليف :جوزيف كاير – ترجمة :المحامي حسين الكيلاني– مراجعة : الأستاذ : محمود الملاح – دار الحياة – بيروت ١٩٦٤ .
١٥- حكمة الروح الصوفي – تأليف : ميثم الجنابي – دار المدى ٢٠٠١ .
١٦- موسوعة تاريخ الأديان – تحرير : فراس السواح – دار علاء الدين ٢٠٠٣ .
١٧- فصوص الحكم – محي الدين بن عربي – بقلم : أبو العلا عفيفي – دار الكتاب العربي بيروت ٢٠٠٢
١٨- الفرق والمذاهب المسيحية منذ البدايات حتى ظهور الإسلام – نهاد خياطة – دار الأوائل – ٢٠٠٢ .
١٩- ديوان حجة الإسلام الإمام الغزالي – إعداد : محمد عبد الرحيم – دار قتيبة – دمشق ٢٠٠٠ .
٢٠- الفلسفة والإنسان – د . علي الشامي – دار الإنسانية –بيروت ١٩٩١ .
٢١- الرحمن والشيطان – فراس السواح – دار علاء الدين –دمشق ٢٠٠٤ .
٢٢- الصوفية في الإسلام – تأليف : المستشرق الدكتور نيكلسون – ترجمة : نور الدين شريبة – مكتبة الخانجي –مصر ١٩٥١ .
٢٣- قصة الخلق – سيد القمني – المركز المصري لبحوث الحضارة – مصر – الطبعة الثانية ١٩٩٩ .
٢٤- المعتقدات الدينية لدى الشعوب – تأليف : جفري بارندر – ترجمة : د . عبد الفتاح إمام – مراجعة : عبد الغفار مكاوي – الطبعة الثانية – مكتبة مد بولي –القاهرة ١٩٩٦ .
٢٥- التصوف والفلسفة – تأليف : ولترستيس – ترجمة وتقديم : أ د . إمام عبد الفتاح إمام – مكتبة مد بولي – القاهرة ١٩٩٩ .

٢٦- التصوف والتفلسف (الوسائل والغايات) – تأليف: د. صابر طعيمة – مكتبة مدبولي – القاهرة ٢٠٠٥.

٢٧- ملف خاص (التصوف المسيحي- الإسلامي)- مجلة المعارج – العددان (٤٨-٤٩) ٢٠٠٤.

٢٨- مدارات صوفية – تأليف: هادي العلوي – دار المدى ١٩٩٧.

٢٩- الصوفيون وأرباب الأحوال – تأليف: عبد العزيز عز الدين السير وان – تقديم: الشيخ أحمد كفتارو – ١٩٩٥.

٣٠- الغنية (طريق الحق في الأخلاق الإسلامية والتصوف والآداب)- للشيخ عبد القادر الكيلاني – دار الألباب – دمشق.

٣١- تاريخ الإسلام (السياسي والديني والثقافي والاجتماعي)- الجزء الثالث – تأليف: د. حسن إبراهيم حسن – الطبعة السابعة ١٩٦٥ – مكتبة النهضة المصرية – القاهرة ١٩٦٥.

٣٢- الإمام الغزالي بين العقل والنقل – المؤلف – دار علاء الدين – دمشق: ٢٠٠٤.

٣٣- الرسالة القشيرية – تأليف: الإمام أبو القاسم عبد الكريم بن هوا زن ابن عبد الملك بن طلحة القشيري النيسابوري – تقديم: نواف الجراح –دار صادر – بيروت ٢٠٠١

٣٤- التعرف لمذهب أهل التصوف – تأليف: أبو بكر محمد الكلاباذي –تقديم د. يوحنا الحبيب صادر – دار صادر ٢٠٠١

٣٥- فلسفة التأويل (دراسة في تأويل القرآن عند محي الدين ابن عربي)- د. نصر حامد أبو زيد – دار التنوير – بيروت ١٩٨٣

٣٦ - قطب العارفين (في العقائد والتصوف)- تأليف: أبي القاسم عبد الرحمن بن يوسف اللجائي – حققة: د محمد الديباجي – دار صادر – بيروت ٢٠٠١

٣٧- موسوعة فلاسفة ومتصوفة اليهودية – تأليف: د. عبد المنعم الحفني – مكتبة مد بولي القاهرة ١٩٩٤.

٣٨- حقائق عن التصوف – عبد القادر عيسى – الطبعة الأولى – حلب: ١٩٦٤.

٣٩- أصول التصوف الإسلامي - د. حسن الشرقاوي - دار المعرفة الجامعية - بيروت ١٩٩١.
٤٠- مقدمة ابن خلدون - دار العودة - بيروت ١٩٩٦.
٤١- حادي الأرواح (إلى بلاد الأفراح) لابن قيم الجوزية - تعليق: عصام الدين الصبا بطي دار الحديث - القاهرة ٢٠٠١.
٤٢- تاريخ الفلسفة - تأليف: فرد ريك كوبلستون -ترجمة: إمام عبد الفتاح إمام - المجلس الأعلى للثقافة - القاهرة ٢٠٠٢.
٤٣- الرهبنة والتصوف (في الإسلام والمسيحية) - تأليف محمد عبد الحميد الحمد - ٢٠٠٤.
٤٤- الكتاب المقدس (العهد القديم والعهد الجديد) - دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط.
٤٥- المذاهب الصوفية ومدارسها - تأليف عبد الحكيم عبد الغني قاسم - مكتبة مدبولي.
٤٦- الكتاب المقدس (العهد الجديد) - منشورات دار المشرق - بيروت - ١٩٦٩.
٤٧- عبقرية العرب في العلم والفلسفة - د. عمر فروخ - المكتبة العصرية - بيروت - ١٩٨٥.
٤٨- حياة بوذا - ترجمة: محمود منقذ الهاشمي - وزارة الثقافة - دمشق - ٢٠٠٢.
٤٩- التصوف الإسلامي - عبد الله الشرقاوي - دار العلوم - القاهرة
٥٠- الموسوعة اليهودية والصهيونية - عبد الوهاب المسيري -
٥١ - الفصل بين الملل والأهواء والنحل - ابن حزم الأندلسي -
٥٢- الملل والنحل - الشهرستاني - (ج:١، ٢) صححه وعلق عليه: الأستاذ أحمد فهمي محمد - دار الكتب العلمية - بيروت -
٥٣- السيرة النبوية - لابن هشام - حققها: " السقا- الابياري - الشلبي " - (ج:٢،٠)- المكتبة العلمية - بيروت.
٥٤- التعرف لمذاهب أهل التصوف - تأليف: تاج الإسلام أبو بكر محمد الكلاباذي - تقديم د. يوحنا الحبيب - دار صادر - بيروت - ٢٠٠١.

٥٥- قصص القرآن الكريم – تأليف: محمد أحمد جاد المولى – دار إحياء التراث العربي – بيروت – ٢٠٠٢.

٥٦- ديوان ابن الفارض – (الديوان الكامل)- ترتيب وتدقيق: سمير شيخ الأرض – دار الكوثر – دمشق: ١٩٩٩.

٥٧- قصة الديانات – سليمان مظهر – مكتبة مد بولي – القاهرة – ٢٠٠٢.

٥٨- قصة الحضارة – وول ديورانت – ترجمة: الدكتور زكي نجيب محمود – جامعة الدول العربية – الطبعة الخامسة.

الفهرس

الإهداء ٥

المقدمة ٧

مفهوم التصوف ونشأته ١٣

الإنسان بين الفلسفة والتصوف ١٩

الباب الأول: فلسفة التصوف في الأديان الوضعية ٢٩

❖ الديانة الهندوسية ٣١

- نشأة الديانة الهندوسية ٣٦
- الزهد والتقشف في الديانة الهندوسية ٣٩

❖ الديانة البوذية ٤٣

- تعاليم بوذا وفلسفته ٤٥
- فلسفة التصوف في الديانة البوذية ٥٦

❖ الديانة الجاينية ٥٩

❖ الديانة الكونفوشيوسية ٦٣

- حياة وتعاليم كونفوشيوس ٦٤
- فلسفة التصوف في الديانة الكونفوشيوسية ٦٩

❖ الديانة التاوية ٧٣

- حياة وتعاليم لاو- تسي ٧٥
- فلسفة التصوف في الديانة التاوية ٨٠

❖ ديانة الشنتو ٨٣
– تعاليم الشنتو(القداسة) ٨٤
❖ الديانة الزداشتية ٩١
– تعاليم الزرداشت ٩٢
– فلسفة التصوف في الديانة الزرادشتية ٩٤

الباب الثاني: التصوف في الأديان السماوية ٩٧
مقدمة ٩٩
❖ الديانة اليهودية ١٠٣
– التصوف في الديانة اليهودية ١٠٨
❖ الديانة المسيحية ١٢٧
– التصوف في الديانة المسيحية ١٣٢
❖ فلسفة التصوف في الفكر الإسلامي ١٣٩
– المقدمة ١٤٣
– القدوة الحسنة الرسول (ص) ١٥٤
– الخلفاء الراشدون ١٥٨
– الزهد والتصوف في الإسلام ١٦٦
– مدارس الصوفية ١٧٣
– الكرامات ١٩٢
– ظاهرة الشطح عند متصوفة الأديان ١٩٦
– مقتطفات من الشعر العربي الصوفي ٢٠٠
الخاتمة ٢٠٩
المراجع والمصادر ٢١٣
الفهرس ٢١٩

كثير من الباحثين والمفكرين الذين تناولوا بحث التصوف من زوايا متعددة

فالدراسة التي بين أيدينا للباحث عيد الدرويش يتناول فيها التصوف في الأديان

السماوية والوضعية ويستعرض الخصائص والسمات التي يتفرد بها كل عبر تاريخ من خلال

تطور العقل البشري الذي يعتبر المحور الأساسي في تطبيق الأديان السماوية ودوره الأكبر

أيضاً في إنشاء الأديان الوضعية ويبرز الباحث أن غاية الأديان لتعطي صورة واضحة

المعالم للقارئ عنه وأرقى كل دين والجوانب التي جسدها أتباعه في سلوك حياتهم

وطقوسهم الدينية في عصور متعاقبة في القدم في إطار العقل المحض وصولاً إلى الأديان

السماوية وعلى الإنسان أن يتبع أمر دينه الذي أنزله الله .

أن يفهم الدين فهماً صحيحاً - أن يطرق باب الاعتدال والوسطية في كل أمر

كل ذلك لكي يحقق ذلك الإنسان التوازن النفسي والروحي والمادي الذي يحب

عنه طوال حياته ، الناشر

